الجمهوريـــــــــــة اليمنيـــــــــــة
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعـــــــــــــة تعـــــــــــــز
نيابة الدراسات العليا والبحث العلمي
كليـــــــــــــــــــــة الآداب
قســـــم اللغـــــة العربيـــــة

العدول في صيغ المشتقات في القرآن الكريم
دراسة دلالية

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير

إعداد الطالب :

جلال عبد الله محمد سيف الحمادي

إشراف :

أ . د . عباس علي السوسوة

١٤٢٨هـــ ـــ ٢٠٠٧م

The Republic Of Yemen
TAIZ UNIVERSITY
VICE PRESIDENT FOR GRADUATE STUDIES AND RESEARCH



الجمهورية اليمنية
جامعة تعز
مكتب نائب رئيس الجامعة
للدراسات العليا والبحث العلمي

محضر مناقشة رسالة ماجستير رقم (2) للعام الجامعي 2007 م

بناءً على مصادقة مجلس الدراسات العليا والبحث العلمي في قراره الصادر في دورة اجتماعه: السادسة

بتاريخ: 29 /5/ 2007م بتشكيل لجنة مناقشة رسالة الماجستير المقدمة من :

الطالب / جلال عبد الله محمد سيف - كلية : كلية الآداب ، قسم : اللغة العربية ، تخصص : علم اللغة

الموسومة بـ «« العدول في صيغ المشتقات في القرآن الكريم "دراسة دلالية" . »»

التي أشرف عليها الأستاذ الدكتور / عباس السوسوة ، بموجب قرار مجلس الدراسات العليا والبحث العلمي بتاريخ

22 /11/ 2005م .

واستناداً إلى لائحة الدراسات العليا في الجامعة .

اجتمعت اللجنة المؤلفة بهذا القرار يوم الأحد الموافق 24/6/2007م من :

1- أ.د/ عباس علي السوسوة. المشرف على الرسالة، جامعة تعز رئيساً

2- أ.د/ عبد الله صالح بابعير ممتحناً خارجياً ، جامعة حضرموت عضواً

3- أ.د/ عبد الفتاح محمد عبدش ممتحناً داخلياً ، جامعة تعز عضواً

وبعد مناقشة الطالب فيما جاء في الرسالة قررت اللجنة :

قبول الرسالة العلمية جزأً من متطلبات درجة الماجستير في الآداب ، مع التعديلات والإضافات التالية :

(إن وجدت)

حسب ما ورد في ملاحظات ...

وتوصي اللجنة بطباعة الرسالة بعد التصويبات .

أعضاء اللجنة:

م	الاسم	الصفة	اللقب العلمي	التوقيع
1	عباس علي السوسوة	المشرف ورئيس اللجنة	استاذ دكتور	[signature]
2	عبد الله صالح بابعير	الممتحن الخارجي	أستاذ مشارك	[signature]
3	عبد الفتاح محمد عبدوش	الممتحن الداخلي	استاذ مشارك	[signature]

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي . وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي

إهداء

إلى الرجل الذي **تمنّى** وحسب...

فاختنق بأمانيه...

أبي الكريم طيّب الله ثراه

وإلى السيّدة التي ما زالت **تتمنّى**...

وتوشك أن ...

أمي الحبيبة حفظها الله

إليكما أيها العزيزان.. أهدي هذا الجهد...

على غفلة من **غائلات** الأماني..

جلال

قائمة المحتويات

المقدمة

اتُّهمت الدراسات اللغوية – فترةً طويلةً – بأنّها دراسات وصفية شكلية لا تنطلق في مقاربة العمل الإبداعي من أرضية فلسفية . ووُسمت بأنّها دراسات جامدة لا روح فيها لأنّها ارتضت لنفسها أن تطّلِع على السطح الخارجي للنصّ بعينٍ واصفة كليلة لا تقوى على اختراق هذا السطح لتغوص في أعماق النص بحثاً عن الطاقات الكامنة والإيحاءات القارّة .

وإذا كانت الأسلوبية استطاعت أن تمدّ جسوراً للتواصل بين الدراسات اللغوية والنقد من خلال تأسيس منهج نقدي بآليات لغوية ، فإنّ تأثُّرها بالبلاغة التراثية ووفرة القواسم المشتركة بينهما – رغم تميُز الأسلوبية وارتيادها آفاقاً جديدةً لم تخطر على بال البلاغيين القُدامى – جعلا الأسلوبية تتسلُّ تدريجياً من المناهج اللغوية لتتفيأ ظلالاً جديدةً في حقل الدرس البلاغي حتى أُطلق عليها (البلاغة الجديدة) .

وظلّت الدراسة الدلالية تنتمي إلى حقل الدراسات اللغوية لكنّها استطاعت أن تتسلّح بآليات النقد فتجاوزت المنهج الوصفيَّ الصِّرف وخلفته وراءها لترتاد آفاقاً جديدة ولتُحلِّق في فضاءات النصِّ بعين ناقدة فاحصة ربّما يحلو لها أن تقف على عتبات النص وتتقرّى ملامحه وقسماته وتتلمَّس تضاريس الجمال والرّوعة على أديمه . ولكنّها لا تلبث أن تغوص في أعماقه بحثاً عن المؤثرات الداخلية والطاقات الخلّاقة التي جعلته يتوهّج بهذه الملامح المشعّة والجمال الأخّاذ .

لكلّ ذلك ارتأى الباحث أن يجعل دراسته لظاهرة العدول في صيغ المشتقات في القرآن الكريم دراسةً دلاليةً ، وارتضى في سبيل تحقيق هذه الغاية أن ينتهج المنهج الاستقرائي التحليليّ الذي يقوم على استقراء نماذج العدول في صيغ المشتقات في القرآن الكريم ومن ثَمّ مقاربة هذه النماذج وتحليلها بحثاً عن دلالات العدول والتّحوُّل عن صيغة إلى صيغة أخرى . ولوفرة نماذج العدول في الصيغ المشتقة في القرآن الكريم ولكثافتها قاربَ الباحث ما تيسّر له منها (وليس هو بالقليل) وألحق بالدراسة ثبتاً تفصيلياً بهذه المواضع جميعها .

أسباب اختيار البحث :

١ - وقوف الباحث على نماذج مدهشة محيّرة في آنٍ من هذه الظاهرة شكّلت لديه علامات استفهام كبيرة ؟؟؟ ، ثم تراكمت هذه العلامات لتصبح إشكاليةً أسلوبيّةً أثارت لديه حب الاستطلاع وغريزة المعرفة فجاء اختيار هذا الموضوع في طريق البحث عن دلالات هذه الظاهرة الأسلوبية والإجابة عن تلك التساؤلات والخروج من حُمّى الجدل .

٢ - نُدرة الدراسات التي تناولت موضوع العدول في صيغ المشتقات في القرآن الكريم ، إذ توجّهت جهود معظم الدارسين لتناول ظاهرة العدول في الضمائر ، والقليل منها تناول العدول في الأفعال والعدول في العدد . أمّا العدول بين صيغتي الاسم وبين صيغتي الفعل والاسم فلا توجد منه سوى إشارات عابرة لم تنتظمها دراسة علمية منهجية .

٣ - التطلُّع إلى إضافة جهد متواضع إلى الجهود السابقة التي تناولت هذا الموضوع : خدمةً للكتاب الكريم .

*الدراسات السابقة :

تناثرت بعض نماذج العدول في صيغ المشتقات في مواضع متفرقة من كتب التراث العربي لاسيّما كتب التفسير . وقد أفاد الباحث من المقاربات التراثية الرائعة لهذه النماذج عند كلٍّ من الزمخشريّ وأبي حيان والفخر الرازي والآلوسي وابن عاشور على وجه الخصوص .

وفي العصر الحديث حاولت بعض الدراسات لمّ شتات الموضوع وتأطيره في حيِّز خاص به ولكنّ هذا الجهد ظلّ متعثراً في سبيل تحقيق هذه الغاية ؛ ذلك لأنّ الجهد المبذول تنازعته حقول عدولية أخرى إلى جوار حقل العدول في صيغ المشتقات كالعدول في الضمائر والعدول في العدد مما سبّب قصوراً في تناول الموضوع الأمر الذي شجع الباحث على تناوله ومحاولة استيعابه في بحث خاص به . ومن أهمّ الدراسات الحديثة التي تناولت هذا الموضوع :

١-أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية للدكتور حسن طبل :

في الفصل الثاني من هذه الدراسة يدرس الدكتور حسن ظاهرة الالتفات في ضوء معطيات علم الأسلوب محاولاً الكشف عن وجوه التشابه والتلاقي بين تلك الظاهرة كما تحدّدت ملامحها الأصلية في التراث البلاغي والظاهرة الأسلوبية من وجهة نظر علم الأسلوب .

وفي الفصل الثالث وهو الفصل التطبيقي يعرض د / حسن ست صور من صور الالتفات هي : الالتفات في الصيغ ، الالتفات في العدد ، الالتفات في الضمائر، الالتفات في الأدوات ، الالتفات في البناء النحوي ، الالتفات المعجمي .

ويُلاحظ أن صورة واحدة من هذه الصور الست فحسب تتصل بموضوع صيغ المشتقات وهي الصورة الأولى (الالتفات في الصيغ) . وتشتمل هذه الصورة على نماذج تمثيلية لظاهرة العدول في الصيغ ولكنّها قسيمة خمس صور أخرى في تكوين بنية الفصل الثالث فمن البديهي _ إذن _ ألّا تستطيع لمّ شتات الموضوع أو الإحاطة بمعظم نماذجه إحصاءً وتحليلاً .

٢ -الالتفات في القرآن الكريم دراسة أسلوبية للباحثة سعاد الحدابي :

تقع هذه الدراسة في أربعة فصول : الفصل الأول تضمّن المهاد النظري للبحث والفصل الثاني تناول الالتفات في الضمائر والفصل الثالث خصّصته الباحثة للالتفات في الأفعال وخصّصت الفصل الرابع للالتفات في العدد. ولا يتصل بموضوعنا غير الفصل الثالث الخاص بالالتفات في الأفعال . أمّا الالتفات في صيغ الأسماء والالتفات بين صيغتي الاسم والفعل فقد أغفلتهما الباحثة تماماً.

٣ -الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم – دراسة نظرية تطبيقية : التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة للدكتور عبد الحميد هنداوي :

في هذه الدراسة لم يقتصر الباحث على القرآن الكريم وحده ، بل قرنه بنماذج من الشعر العربي من مختلف العصور . وفي الفصل الثاني من هذه الدراسة الموسوم بــ (أسس التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة) يتناول د / هنداوي ثلاثة مصطلحات عدّها أسساً مهمّةً في توظيف الصيغة الصرفية توظيفاً بلاغياً هي : الاختيار ، العدول ، التكرار . وضمن مصطلح العدول يتناول الباحث بعض النماذج الخاصة بتوظيف صيغ المشتقات في القرآن الكريم والشعر العربي في وريقات قليلة لا تتجاوز عَشْرَ الورقات : كالعدول إلى اسم المرة واسم الفاعل والصفة المشبّهة واسم المفعول ... إلخ .

٤ - بلاغة الكلمة في التعبير القرآني للدكتور فاضل السامرائي :

في هذا الكتاب يتناول الدكتور السامرائيّ نماذج من العدول في صيغ المشتقات تحت عناوين أخرى تناقش كلها دلالة التنويع بين الصيغتين المشتقتين ويمكن ضمها تحت مسمّى العدول عن صيغة إلى أخرى خاصة حين ترد الصيغتان في سياق واحد . ومن هذه العناوين :

- الذكر والحذف : وفيه يدرس الدكتور السامرائيّ دلالة ورود الكلمة مرة تامة غير منقوصة وورودها مرة أخرى ناقصة محذوفا بعض حروفها ومن شواهده على ذلك : (استطاعوا ، اسطاعوا) ، (تنزَّلُ ، تتنزَّلُ) ، (توفّاهُم ، تتوفّاهم) ، ... إلخ .

- الإبدال : تحت هذا العنوان يدرس السامرائي – مما له علاقة بموضوع بحثنا - دلالة مجيء الكلمة مدغمة مرة وغير مدغمة مرة أخرى ومما أورده في هذا المقام : (يتضرّعون ، يضّرعون) ، (المصدِّقين ، المتصدِّقين) (يزّكى ، يتزكّى) ... إلخ .

- فعَّلَ وأفْعَلَ بمعنى : هنا يفرِّق السامرائي بين صيغتي فَعَّلَ وأفْعَلَ فيدرس دلالة كل بناء من هذين البنائين في الكلمة الواحدة التي وردت عليهمـــا . وممـــا درسه في هذا السياق : (أوصى ، وصّى) ، (نزّل ، أنزل) ، (نجّى ، أنجـــى)... إلخ .

- المبني للمجهول : وفيه يتناول بالبحث دلالة مجيء الصيغة مـــرة مبنيـــة للمعلوم ومرة مبنية للمجهول . ومما تناوله : (يُنْزَفون ، يُنْزِفون) ، (يُطاف ، يَطوف) ... إلخ .

- الوصف : تحت هذا العنوان يورد السامرائي مثالا واحـــداً ممـــا يتصـــل بموضوع هذا البحث هو التنويع بين صيغتي اسم الفاعل (مُشْـــتبِهاً ، مُتشـــابِهاً) ودلالة هذا التنويع.

* محتويات البحث :

اشتمل البحث على مقدِّمة وبابين : نظـــري وتطبيقـــي وخاتمـــة وثبـــت بمواضع العدول في صيغ المشتقات في القرآن الكريم.

في المقدِّمة تحدّث الباحث عن أهمية الدراسة الدلاليـــة بـــين الدراســـات اللغوية وعن المنهج الذي اتّبعه في دراسته هذه والأسباب التي دفعته لاختيـــار هذا الموضوع ثم تعرَّض لذكر أهمّ الدراسات السابقة التي تناولت الموضـــوع وقدّم وصفاً موجزاً لمحتويات البحث .

أمّا الباب الأول النظريُّ : فقد جعله الباحث في فصلين اثنين :

- الفصل الأول : تحدّث فيه الباحث عن مصطلح العـــــــدول ومـــــا يتعلّـــق به من إشكاليات .

- وتحدّث في الفصل الثاني عن محورين رئيسين هما :

** الصيغة.

** والمشتقات .

أمّا الباب الثاني (التطبيقيُّ) فيشتمل على ثلاثة فصول :

- الفصل الأوّل : تناول الباحث فيه بالتحليل نماذج العدول في صيغ الأفعال .

- الفصل الثاني : تناول فيه الباحث بالدراسة نماذج العدول في الصيغ الاسمية .

- ويتضمّن الفصل الثالث المقارباتِ التحليليةَ لنماذج العدول بين صيغتي الفعل والاسم .

ويشتمل البحثُ على خاتمة ضمّنها الباحث أهمّ النتائج التي خرج بها من دراسته هذه . كما يشتمل على ثبت تفصيلي بمواضع العدول في صيغ المشتقات في القرآن الكريم مرتبة حسب ترتيب المصحف .

وبعد أن استوى هذا البحث على سوقه ، يجد الباحث نفسه مطوّقاً بأطواق من الجميل والعرفان لكل من مدّ له يد العون وساهم في رعاية هذا البحث ولو بكلمة نافعة عابرة أو لفتة كريمة ناقدة ، وأخصّ بالشكر أستاذي القدير عباس السوسوة الذي شرّفني بقَبول الإشراف على هذا البحث ثم أغرق في تشريفي بوضع بصماته الناقدة القيمة وملاحظاته العلمية الدقيقة التي أزالت عن هذا البحث كثيرا من شوائبه وما زال يرعاه مذ كان جنيناً حتى شب عن الطوق . والشكر موصول للأساتذة الكرام أعضاء لجنة المناقشة : الأستاذ الدكتور عبد الله صالح بابعير والأستاذ الدكتور عبد الفتاح محمد عبّوش اللَّذَيْنِ شرَّفاني بقبول مناقشة هذا البحث ليثريَاه بملاحظاتهما القيمة النافعة فجزاهما الله عني خير الجزاء .

الباب الأول

المهاد النظري

الفصل الأول

عن مصطلح العدول

* مفهوم العدول عند اللغويين :

تحيل مادة (عدل) في المعاجم اللغوية العربية إلـــى دلالات كثيـــرة منها:[1]

- العدل : ضد الجور . وعدل عن الحق إذا جار عدولاً . **وعدل عــن الشـــيء يعدل عدلاً وعدولاً** : **حاد ، وعن الطريق : جار ، وعدل عن الطريق نفسه** : **مال** .

- والعدل من الناس : المرضيّ قوله وحكمه . ورجلٌ عــدل وعـــادل : جـــائز الشهادة . ورجلٌ عدلٌ : رضاً ومَقْنعٌ في الشهادة بيِّنُ العدل والعدالـــة ، وصـــف بالمصدر معناه : ذو عَدْلٍ .

- وعدّل الحكم تعديلاً : أقامه . وعدّل فلاناً : زكّاه أي قال : إنه عَدْلٌ .

- وعدّل الميزان والمكيال : سوّاه فاعتدل .

- وعدله يعدله عدلاً وعادله معادلةً : وازنه . وعادلَ الأمرَ : ارتبك فيه فلا يميل برأيه إلى أحد طرفيه.

- وعدله في المحمل وعادله : ركب معه .

- والعَدْل : المِثل والنظير كالعِدْل (بالكسر) . وقال الفرّاء : العَدْل بالفتح : مـــا عادل الشيء من غير جنسه والعِدْل (بالكسر) : المِثْل ... وقال الزجّاج : العَـــدْل والعِدْل واحدٌ في معنى المثل .

- والعِدْل : الكيل وقيل الجزاء وأيضاً الفريضة .

- والعَدْل : الاستقامة .

- والاعتدال : توسط حالٍ بين حالين في كمٍّ أو كيف .

- **وعَدَلَ إليه عدولاً : رجع . وعدل عن الطريق نفسه : مال .**

---

[1] يُنظر لسان العرب : ١١ / ٤٣٠- ٤٣٧ ، تاج العروس : ١٥ / ٤٧١ ـــــ ٤٧٦ .

- وماله مَعْدِلٌ ، كمجْلِس ، ولا معدول أي : مَصْرِفٌ . وانعدل عنه : تنحَّى ، وعادَلَ : اعْوَجَّ . والعَدْل : أن تعدل الشيء عن وجهه تقول : عدلتُ فلاناً عن طريقه ، وعدلتُ الدابة إلى موضع كذا . وفي الحديث : " لا تعدل سارحتكم " ١. أي لا تصرف ماشيتكم وتمال عن المرعى ولا تُمنع .

- والعَدْل : أن تريد لفظاً فتعدل عنه : كعُمَر من (عامر).

- والعُدول : كون أداة السلب جزءاً من القضية : كالإنسان لا حجر واللاحي جماد . والتحصيل خلافه : كالإنسان حيوان والحجر ليس بحيوان.٢

ويهمنا من الدلالات السابقة لمادة (عدل) ما يشير إلى معنى **الانحراف والتحول عن الشيء إلى غيره** . وهو المعنى الذي اعتمدناه في دراستنا هذه وقصدنا إليه بمصطلح (العدول) في عنوان هذه الدراسة وعلى أساسه نزمع مقاربة ظواهر التحول والعدول من صيغة إلى صيغة أخرى في السياقات القرآنية بحثاً عما تحمله من دلالات وقيم جمالية .

* الدلالة النحوية والتفسيرية والبلاغية لمادة (عدل) :

تحيل مادة (عدل) - في كتب النحو والتفسير والبلاغة - على دلالة واحدة هي دلالة الانصراف عن الشيء وتركه والتحول إلى غيره ، يقول ابن جني في معرض تعريفه للعدل : " معنى العدل : أن تلفظ ببناء وأنت تريد بناءً آخر نحو : عمر وأنت تريد عامراً ، وزفر وأنت تريد زافراً "٣.

ويُقدِّم ابن السَّرَّاج تعريفاً للعَدْل أكثر وضوحاً وتفصيلاً فيقول : " ومعنى العدل أن يُشتق من الاسم النكرة الشائع اسم ويُغيَّر بناؤه ؛ إما لإزالة معنىً إلى معنىً ، وإما لأن يُسمَّى به ، فأمّا الذي عُدِل لإزالة معنىً إلى معنىً فمثنى وثلاث ورباع وأحاد ، فهذا عُدِلَ لفظه ومعناه ، عُدِلَ عن معنى اثنين إلى معنى

---

[1] ، غريب الحديث(لأبي عبيد القاسم سلام الهروي) : ٢٠٠/٣ ، الفائق في غريب الحديث : ٤١٦/٣، غريب الحديث (لابن الجوزي) : ٤٧٣/١ ، النهاية في غريب الحديث والأثر : ٤١٨/٣ ، ،

[2] ينظر : المفردات في غريب القرآن : ٣٣٠ ، الكليات : ٦٣٩ ، ٦٤٠ .

[3] اللمع في العربية : ٢١٧.

اثنين اثنين ، وعُدِلَ عن لفظ اثنين إلى لفظ مثنى ، وكذلك (أُحاد) عدل عن لفظ واحد إلى لفظ أحاد وعن معنى واحد إلى معنى واحد واحد . وسيبويه يذكر أنه لم ينصرف ؛ لأنه معدول وأنه صفة ولو قال قائل : إنه لم ينصرف لأنه عُدِل في اللفظ والمعنى جميعاً ، وجعل ذلك لكان قولاً : فأمّا ما عُدل في حال التعريف فنحو : عُمر وزُفر وقُثم ، عُدلن عن عامر وزافر وقاثم " [1].

ويعرّفه العكبري بقوله : " والعدل : هو أن يُقام بناء مقام بناء آخر من لفظه ، فالمعدول عنه أصل للمعدول " [2]. وقريب من تعريف العكبري للعدل تعريف ابن هشام له : " العدل : وهو تحويل الاسم من حالة إلى حالة أخرى مع بقاء المعنى الأصلي "[3].

وفي حاشيته على شرح ابن عقيل يعرف الخضريُّ العدل بقوله : " هو تحويل الاسم من حالة إلى حالة أخرى مع بقاء المعنى الأصلي بغير قلب أو تخفيف أو بإلحاق أو معنى زائد ، فخرج من المعدول نحو : أيس مقلوب يئس ، و(فَخْذ) بالسكون مخفَّف المكسور ، وكوثر بزيادة الواو في (كثُر) ؛ لإلحاقه بجعفر ورُجيل مصغّر رجل لزيادة معنى التحقير فليست معدولةً عنها "[4].

وإذا كان مصطلحا (العدل ، العدول) مصطلحين مترادفين عند المعجميين ؛ لأنّ كليهما مصدر للفعل (عدل) كما مرّ بنا ، فإن أحد الباحثين المعاصرين يذهب إلى أنهما متغايران في الصناعة النحوية ومن أوجه التغاير بينهما :

١- أن العدل مخصص بمنع الصرف سواءٌ أكان في المعارف كعمرَ المعدول عن عامر، أم في النكرات كمثنى المعدول عن اثنين اثنين ، في حين أن العدول يشمل ذلك وغيره كتليين الهمزة المعدولة به عن تحقيقها وتقديم

---

[1] الأصول في النحو : ٢ / ٨٨.

[2] اللباب في علل البناء والإعراب : ١/ ٥٠٢.

[3] شرح قطر الندى : ٣١٠.

[4] حاشية الخضري على شرح ابن عقيل : ٩٩.

بعض حروف الكلمة من تأخّر كما في القلب المكاني والزيادة والحذف والاتصال والانفصال .

٢- أن العدل يختص بالمفردات مثل : عُمر الذي عدل به عن عامر وحذامِ التي عُدل بها عن حاذمة، وأما العدول فيكون في المفردات والكلام معاً كقوله تعالى : ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [١] حيث عدل عن الإنشاء إلى الخبر [٢].

وفي المساقِ الدلاليِّ نفسِه تتحرك مادة (عدل) عند علماء التفسير ، ففي تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾[٣]. يقول ابن كثير : " ومن هذه الآية الكريمة استدلّ جمهور العلماء في جواز نكاح الإماء على أنه لا بد من عدم الطول لنكاح الحرائر ومن خوف العنت لما في نكاحهنّ من مفسدة رقّ الأولاد ولما فيه من الدناءة في **العدول** عن الحرائر إليهن ."[٤]

ويقول أيضاً في تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾[٥]. " و**العدول** عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره من هجرانه "[٦].

ويقول القرطبي في مسألة تنصيب الإمام المفضول مع وجود الفاضل : " فإذا خيف بإقامة الأفضل الهرج والفساد وتعطيل الأمور التي لأجلها ينصب الإمام ، كان ذلك عذراً ظاهراً في **العدول** عن الفاضل إلى المفضول"[٧].

---

[١] البقرة : ٢٢٨ .
[٢] ينظر : العدول في اللغة العربية : ٨ ـــ١٠.
[٣] النساء : ٢٥.
[٤] تفسير القرآن العظيم : ٢ / ٢٦٧.
[٥] الفرقان : ٣٠.
[٦] تفسير القرآن العظيم : ٦ / ١٠٨.
[٧] الجامع لأحكام القرآن : ١ / ٢٧١.

ويقول الشوكاني : " فإنّ **العدول** عن دعاء القادر إلى دعاء غير القادر أقبح وأقبح "[١].

و للدَّلالةِ ذاتِها يوظِّف البلاغيُّون مادة (عدل) ، يقول عبد القاهر الجرجاني : " وغرضي بهذا أن أعلمك أن مَن **عدل** عن الطريقة في الخفيّ ، أفضى به الأمــر إلى أن يُنكر الجليّ " [٢] . ويقول أيضاً : " وإذا عُدِلَ باللفظ عمّا يوجبه أصل اللّغة ، وُصِفَ بأنّه مجاز " [٣]. ويقول السّكّاكي [] : " والمتــأخرون مــا وقعــوا فــي التطويلات وتدوينهم لما دوّنوا من الأسفار إلّا **لعدولهم** في العكس عن حفظ الجهة ، وأوّل حاملٍ حملهم – فيما أرى- على **العدول** عنه المتعارف العاميّ "[٤] .

ويقول ابن الأثير عن القرآن الكريم : " فمن أخذ به نجــا وســلم ، ومــن **عــدل** عنــــــــه هوى وندم "[٥] . ويُقدّم القزويني تعريفاً اصــطلاحياً للالتفــات فــي الضمائر فيقول هو : " التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبيــر عنه بآخر منها "[٦] ويتفق هذا التعريف مع المفهوم العام للعدول وهو ترك الشـــيء والتحول عنه إلى غيره .

وفي القرآن الكريم وردت مادة (عدل) بصيغ مختلفة لمعانٍ متعدِّدة [٧] :

* أولاً : بصيغة الماضي : وردت بمعنى : **جعلك مستوياً معتدلاً** . وذلك فــي قوله تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾[٨].

* ثانياً : بصيغة المضارع : وردت بهذه الصيغة لمعانٍ متعدِّدة منها :

---

[١] فتح القدير : ٢ / ٦٦٦.

[٢] أسرار البلاغة : ١ / ١٣٢.

[٣] السابق : ١ / ١٤٧.

[٤] مفتاح العلوم : ١/ ٢١١ .

[٥] المثل السائر : ١ / ٧٢.

[٦] الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع) : ٤٣ .

[٧] يُنظر : الاتجاه العدولي في القرآن الكريم : ٣٥٨ ، ٣٥٩.

[٨] الانفطار : ٧

- إقامة العدل ، كقوله تعالى : ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾[1] .

- الفداء ، كقوله تعالى : ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾[2] .

- المساواة بين اثنين ، كقوله تعالى : ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾[3] .

* ثالثا : بصيغة الأمر : وردت بمعنى إقامة العدل ، وذلك في قوله تعالى : ﴿اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[4] .

* رابعاً : بصيغة المصدر : وردت بهذه الصيغة لمعانٍ متعدّدة منها :

- الحق والإنصاف ، قال تعالى : (وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾[5]

- المقابل والمساوي ، كقوله تعالى : ﴿أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾[6]

- البدل والفدية ، كقوله تعالى : ﴿وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾[7]

ويلاحظ من العرض السابق أنّ القرآن الكريم لم يُوظّف مصطلح العدول بمعنى الانصراف عن الشيء وتركه إلى غيره .

* العدول من حيث هو ظاهرة أسلوبية :

يمتلك مصطلح العدول بوصفه تقنية أسلوبية فذةً حضوراً بارزاً في الدرس اللغوي العربي القديم ، فقد تنبّه الدارسون العرب القدماء إلى سمة بارزة من سمات الأسلوب العربي هي سمة المراوحة بين الأساليب والانتقال المفاجئ من أسلوب إلى آخر ومن صيغة إلى أخرى ، وقد أطلقوا على هذه الظاهرة مصطلحات عدة منها : المجاز والنقل والانتقال والتحريف والانحراف والرجوع

---

[1] الشورى : ١٥.

[2] الأنعام : ٧٠.

[3] الأنعام : ١.

[4] المائدة : ٨.

[5] البقرة : ٢٨٢.

[6] المائدة : ٩٥.

[7] البقرة : ٤٨.

والالتفات والعدول والصرف والانصراف والتلوّن ومخالفة مقتضى الظاهر وشجاعة العربية والحمل على المعنى والترك ونقض العادة وغير ذلك "[1] .

وهذه المصطلحات المترادفة تحيل – في محصلتها النهائية – إلى معنى الخروج عن الأصل وتركه إلى ما ليس بأصل كما مر بنا قريبا . وفي هذا الصدد يقول تمام حسان " الأسلوب العدوليّ خروج عن أصل أو مخالفة لقاعدة "[2].

والأسئلة التي تلح في هذا المقام هي :

- ما الأصل أو القاعدة التي يتم الخروج عنها ؟

- وما المرتكزات التي نتكئ عليها في الحكم بوجود ظاهرة عدولية في النص اللغوي ؟

- وكيف يتسنى لنا أن نزعم أن الأصل أن تتسق الأساليب والصيغ في بنية الخطاب وأن نعدّ التحول من أسلوب إلى آخر أو من صيغة إلى أخرى خروجاً عن الأصل ، أو إخراجاً للكلام على خلاف مقتضى الظاهر أو كسراً لأفق التوقع لدى المتلقي ؟

- وإذا كان الخروج عن مقتضى الظاهر يمثل المستوى الفني الإبداعي في التشكيل اللغوي ، فهل يقتضي ذلك أن مطابقة الكلام لمقتضى الظاهر تجعله يفتقر إلى اللمسة الفنية الإبداعية ؟ .

تباينت آراء الدارسين في تحديد ماهية القاعدة أو الأصل الذي يتم العدول عنه ، هل هي القاعدة المعيارية المتواضع عليها ، أو أنها القاعدة السياقية التي يفرضها السياق اللغوي ويستأثر بتشكيلها ؟

فيرى بعض الدارسين " أن السياق هو الأصل الموثوق به في عملية العدول ، فهو وحده الأصل الذي يمكن مشاهدته والإمساك به ووضعه موضع المقابلة بينه وبين أي وحدة من وحداته .. ومن ثمَّ يصبح السياق هو مظهرَ العدول الحقيقي

---

١ الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم : ١٤١.

٢ البيان في روائع القرآن : ٧٧/٢.

عن أي قاعدة من القواعد ، ومن ثمّ يكون جديراً بأن يكون هو القاعدة السائدة في قياس العدول " [1].

إن اعتماد القاعدة السياقية في مقاربة الظاهرة العدولية في أي نصٍّ يضفي على هذه المقاربة سمة العلمية والموضوعية ، ممّا يجعل الأحكام الصادرة أكثر دِقّةً وجنوحاً إلى الصحة ؛ ذلك لأن القاعدة المعدول عنها حاضرةٌ مشاهدة والنمط العدولي المتجاوِز حاضر أيضاً ، فلا يتبقّى أمام الدارس – والحال هذه – إلا أن يُعمِل ذهنه ويشحذ طاقاته في البحث عن القيم الدلالية والإيحائية لهذا العدول . ويختلف الوضع بالنسبة للقاعدة المعيارية ، فإن التعويل عليها يجعل بعض الأحكام من قبيل الرجم بالغيب والحدس الظّنّي الذي لا يستند إلى أي قاعدة لغوية . وحتى تتضح هذه الفكرة نمثل بالمثالين الآتيين :

١- يقول تعالى في سورة البقرة مخاطباً اليهود : ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ [2] . ذهب كثير من المفسرين إلى أنّ في الآية عدولاً عن الماضي إلى المضارع ، والأصل : ففريقاً كذبتم وفريقاً قتلتم . إنّ صيغة الماضي (كذبتم) تمثل القاعدة السياقية التي تم العدول عنها فإنّ إيثار صيغة الماضي هذه ابتداءً فيه إشعار ضمني بتوجه السياق إلى بناء نسق متتابع من الأفعال الماضية ، ويأتي قانونا الجوار والعطف ليعززا هذه الفكرة لدى المتلقي ففي ضوء هذين القانونين يصبح تجانس المتجاورين والمتعاطفين أمراً مألوفاً ومتوارداً في الأسلوب العربي ، فيكون الحكم بوجود ظاهرة عدولية في الآية أمراً مقبولاً ومستنداً إلى قوانين لغوية معتبرة .

٢- لكنّ الأمر يختلف تماماً في مثل قوله تعالى على لسان بني إسرائيل مخاطبين موسى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [3]. إنّ القول بوجود ظاهرة عدول عن (مجاهرةً) إلى

١ الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم : ١٤٨، ١٤٩.

٢ البقرة : ٨٧.

٣ البقرة : ٥٥.

(جهرةً) فيه من التعسف والاعتباط ما لا يخفى ، ولعل السبب في ذلـــك غيـــاب القاعدة أو الأصل المعدول عنه عن السياق اللغوي ، فضلاً عن افتقار هذا الزعم إلى المبررات الأسلوبية والقوانين اللغوية الدَّاعمة.

والحقّ أنّ التّعويل على القاعدة المعيارية في بعض الظواهر العدوليّة قـــد يكون مقبولاً ومستساغاً ، ففي قوله تعالى : ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[1] يُصبح القول بالعدول عن صيغة المستقبل (سيأتي) إلى صيغة الماضي (أتى) منطقيـــاً ومعقولاً . والمنطقية والمعقولية لا تتأتَّيان إلا من خلال إدراكنا ومعرفتنا المسبقين بأن الحديث في الآية عن يوم القيامة ، ويوم القيامة – بداهة – يقـــع فـــي حيّـــز المستقبل ، ولولا هذه المعرفة المسبقة – التي تُعدُّ مرجعيةً خارجةً عـــن الســـياق اللغوي – لما سلَّمنا بصحة دعوى وجود ظاهرة عدولية في الآية . وحتـــى مـــع وجود قرينة لغوية داعمة لهذه الدعوى وهي قوله تعـــالى : (فـــلا تســـتعجلوه)، والاستعجال لا يكون إلا لما سيأتي ، فإن اشتراط وجود القاعدة السياقية المعـــدول عنها في السياق يظلّ ضرورة ملحة ؛ ذلك لأن هذا الوجود يُغنـــي عـــن وجـــود القرائن الخارجية (السياق التاريخي وسياق المقام) والقرائن الداخلية الداعمـــة (القرائن اللغوية). ويصبح توافر هذه القرائن وحضورها من المعـــززات الداعمـــة لدعوى وجود ظاهرة عدولية وليس شرطاً لصحة هذه الدعوى وليس الأمر كذلك بالنسبة للقاعدة المعيارية ؛ لأن السياقات الخارجية والقرائن اللغوية الداخلية تظـــل شروطاً أساسية لصحة الحكم بوجود ظاهرة عدول عن هذه القاعدة ، فضلاً عن أن صحة هذا الحكم لا تطّرد في كل النماذج العدولية المزعومة ؛ ذلك لأن القاعـــدة المعيارية المعدول عنها تظل افتراضية متخيلة عاريةً من المعـــززات الأســـلوبية الداعمة في كثير من هذه النماذج ،ولعل في الشاهد السابق الذي أوردناه (مجاهرةً _ جهرةً) ما يؤكد هذه الحقيقة .

إنَّ الخلاف حول ماهية القاعدة المعدول عنها في بنية العدول ، خلافٌ قـــديمٌ تمتدّ جذوره إلى أعماق التراث البلاغي العربي ، فقديماً اشترط جمهور البلاغيين

[1] النحل : ١.

في مبحث (الالتفات) حضور الضمير الملتفت عنه في صورة الالتفات ، في حين وسّع السكاكي الدائرة فلم يشترط وجود الضمير الملتفت عنه ،بل يكفي – في رأيه – أن يستعمل ضمير واحد على خلاف مقتضى الظاهر [1].

إنّ رأي الجمهور يُعوّل على القاعدة السياقية الداخلية / بنية المعدول عنه الحاضرة ، في حين يعوّل السكاكي على القاعدة المعيارية الخارجية / بنية المعدول عنه الغائبة عن السياق .

ويميل أحد الدارسين المحدثين إلى رأي الجمهور في هذه القضية فيقول :" والحق أن الرأي الذي تبناه جمهور البلاغيين في هذا الصدد هو – فيما نرى – أقرب إلى الصواب ؛ ذلك أنه ليس ثمة تحوّل أو نقل في إيراد نوع من أنواع الضمائر في مقام يقتضي سواه ، أو لنقل – بعبارة أخرى – إنّ النقل الذي نلحظه في مثل هذ الإيراد إنما هو نقل تقديري عما تقتضيه مواضعات اللغة ، وليس نقلاً أسلوبياً متجسداً بطرفين في نسيج الكلام " [2].

وفي الدرس اللغوي الحديث نجد أصداء لهذا الخلاف في مقولتين أو نظريتين أسلوبيتين هما نظرية الاختيار عند جاكبسون ، ونظرية السياق عند ريفاتير.

تُبنى نظرية الاختيار على أساس مسلَّمة لغوية مفادها أن التطابق الدلالي التام بين المفردات أمر غير وارد ، فمهما بلغت درجة التقارب الدلالي بين المفردات ، فلا بد من وجود فروق دلالية دقيقة فيما بينها إن لم يكن على المستوى الإفرادي فعلى المستوى التركيبي في أقل الأحوال . وقد تنبّه عبد القاهر الجرجاني لهذه القضية منذ القديم ، حيث أشار إلى " أن الأساس الذي تتم عملية الاختيار بناءً عليه هو مراعاة الفروق بين المعاني الوظيفية لتلك الصيغ التي تشترك فيما بينها في الدلالة على معنىً ما " [3] .

---

١ ينظر : تحولات البنية : ٢٩٨.

٢ أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية : ٢٦.

٣ الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم : ٧٨.

وفي ضوء نظرية الاختيار يصبح توظيف صيغة ما في السياق اللغوي قائماً على إيثار هذه الصيغة من بين مجموعة من البدائل المحتملة الغائبة عن السياق اللغوي التي يمكن أن تحل محل الصيغة المختارة في أداء المعنى العام وإن كانت من جانب آخر لا تؤدي المعنى الدلالي الدقيق الذي تؤديه الصيغة المختارة والذي لأجله تم اختيارها واصطفاؤها من بين تلك البدائل المحتملة . وفي ضوء نظرية العدول ندرك أن الصيغ البدائل - على وفق نظرية الاختيار - تمثّل القاعدة المعيارية أو الأصل المعدول عنه ؛ ولأن هذه البدائل متعددة ومتنوعة فإن تعدُّدها يقتضي تعدد القواعد المعيارية المعدول عنها. فلا يمكن والحال هذه أن نحدد القاعدة المعيارية الصحيحة التي تم العدول عنها .

ومن هذه الزاوية ندرك القيمة الأسلوبية لحضور القاعدة / المعدول عنه في السياق اللغوي . إن هذا الحضور يوفر على الدارس - وهو يقارب بنية العدول في النص اللغوي - مشقة حدس القاعدة الغائبة ، ويجنّبه مغبّة الوقوع في الأخطاء التقديرية لهذه القاعدة .

لذلك فقد وجدنا دارساً أسلوبياً حديثاً هو ريفاتير يرفض " مقولة القاعدة الخارجة عن النص ؛ لعدم قابليتها للتحديد من جانب ؛ ولعدم أهميتها في إبراز الأسلوب بدقة من جانب آخر " [1]. وإذا كان ذلك كذلك فإن البديل الأمثل – في نظر ريفاتير - هو السياق " فالسياق هو الذي يمثل خلفية محددةً دائمةً وهو الذي يقوم بدور القاعدة . وافتراض أن الأسلوب يتخلق بالانحراف الداخلي عن السياق الدائم افتراضٌ خصب ... فالسياق الأسلوبي ... هو: نموذج لغوي ينكسر بعنصر غير متوقع " [2]. وفي ضوء نظرية السياق عند ريفاتير فإن النصّ " نفسه يحمل في طياته النمط والتجوز في نفس الوقت " [3].

---

١ علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته : ٢٣٦.

٢ المصدر السابق : ٢٢٤، ٢٢٥ .

٣ القراءة الأسلوبية بين الإنشائية والهيكلية : ٣٦٩.

وإذا كان جمهور البلاغيين العرب القدماء يشترطون حضور الضمير الملتفت عنه في بنية الالتفات ، فإنّ " نظرية العدول السياقي عند ريفاتير هي أقرب شيء إلى ظاهرة الالتفات في البلاغة العربية ؛ ولذا تعدّ من نقاط الالتقاء بين الأسلوبية الحديثة وبين البلاغة العربية في تناولها لظاهرة العدول ، وخاصةً في مبحث الالتفات " [1] .

إن العدول الذي يدخل في حيزهذه الدراسة هو العدول الداخلي / الأسلوبي الذي يتميز بكون طرفي الظاهرة العدولية (المعدول عنه والمعدول إليه) حاضرين في السياق والذي يتشكل :" عندما تنفصل وحدة لغوية ذات انتشار محدود عن القاعدة المسيطرة على النص في جملته " [2] .

ومن وجهة نظرأسلوبية فإن هذه الدراسة تحاول مقاربة ظاهرة العدول في الصيغ على شرط جمهور البلاغيين العرب القدماء ، وتحت مظلَّة نظرية السياق عند ريفاتير ، متجاوزةً مبدأ (الاختيار) عند جاكبسون الذي يُفهم - في ضوء نظرية العدول - على أنه حالة غياب المعدول عنه عن النصّ اللغويِّ بوصفه عنصراً احتماليّاً حاضراً في الذهن يمكن أن يحلّ محلّ المعدول إليه ، وإن كان لا يطابقه تماماً في القيمة الدلالية والوظيفة التعبيرية .

إن طبيعة النص المدروس هي التي فرضت على هذه الدراسة تناول ظاهرة العدول في الصيغ في إطار مفهومه في التراث البلاغي القديم ونظرية السياق الحديثة . فالقرآن الكريم نص مقدس يفرض على الدارس – إذا أراد أن يحلِّق في فضاءاته – أن يشد حزام الأمان وأن يعيش حالةً من التحفز واليقظة . ومن وسائل الأمان في مقاربة النص القرآني أن يتجنب الدارس الخوض في مسائل الاحتمالات فضلاً عن الجزم فيها برأي ؛ لأن ذلك قد يقود الدارس إلى التنبؤ والحدس والرجم بالغيب والقول على الله بما لم يقل ، خاصةً حين يكون الحكم عارياً من القرائن والمسوغات الأسلوبية الداعمة .

---

١ الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم : ١٦٢.

٢ السابق : ١٦٢.

إن مبدأ الاختيار – وإن كان أحد المرتكــزات الأساســية فــي الدراســات الأسلوبية الحديثة للعمل الإبداعي – فإنّه ينبني على قانون الاحتمــالات وحــدس البدائل الممكنة وهو قانون يصعب إسقاطه على النص القرآني دون الوقوع فــي كثير من المزالق العقدية أو التقديرات اللغوية الخاطئة كحد أدنى مــن الســلبيات والمخاطر .

إنّ القاعدة التي يتم العدول عنها – على وفق المنهج التي ارتضته هــذه الدراسة – هي القاعدة التي تتشكل نتيجة توافق الوحدات اللغوية السائدة فــي النص على نمط مغاير للوحدة اللغوية المنحرفة . وبعبارة أخرى فــإن القاعــدة المعدول عنها هي بنية المعدول عنه ذاتها التي يتحتم أن تكــون حاضــرةً فــي السياق . وفي ضوء ذلك نفهم تعريف (ريفاتير) للسياق بأنه : " نمــوذجٌ لغــوي ينكسر بعنصر غير متوقع"[1] . حيث تشير عبارة ريفاتير (نمــوذج لغــوي) إلــى القاعدة اللغوية التي يتم كسرها (المعدول عنه) ، كما يشير قوله : (بعنصر غيــر متوقّع) إلى العنصر المنحرف الذي يكسر هذه القاعدة (المعدول إليه) .

إن القيمة الحقيقية لنظرية السياق عند ريفاتير تكمن في" أن العناصر التــي يتعين علينا رصدها ماثلة في النص ذاته ولا تتوقف على أحكام مســبقة ، فهــذه النظرية –إذن- تؤدي إلى وصف مقنع للنص الأدبي مــن وجهــة نظــر لغويــة ورصد واضح للظواهر اللافتة فيه "[2] .

وفي إلماعةٍ موجزةٍ إلى دور السياق في شحن الكلمات بطاقات تعبيرية فريدة وإمكانات دلالية فذة أو الضنّ عليها بها يقول عبد القاهر الجرجاني : " إنك تــرى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليــك وتوحشــك فــي موضع آخر "[3] .

---

١ علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته : ٢٢٥

٢ السابق: ٢٣٦.

٣ دلائل الإعجاز : ٣٨.

وإذا كان السياق اللغوي هو القاعدة المثلى التي ينبغي أن نعوّل عليها في دراسة ظاهرة العدول ، فإننا ندرك بداهةً أنّ " الانحراف هو ابتعاد عن السياق أو محاولةٌ لإنشاء سياق جديد في قلب السياق القديم " [1].

وهذا يعني إمكانية تعدد السياقات اللغوية في النص الإبداعي بتعدد الانحرافات بحيث يغدو كل سياق جديد انحرافاً عن السياق السابق له مباشرة وهو في الوقت ذاته قاعدة جديدة ينحرف عنها السياق التالي .

* السياق الداخلي والسياق الخارجي :

من الضرورة بمكان – ونحن نتناول نظرية السياق – أن نميز بين نوعين من السياقات : السياق الداخلي / اللغوي ، والسياق الخارجي .

فالسياق الداخلي : هو الذي يتشكل داخل النص اللغوي باعتباره بنية لغوية مغلقة مقطوعة الصلة بكل المؤثرات الخارجية التي تنضوي تحت مفهوم السياق الخارجي . وإذا كان السياق الخارجي يشير إلى مجموعة الظروف والملابسات المحيطة بالنص اللغوي في لحظة ولادته التي تعد بمثابة إضاءات كاشفة عن الدلالات الغامضة والخفية للمفردات أو الظواهر اللغوية في بنية النص اللغوي التي يستحيل أو يصعب على المتلقي إدراكها بمعزل عن هذه الظروف ، فإن السياق اللغوي الداخلي يشير إلى جملة الظروف اللغوية الحافة بالمفردة داخل النص التي تمنحها دلالة خاصة من بين الدلالات المتعددة التي تنفتح عليها خارج النص يقول فندريس : " والسياق هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعاني المتنوعة التي في وسعها أن تدلّ عليها "[2].

فالسياق الداخلي والسياق الخارجي – إذن – " كلاهما يحكم الاستعمال ويضبط حركة الكلمات ؛ حيث يبين السياق الأول أن الكلمة لا يتحدد معناها إلا بعلاقتها مع الكلمة الأخرى في السلسلة الكلامية ويبرز الثاني أوجه التغير الذي

---

١ الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي : ٢٠٣.

٢ اللغة لفندريس : ٢٣١.

يصيب المدلولات باختلاف المواقف التي تستخدم فيها الكلمات ، أي : أنه يُعنى بتحديد الظروف والملابسات التي تحيط بالمستوى الأول "[١].

وإذا كان من الصعب تحديد السياق الداخلي بطريقة وصفية – إذ لكل نصٍّ لغويّ سياقه الخاص به – فإن السياق الخارجيّ ممكن التحديد إذ هو السياق الذي " يتضمن الواقع الفعلي والمحيط الزمني والمحيط المكاني وأحوال المتلقين ، ويدخل فيه المبدع من باب وجوب مطابقة إبداعه اللغوي لمقتضيات هذه الظروف الخارجية" [٢].

وفي حقل الدراسات القرآنية يصبح (سبب النزول) ركيزةً مهمَّةً من ركائز السياق الخارجي المعينة على فهم النص القرآني فهماً سليماً وتفسير ظواهره تفسيراً صحيحاً. وها هنا يعرض سؤال مهم : أيهما يغدو أكثر أهمية – في ضوء الدراسات الأسلوبية- : السياق الداخلي / اللغوي ، أم السياق الخارجي ؟.

وفي الإجابة عن هذا السؤال يرى بعض الباحثين أنّ " السياق الداخلي (اللغوي) بكل ما يكوّنه على المستويين الرأسي والأفقي ، أكثر أهمية من السياق الخارجي (الموقف) ، وهو أكثر اقتراباً من طبيعة الدراسات الأسلوبية ذات الطابع العلمي الموضوعي " [٣].

والذي يراه الباحث أن هذا الحكم - وإن صح في الدراسات الأسلوبية العامة - فإنه لا يصح على إطلاقه في الدراسات الأسلوبية القرآنية إلا حين لا يكون للنص المدروس سبب نزول ؛ ذلك لأن النص القرآني يعد استثناءً بين النصوص اللغوية الإبداعية . فمن خلاله – بالذات – لا نستطيع أن نحكم بأنّ السياق اللغويّ الداخلي يغدو أكثر أهمية من السياق الخارجي ؛ لأن كثيراً من النصوص القرآنية لا يمكن أن يُفهم – بحال – بمعزلٍ عن سياقاته التاريخية والاجتماعية ، فيصبح

---

١ تحولات البنية في البلاغة العربية : ٤٧.

٢ نفسه : ٥٠.

٣ نفسه : ١٩٧.

من التهور والمجازفة – إذن- أن نضحي بالفهم الصحيح للنص القرآني تحت تأثير الانبهار بمقولة السياق اللغوي وأنه أكثر أهميةً من السياق الخارجيّ .

وفي ضوء نظرية السياق يمكننا أن نفترض وجود نمطين من أنماط العدول هما : العدول السياقي / الداخلي ، والعدول الخارجي . فالعدول السياقي : هو الذي تكون فيه الصورة العدولية متكاملة الأبعاد في النص اللغوي من خلال الحضور اللفظي لقطبي الظاهرة العدولية (المعدول عنه والمعدول إليه) بحيث تتحدد ماهية المعدول عنه بشكل جازم غير قابل للحدس والتأويل ، وفي ظلال هذا النمط العدولي سارت هذه الدراسة وشقت طريقها .

أما العدول الخارجي فيتميز بغياب أحد قطبي الظاهرة العدولية (المعدول عنه) بحيث يصبح باب التأويل مفتوحاً لحدس ماهية هذا الغائب المجهول .

إن مصطلح العدول الخارجي يطابق مفهوم الاختيار عند جاكبسون . وقد سبقت الإشارة إلى أن هذه الدراسة نأت عن مفهوم الاختيار في مقاربة الظاهرة العدولية ؛ لأن القاعدة المعدول عنها – في ضوء مفهوم الاختيار - غير محددة الماهية على وجه العموم.

البنية السطحية والبنية العميقة :

يكثر الحديث – في الدراسات الأسلوبية لظاهرة العدول / الانزياح – عن مصطلحي البنية السطحية والبنية العميقة ، فما مفهوم هذين المصطلحين ؟

إن البنية السطحية هي : التمظهر الخارجيّ للنص اللغوي أو هي الشكل النهائي الذي استقرت عليه الجملة اللغوية في بنية النص اللغوي بعد تعرُّضِ بنيتها الأصلية المفترضة (بنية العمق) لجملة تحويرات أو إقصاءات أو إضافات أحدثت تغييرات جذرية في هذه البنية حتى أخذت شكلاً آخر استوعبته البنية السطحية. فالبنية السطحية – إذن – هي : " بنية الجملة كما هي منجزةٌ فعلاً ، هي – إذن- البنية المرئية "[١].

---

١ الثنائيات اللسانية : ١١.

أما البنية العميقة فهي الأصل الافتراضي المتخيل للبنية السطحية . أو هي الصورة الأولية للجملة اللغوية قبل تعرضها للتغييرات التي أثرت في بنيتها الأساسية . إنها بنية غير مشاهدة وغير طافية على سطح النص اللغوي ، لكن جملة من القواعد اللغوية والقوانين المعيارية هي التي تساعد على تحديدها ذهنياً . وسنعرض لبيان هذه القوانين في موضع لاحق من هذه الدراسة .

"وتتميّز طبقة البنى المدعوة بالعميقة بالخصائص الآتية :

١) أنها البنى المولدة في قاعدة النحو (عن طريق القواعد المركبة والقواعد المعجمية).

٢) أنها المجال الوحيد للملء المعجمي .

٣) أنها البنى التي تؤول دلالياً .

٤) أنها البنى التي يمكن أن تحول بواسطة تحويلات إلى بنى سطحية سليمة البناء"[١] .

إنّ البنية العميقة – في ضوء ظاهرة العدول في صيغ المشتقات – هي البنية التي تحقق التجانس التام بين قطبي الظاهرة العدولية (المعدول عنه والمعدول إليه) وفق القواعد اللغوية المعتبرة ، وهي القالب اللغوي الذي يستوعب الوظيفة الإخبارية للكلام بكفاءة عالية ؛ ذلك لأنّ اطّراد الكلام على نسق واحد وبناءه على وتيرة واحدة يتيح للمتلقي التركيز على الوظيفة الإخبارية للكلام ويجنبه التشتت الذي تحدثه الانحرافات التركيبية والمنعرجات الأسلوبية في سبيل البحث عن دلالات وإيحاءات هذه الاستعمالات المغايرة للمألوف .

ولا يعني ذلك أن اطّراد وتكرار الصيغة الاشتقاقية في السياق اللغوي الواحد يخلو من أي قيم جمالية إضافية غير القيمة الإخبارية ، فإن بناء الكلام على هذه الصورة يعد- بحد ذاته في بعض السياقات – مؤشراً أسلوبياً إلى قيمة جمالية دلالية معينة ، فضلاً عما يوفره هذا الاتساق من تناغم إيقاعي محبب . وفي الوقت

١ اللسانيات واللغة العربية نماذج تركيبية ودلالية : ٦٨.

ذاته ليس كل كسر لاتساق الكلام وتناسقه يُعدُّ حافلاً بأغراض جمالية خاصةً حين يكون هذا الكسرُ صورةً من صور اللحن مفتقراً إلى القصدية الإبداعية .

ويشير (تشومسكي) إلى أنه ليست كل بنية سطحية تكتنز خصائص فنية جمالية فيقول : "التركيب السطحيّ أحياناً – يكون خلاصة يزوّدنا بالصفات التي لا تظهر في الشكل الفيزيقي وإنه بواسطة تأثير صفات كهذه ، فإن اللغة تستحق الدراسة ".[1]

وفي هذا الصدد يؤكد جاكبسون " أنّ الاطّراد والتناظر يشكلان حاجة من الحاجات الأولية للذهن الإنساني ، كما أنّ المنحنيات المشوّهة بلطف التي تبرز على أرضية هذا الاطراد واللامتوقع والفجاءة والذهول تشكل بدورها جزءاً جوهرياً من المفعول الفني ، أو بعبارة أخرى التأمل الضروري لكل جمال"[2].

والبنية العميقة ليست مهمةً في ذاتها بقدر ما هي مهمةٌ لغيرها " ونحن لا تعنينا البنية العميقة ، إلا من حيث كونها إمكانيةً لتفسير البنية السطحية ، وهذا هو مناط عنايتنا في الدراسات الأسلوبية " [3].

فالبنية العميقة – إذن- تكتسب أهميتها من خلال الدور الذي تؤديه في تفسير بنية السطح وتقديم إضاءات كاشفة عن المراحل التحويلية التي مرت بها بنية الخطاب العميقة حتى أخذت شكلها النهائي في صورة بنية السطح . هذه الوظيفة الاستثنائية لبنية العمق " هي جوهر ما يقوم به الأديب والشاعر خاصة لتحويل كلامه إلى عمل فني متميّز . وتجعل للغته سمةً خاصةً " [4].

إنّ وظيفة الدارس – وهو يقارب الظاهرة العدولية- هي حدس البنية العميقة للتركيب العدولي بغرض إعادة تشكيل التوافق الصيغي بين المعدول عنه والمعدول إليه . وهو ليس حدساً اعتباطياً عشوائياً ، ولكنه حدس علمي موضوعي يستند إلى

---

١ اللغة والمسئولية : ٣٠٠.

٢ قضايا الشعرية : ٨٣.

٣ الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي : ١١٧.

٤ نفسه : ١١٦.

قوانين لغوية معتبرة ويتكئ على معطيات نصية وقرائن سياقية (لفظية أو معنوية) تقربه من درجة اليقينية.

إن الوصف الافتراضي الحدسي للمراحل التحويلية التي اجتازتها البنية العميقة قبل أن تأخذ شكلها النهائي في صورة البنية السطحية ، يستند إلى قواعد تحويلية واضحة هي أشبه ما تكون بالقواعد الرياضية المنطقية ، ومع ذلك يظل هذا الوصف افتراضياً حدسياً ؛ لأنه وصف لغائب ، وشتان بين وصف الغائب ووصف الحاضر.

ولعلّ من أهم ما يميز القواعد التحويلية أنها " لا تنظر إلى الجملة على أنها مكونة من عناصر متجاورة فحسب ، كما تفعل نظرية المكونات المباشرة ، إنّ القواعد التحويلية تنظر إلى الجملة على أنها مشتقة من تراكيب أُخر عبر عملية تحويل خاصة . ولا ريب في أن هذه النظرة أقرب إلى حقيقة وطبيعة اللغة من سواها " [١].

ومن منطلق هذه الخصيصة تصبح " إحدى الوظائف الرئيسية للقوانين التحويلية هي تحويل التركيب الباطني المجرد / بنية العمق الذي يحتوي على معنى الجملة إلى التركيب الظاهري المحسوس / بنية السطح الذي يجسد مبنى الجملة وشكلها شبه النهائي " [٢].

ومن الأمور المهمة التي يتوجب على الدارس أن يتنبه لها أن مصطلحي البنية السطحية والبنية العميقة ليسا توصيفا دلاليا لهاتين البنيتين فليس المقصود بالعمق العمق الدلالي وليس المقصود بالسطحية الخواء الدلالي .

إن البنية السطحية هي التشكيل اللغوي المرئي والطافي على مستوى السطح الخارجي للنص اللغوي وفي الوقت ذاته فإن البنية العميقة هي البنية الخفية الغائبة عن المشاهدة الحسية فليس لها وجود أو تشكل مرئي على السطح الخارجي للنص اللغوي بل هي بنية تصورية متخيلة . ومن هنا ندرك أن مصطلحي البنية

---

١ قواعد تحويلية للغة العربية : ٢٤.

٢ المصدر السابق : ص ٣٨.

السطيحة والبنية العميقة هما توصيف شكلي لحضور البنية (ظهورها) أو غيابها (خفائها) عن السطح الخارجي للنص اللغوي .

والحقيقة أن (تشومسكي) لم يكن غافلاً عن هذه الملاحظة ، فقد أشار إلى أن المقصود بـــ (العمق) في مصطلح (البنية العمقية) الغموض فقط فقال : " تبـــدو الدلالة عميقة جزئياً بسبب أنها ما تزال غامضة ؛ إنها لا تعني بالضـــرورة أنهـــا بالفعل موضوع عميق بينما هي أتفه من ذلك ، وبينما لا يوجد شيء مثيـــر لكـــي يفهم فهماً جيداً ، فنحن لم نتعرف ذلك أبداً ... لكي تستحق العبارة (عميق) هـــذا المفهوم ، ينبغي أن تزود بإجابات لأسئلة معينة تحصل على مستوىً معين للعمـــق العقلي ، ولكن كل هذا لا يمثل شيئاً يفعـــل مـــع التصـــور التكنيكـــي (التركيـــب العميق)"[1] .

* شروط العدول :

كغيرها من الظواهر اللغوية الأسلوبية وُضعت ظاهرة العدول تحت مقاييس الضبط والتقنين منذ تنبه الدارسون إلى وجودها في بنية الخطاب القرآني والشعري على حدّ سواء . ومن الشروط الضابطة التي وضعها جمهور البلاغيين لظـــاهرة العدول ما يأتي :

١ - أن يكون المعدول عنه حاضراً إلى جوار المعدول إليـــه فـــي الســـياق اللغوي فيكون المعدول إليه قد خرج على خلاف مقتضى الظاهر ، وهو مطابقـــة التعبير الثاني للتعبير الأول ، ويفهم هذا الشرط من تعريفهم للالتفات / العدول بأنه : " التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة[2] بعد التعبير عنه بآخر منها " [3].

وعلى ذلك فليس من العدول في شيء قول المتنبي :

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُمْ   وِجْدَانُنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمُ[4]

---

١ اللغة والمسئولية : ٢٩٦.

٢ المقصود بالطرق الثلاثة التكلم والخطاب والغيبة في باب الضمائر .

٣ الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع) : ٤٣ .

٤ ديوان أبي الطيب بشرح العكبري : ٣٧٠.

لأن حق العائد إلى الموصول أن يكون بلفظ الغيبة ، وحق الكلام بعد تمـــام المنادى أن يكون بطريق الخطاب ، فكل من (نفارقهم ، وبعدكم) جارٍ على مقتضى الظاهر "[1].

ويخالف السكاكيُّ جمهور البلاغيـــين فـــي اشـــتراطهم حضـــور الملتفـــت عنه/المعدول عنه في بنية العدول ، ويتوسع في هذا الضابط ، فالالتفات عنده " هو إتيان الكلام على أسلوب مخالف لأسلوب سابقٍ مطلقاً ، أو لم يسبقه غيره والمعنى يقتضي خلافه "[2].

فيدخل في الالتفات عند السكاكي التعبير بضمير من الضمائر الثلاثة ابتـــداءً وغيره من الضمائر أحق بالتعبير منه ، ومن شواهده على هذه الصورة العدوليـــة قول الشاعر ربيعة بن مقروم :

بَانَتْ سُعَادُ فَأَمْسَى القَلْبُ مَعْمُودَا وَأَخْلَفَتْكَ ابْنَةُ الْحُرِّ المَوَاعِيْدَا [3]

يقول السكاكي : " فالتفت كما ترى حيث لم يقل : وأخلفتني " [4].

ولئن كان السكاكي خالف جمهور البلاغيين في هذا الشرط ، لقد وافقهم فـــي قضية حصر العدول / الالتفات في الضمائر فحسب ، كما سنرى عند الحـــديث عن صور العدول . وتجدر الإشارة إلى أن هذا الشرط هو الأساس الذي اعتمدته هذه الدراسة في منهجها لدراسة ظاهرة العدول في المشتقات في القرآن الكريم .

٢ - أن يكون مرجع الضمير في المعدول عنه والمعدول إليه واحداً[5] :

فـــ" لكي تتحقق بنية الالتفات بما فيها من مخالفة سطحية وتوافق عميق ، لا بد من وحدة السياق بين الملتفت عنه والمتلفت إليه ؛ لأن تعـــدد الســـياق يزيـــل

---

١ المطوّل : ١٣١.

٢ عروس الأفراح : ١/ ٤٦٦.

٣ المفضليات : ٢/ ٥٤٣. و ورد الشاهد ـــ أيضا ـــ في الأغاني برواية أخرى هي : بان الخليط فأمسى القلب معمودا ... إلخ . يُنظر : الأغاني : : مج ١١ ، ج٢٢ / ٣٣٧ .

٤ مفتاح العلوم : ٩٥.

٥ عروس الأفراح : ١/ ٤٧٢.

المخالفة السطحية ، ومن ثمَّ تفقد البنية مكوِّناتها " [1]. فخرج بهذا الشرط نحو : أكرِمْ زيداً وأحسِنْ إليه " فضمير أنت هو فاعل أكرم ، غير الضمير في إليه ، وليس التفاتاً "[2].

٣ - أن يقع العدول في جملتين لا في جملة واحدة [3]:

وهذا الشرط لا يطَّرد لا في الضمائر التي قصر جمهور البلاغيين وقوع الالتفات عليها ولا في غيرها من صور العدول وأقسامه (كالعدول في الأفعال ، والأسماء ، والعدد ... إلخ) . يقول التفتازاني عن هذا الشرط : " إنه غلط ؛ لأن قوله تعالى: ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [4] فيمن قرأ بياء الغيبة ، فيه التفاتان من التكلم إلى الغيبة ، ثم من الغيبة إلى التكلم مع أن قوله (من آياتنا) ليس بكلام آخر ، بل هو من متعلقات (ليريه) " [5].

ويؤكد أسامة البحيري نفي اطّراد هذا الشرط ، فيرى أنه ليس " شرطاً أن يقع الالتفات في أكثر من جملة ، بل قد يقع في جملة واحدة طالما حصل الانتقال من صيغة إلى أخرى في نطاق الجملة " [6].

ومن خلال استقراء الباحث لنماذج العدول في صيغ المشتقات في القرآن الكريم تبيَّن له عدم صحة اطراد هذا الشرط ، وستكشف المقاربة التحليلية لهذه النماذج عن صحة هذه النتيجة لاحقاً .

٤ - أن تكون بنية العدول من كلام متكلم واحد يراوح في كلامه بين تعابير شتى . فأما أن يتعدد المتكلمون فلا يعد ذلك التفاتاً إذ يكون كل تعبير خاصاً بمتكلمه ، بل إن تغاير التعابير – حينئذٍ - يتسق مع تغاير المتكلمين فيكون الكلام حينئذٍ قد خرج على مقتضى الظاهر . أي إنّ " تعدد المتكلمين يؤدي إلى تواتر

---

١ البلاغة العربية (قراءة أخرى) : ٣٩٦.

٢ عروس الأفراح : ١/ ٤٧٢.

٣ عروس الأفراح : ١/٤٧٠، الإتقان : ٣/ ٢٥٧.

٤ الإسراء : ١

٥ المطول : ١٣١.

٦ تحولات البنية في البلاغة العربية : ٣٠٣.

الصياغة السطحية وفقدانها لمبدأ المخالفة لمقتضى الظاهر ، مما يؤدي إلى فقدان بنية الالتفات إلى جوهر تشكيلها " [1].

ومما يستشهد به في هذا السياق قوله تعالى : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾[2]. فقد جعل الزمخشري الآية شاهداً على العدول عن ضمير الغيبة إلى ضمير التكلم[3].

ويعلّق ابن المنَيِّر على الآية بقوله : " الالتفات إنما يكون في كلام المتكلم الواحد يصرِّف كلامه على وجوه شتى ، وما نحن فيه ليس من ذلك ، فإن الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام قوله لفرعون : ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[4]. ثم قوله : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا﴾[5] إما أن يجعل من قول موسى عليه السلام ، فيكون من باب قول خواصِّ المَلِكِ : أمرنا وعمرنا ، وإنما يريدون المَلِكَ وليس هذا بالتفات . وإما أن يكون كلام موسى قد انتهى عند قوله : (ولا ينسى) ثم ابتدأ الله تعالى في وصف ذاته بصفات إنعامه على خلقه ، فليس التفاتاً أيضاً وإنما هو انتقال من حكاية إلى إنشاء خطاب وعلى هذا التأويل ينبغي للقارئ أن يقف وقيفة عند قوله : (ولا ينسى) ؛ ليستقرَّ بانتهاء الحكاية "[6]. ويسلِّم الباحث بصحة هذا الشرط وبضرورة تحققه في بنية العدول .

* أقسام العدول وصوره :

مرّ بنا - غيرَ بعيد - أنَّ جمهور البلاغيين ومنهم السكاكيُّ قصروا مجال الالتفات / العدول على الضمائر . وإذا كانوا بهذا الصنيع حجّروا واسعاً ، فإن

---

١ السابق : ٣٠٣.

٢ طه : ٥٣.

٣ الكشاف : ٢/ ٤٣٦.

٤ طه : ٥٢.

٥ طه : ٥٣.

٦ الانتصاف على هامش الكشاف : ٤٣٦/٢.

تطوّر الدرس البلاغي واتّساع آفاق الرؤية لدى بعض البلاغيين النابهين – كابن الأثير – قد ساعدا على توسيع مفهوم ظاهرة العدول لتنتظم في سلكها صوراً جديدة ولتستوعب أنماطاً أخرى كالعدول في الأفعال والعدول في العدد ... إلخ .

ويلاحظ الدارس لظاهرة العدول أن الدارسين القُدماء اختلفوا في تحديد صور العدول وأقسامه على مذهبين :

الأول : يحصر ظاهرة العدول في مجال الضمائر فحسب .

والاتجاه الثاني : يوسِّع مجال العدول ليشمل إلى جانب العدول في الضمائر العدول في الزمن / الأفعال ، والعدول في العدد .

ولا نريد أن نستطرد في الحديث عن الجانب التاريخي لهذه القضية ، فقد كفتنا كثير من الدراسات مشقة هذا الجهد التأصيلي[1] . ويكفي أن نشير إلى أنّ الاتجاه الأول يمثله جمهور البلاغيين وفيهم السكاكي الذي خالف الجمهور في عدم اشتراط ضرورة تجسد المعدول عنه حضورياً في بنية العدول . والحق أن السكاكي لم يكن رائد هذه المخالفة وإنما هو في رأيه هذا يسير على خطى الزمخشري الذي سبقه إلى تبني هذا الرأي[2].

في حين أن الاتجاه الثاني ظهر على هيئة إشارات عابرة وومضات خافتة على يد المشتغلين بالإعجاز القرآني ، كأبي عبيدة (ت /٢١٠ هـ) الذي ذكر تحت مصطلح (المجاز) صوراً من العدول في العدد إلى جانب العدول في الضمائر من مثل قوله :" ومجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد ووقع على الجميع ، ومجاز ما جاء لفظه لفظ الجميع ووقع معناه على الاثنين ، ومجاز ما جاء لفظه خبر الجميع على لفظ خبر الواحد "[3]. ويتناول كل من الفراء (ت ٢٠٧ هـ) وابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) ظاهرة الالتفات في الضمائر والزمن والعدد .

---

١ للاستزادة من هذا الموضوع ينظر : أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية : ٢٢ وما بعدها والالتفات في القرآن الكريم دراسة أسلوبية : ٣١وما بعدها .

٢ ينظر الكشاف : ١/ ١٨٩.

٣ مجاز القرآن : ١/ ١٨، ١٩.

هذه النظرة الموسعة لظاهرة الالتفات - وإن كان قد رادها علماء الإعجاز - تبلورت واستقرت على سوقها على يد بلاغيٍّ رصين هو ابن الأثير الذي استوعب صور الالتفات في الضمائر والأفعال في كتابه " المثل السائر " حيث أفرد لها باباً مستقلاً عنونه بـــ " في الالتفات" وقسمه ثلاثة أقسام جعل القسم الأول منها خاصاً بالالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة ، ومـــن الغيبـــة إلـــى التكلُّم، وخصّص القسم الثاني لتناول ظاهرة الالتفات عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر وعن الفعل الماضي إلى فعل الأمر .ثم ختم هذا الباب بالقسم الثالث الـــذي تناول فيه ظاهرة الالتفات عن الفعل الماضي إلى المستقبل وعن المســـتقبل إلـــى الماضي وختم هذا القسم بالإشارة إلى الالتفات عن المضارع إلى اســـم المفعـــول واستشهد له بقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾[1] ورأى أنّ (مجموع) معدولٍ عن (يجمع) [2].أما العدول في العدد فقد استوعب ابن الأثيـــر صوره في كتابه الجامع الكبير [3].

وفي كتابه "الطراز" يسلك يحيى بن حمزة العلـــوي – فـــي تحديـــد صـــور العدول- مسلك ابن الأثير في كتابه المثل السائر حذو القذة بالقذة فلا يزيد عليـــه شيئاً. غير أنه لم يتعرض للعدول في العدد كما فعل ابن الأثير في جامعه[4].

* قوانين العدول :

من التساؤلات الوجيهة التي توجّه للدارس اللغوي - وهو يقارب بنية العدول في الصيغ الصرفية - التساؤل عن الأسس اللغوية التي يتكئ عليها في الحكم على صيغة ما بأنها معدولة عن صيغة أخرى ، وتزداد حدة هذا التساؤل – وهو أمـــر عانى منه الباحث – حين يدرك المتسائل أن مجال البحث هو القـــرآن الكـــريم ، حينئذٍ يتَّخذ هذا التساؤل صيغةً أخرى مثل : هل يعني هذا أن الله كان يريـــد أن

١ هود/١٠٣.

٢ يُنظر المثل السائر : ٢/ ١٦٧-١٨٦.

٣ ينظر أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية : ٢٣.

٤ ينظر الطراز : ٢/ ١٣٥ ،١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠.

يقول كذا ثم قال كذا ؟ وهل كنت حاضراً حين حدث ذلك حتى تجزم فـــي هـــذه المسألة ؟ إلى آخر هذه التساؤلات .

إنّ أي رؤية تأويليّة للنصّ القرآنيّ – باستثناء تأويل المعصوم – صـــلّى الله عليه وسلّم – تظلّ محاولةً اجتهاديّةً خاضعةً لمعايير الصّحّة والخطأ . ولا يستطيع أحدٌ أن يدَّعيَ لنفسه – مهما بلغ من العلم – فهمَ مرادِ الله من آياتـــه علـــى جهـــة الجزم القاطع . ولعلّ هذا ما يفسر حرص المفسرين على ذكر عبـــارة التـــذييل الاحتــــرازية (والله أعلم) عقب أي تأويل اجتهادي يقدّمونه لنصٍّ قرآنيٍّ ما .

فبحسب دارس النص القرآني أن يتجرد من الأهـــــواء الفكرية والعقيدية - ابتداءً - وأن يكون صادق النية في خدمة الكتاب الكريم ومحاولة الكشــف عـــن جوانب الإعجاز والإبداع فيه ثانياً وأن يستأنس بأقوال صفوة المفسرين ثالثاً ثم أن يستند إلى قوانين اللغة المعتبرة لتقديم رؤيته الاجتهادية في تأويل النص القرآنـــي الكريم رابعاً.وفي ضوء الضوابط السابقة يترتب على مسألة الصواب والخطأ في تأويل النص القرآني تفاوت نسب الأجر والثواب فحسب . فمن اجتهد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد . ولا يترتب عليها سدُّ باب الاجتهاد في مقاربة النص القرآني.

ويشير أحد الباحثين المعاصرين[١] إلى بعض القوانين اللغويـــة التـــي عـــدّها القدماء مسوغات للحكم بوجود ظاهرة عدول في الصيغ الصرفية (لا في القـــرآن الكريم فحسب وإنّما في أي نص لغويّ) ، ومن هذه القوانين ما يأتي :

١- ملاحظة الأصل والفرع في الصيغ : فبعض الصيغ أصول وبعضها فروع . والفروع محوّلةٌ /معدولةٌ عن الأصول فصيغ المبالغة – مـــثلاً – محولة عن اسم الفاعل .

٢- مراعاة المعنى : فـــ (دافقٌ) ـــ في قولـــــــه تعالى : ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾[٢]- وإن كان لفظه دالّاً على من قام بالفعل (اسم الفاعل) - من

---

١ يُنظر (ظاهرة التحويل في الصيغ الصرفية) للدكتور محمود سليمان ياقوت : ١٠، ١١، ١٢.

٢ الطارق : ٢٢.

حيث المعنى يدل على من وقع عليه الفعل (اسم المفعول) ؛ لأن الماء يكون مدفوقاً لا دافقاً .

٣- الضرورة الشعرية : التي تدفع الشاعر أحياناً إلى توظيف صيغة صرفية نادرة بدلاً من صيغة أخرى أكثر شيوعاً واستعمالاً ، كاستعمال الشاعر صيغتي (الدراهيم والصياريف) بدلاً من (الدراهم والصيارف) في قوله:

تَنْفِيْ يَدَاهَا الْحَصَى فِي كُلِّ هَاجِرَةٍ نَفْيَ الْدَّرَاهِيْمِ تَنْقَادُ الصَّيَارِيْفِ[1]

٤- ربط العدول عن صيغة إلى أخرى بالجانب الدلالي : ومن عباراتهم الدالة على ذلك قولهم : " تحول صيغة (فاعل) للمبالغة في الفعل ، والتكثير فيه إلى خمسة أوزان ... وتسمى هذه الخمسة أمثلة المبالغة " [2].

٥- مراعاة الجانب الصوتي :كحذف أحد التاءين تخفيفاً من كلمة (تتنزّل) في قوله تعالى : **(تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ)**[3] [4].

٦- القراءات القرآنية :فالماضي (حصرت) في قوله تعالى : ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾[5] ، معدولٌ عن الصفة المشبهة (حَصِرةً) بدليل قراءة **(أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَةً صُدُورُهُمْ)**[6].

٧- تحليل بعض التراكيب النحوية اعتماداً على التحويل والعدول في الصيغ : وقد ذكر ابن الأنباريّ أن العرب " تقول للشيء معناه (فَعَلَ) قد

---

[1] البيت يُنسب للفرزدق ، ولم أجده في ديوانه ، وقد وجدته منسوباً إليه في ، سر الفصاحة : ٨١ ، والعمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : ٤١٣ .

٢ ينظر : شرح التصريح : ٢/ ٦٧.

[3] القدر : ٤.

[4] ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات : ١٤٢- ١٤٣. والممتع في التصريف : ١/ ١٤٠.

٥ النساء : ٩٠.

٦ هذه قراءة يعقوب والحسن ، يُنظر : القراءات الشاذّة : ٢٧ ، ٢٨ ، وإعراب القراءات الشّواذّ : ١/ ٣٩٩، وإتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر : ١٩٣.

تَفَاعَلَ ، كقولك : قد تباعد ما بين القوم ، تريد : تبعَّد ما بينهم ، وكـــذلك تطـــاول الليل ، أي طال ، وتعالى النهار ، أي : علا "[1].

٨- النظر في الفصائل النحوية : فـــ (حِجْرٌ) في قوله تعالى : ﴿وَقَالُواْ هَـــذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾[2] (فِعْل) بمعنى (مفعول) كــــ : ذِبْح وطِعْن .

٩- السماع عن العرب : فالعرب تعدل عن المصدر إلى اسم المفعول فـــي كثير من كلامها . فقد سمع عنهم مكذوب ومضعوف ومعقود في : كذب وضعف وعقد [3].

ويبدو أن الدكتور ياقوت يخلط بين مفهوم الأسس اللغوية التي اعتمد عليهـــا القدماء في القول بوجود ظاهرة عدول في الصيغ الصرفية وبـــين غيرهـــا مـــن المفاهيم ، إذ يمكن تصنيف النقاط التسع التي نقلناها عنه سابقاً في ثلاثة أقسام :

* **القسم الأول** :

يندرج تحته الأسس اللغوية التي اعتمدها القدماء في الحكـــم بوجـــود عدول في الصيغ الصرفية : ويشمل هذا القسم الأسس ذوات الأرقام (١، ٢، ٦ ، ٩). يتفق الباحث مع الدكتور ياقوت في الأسس ذوات الأرقـــام (٢، ٦ ، ٩) تمام الاتفاق منبِّهاً على أنَّ موافقته للدكتور ياقوت في النقطة الثانية هـــي موافقة على الأساس النظري (مراعاة المعنى) فحسب ، لا على ما مثَّل بـــه تحت هذه النقطة من شواهد ، لأنَّ هذه الشواهد ومثيلاتها لا تدخل تحت مفهوم العدول السياقيّ الذي سيقتصر الباحث على تناوله في دراسته ، أما الأساس أو القانون رقم (١) : ملاحظة الأصل والفرع في الصيغ ... ، فيرى الباحث أنه لا يطِّرد إلا في ضوء (المقياس الاشتقاقي) ، فالفروع مشتقة من الأصـــول . أي محولة أو معدولة عنها . أما في ضوء(المقياس الدلالي) فلا يطّرد هـــذا القانون إلا في حالتين :

---

١ شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات : ٣٥٧، ٣٥٨.

٢ الأنعام : ١٣٨.

٣ ينظر : معاني القرآن : ٢/ ٣٨.

- الأولى : الاستعمال المجازيّ / غير الحقيقي للصيغة :

كاستعمال صيغة المبالغة (أكّال) صفةً للرجل القليل الأكل أو المتوسط الأكل ، فهذه الصيغة في هذا السياق فرعية متحولةٌ عن أصل وهو الصيغة المجردة عن دلالة المبالغة على الأكل الكثير وهي صيغة (آكل) .

- الحالة الثانية : أن يكون المقصود بالأصالة أصالة السبق الموقعي لا أصالة السبق الوضعي :

فصيغة اسم الفاعل (فالق) في قوله تعالى : ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[1] أصلٌ معدول عنه ؛ لأنه سابق موقعياً – في ضوء العدول السياقي – لصيغة الماضي (جعل) وصيغة الماضي (جعل) فرع معدول إليه ؛ لأنه تالٍ موقعياً وإن كان هو الأصل لسبقه الوضعي على مذهب الكوفيين.

* **القسم الثاني** :

ويضم النقاط ذوات الأرقام (٣، ٤، ٥) ويمكن وضع هذه النقاط تحت عنوان (علل العدول في الصيغ الصرفية) . والفرق بين الأسس اللغوية في القسم الأول ، وعلل العدول في هذا القسم أن الأسس اللغوية ترتبط بالدارس أو الناقد ، أما العلل فترتبط بمنتج النص /المبدع . وبمعنى آخر فإن الأسس اللغوية تصلح جواباً للسؤال الآتي : ما المسوغات اللغوية التي يتكئ عليها الدارس في ادعائه وجود ظاهرة عدولية في الصيغ الصرفية ؟ . أما علل العدول فتكون جواباً للسؤال الآتي : لِمَ عدل منتج النص (الشاعر مثلاً) عن صيغة صرفية إلى صيغة صرفية أخرى؟ .

وعلى ذلك تكون الضرورة الشعرية ، والقصد إلى تحقيق قيمة دلالية معينة ، وطلب خفة النطق ، عللاً لعدول المبدع عن صيغة إلى صيغة أخرى ، وليست قوانين لغوية تبرر دعوى النقاد والدارسين وجود ظاهرة عدول في النص اللغوي.

---

١ الأنعام : ٩٦

* **القسم الثالث :**

ويندرج تحته النقطتان (٧، ٨) ، وهاتان النقطتان ليستا من الأسس اللغوية في القسم الأول ولا من علل العدول في القسم الثاني بل كل منهما يَتضمّن دعوى وجود ظاهرة عدول عن (يتفاعل) إلى (فَعَل) في النقطة رقم (٧) ، وعن (مفعول) إلى (فِعْل) في النقطة رقم (٨) .

أما **الأسس أو القوانين اللغوية التي اعتمدتها هذه الدراسة** في الحكم بوجود ظاهرة عدول في صيغ المشتقات في القرآن الكريم ، وفي التأكيد على توحّد الصيغتين في بنية العمق فيمكن تصنيفها في قسمين :

* القسم الأول : قوانين لغوية حاسمة :

هذا القسم من القوانين يجعل دعوى تحقق الظاهرة العدولية - على مستوى بنية السطح - حكماً يقينيّاً قطعيّاً لا يتطرق إليه شكّ ويؤكِّد تجانسَ الصيغتين في البنية العميقة . ومن هذه القوانين :

١ - قانونُ السياق التاريخيِّ للصيغةِ :

إن وقوعَ حدثٍ ما في حقبة زمنية معينة يقتضي التعبير عنه بصيغة زمنية تنتمي إلى تلك الحقبة ، فإذا ما عُبِّرَ عن هذا الحدث بصيغة زمنية تنتمي إلى حقبة زمنية أخرى ، فإن هذا الإجراء الأسلوبي يعد مؤشراً يقينياً إلى حدوث تحول /عدول في الصيغة الزمنية لهذا الحدث .

ففي قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾[1] ندرك أن السياق التاريخي المهيمن على مجريات الأحداث هو سياق الزمن المستقبل بتأكيد الدوال (ينفخ في الصور) فالنفخ في الصور لا يكون إلا يوم القيامة ، وهو زمن مستقبل ، ومن هنا نعد بناء حدث الفزع بصيغة الماضي (ففزع) مسلكاً أسلوبياً عدولياً . وكان مقتضى السياق

١ النمل : ٨٧

التاريخي للآية أن يرد بصيغة المضارع (فيفزع) ؛ لأنه حدث مستقبلي مسبب عن حدث مستقبلي (النفخ في الصور) والمسبب تالٍ للسبب لا سابق عليه .

وفي قوله تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[1] يحفل السياق بدوالّ تؤكد انتماء الأحداث إلى حقبة زمنية ماضوية . ومن هذه الدوالّ (عيسى ، آدم ، خلقه ، قال) . ثم يأتي فعل الكينونة (فيكون) ليُمثِّل كسراً لمنطقية انتماء الحدث إلى الزمن الماضي لتحقيق قيمة دلالية معينة . ولا مشاحّة في أن وجود آدم عليه السلام وكينونته قد تحققا في الزمن الماضي فيكون الحكم بوجود عدول زمني عن الماضي (فكان) إلى المضارع (فيكون) أمراً يقينياً قطعياً . ويشير ابن هشام [2] إلى قانون السياق التاريخي بقوله " يعطف الفعل على الفعل بشرط (اتحاد زمانيهما) ، سواء اتحد نوعاهما نحو :

﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ...﴾[3] ، أم اختلفا نحو : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ...﴾[4] .

٢- قانون لمّا الظرفية أو الحرفية (على الخلاف المشهور) :

مذهب النحويين أن جواب (لمّا) في نحو : لمّا جاءني أكرمته ، ماضٍ مطلقاً . وجوّز ابن عصفور كونه مضارعاً ، واستدل بقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾[5]، والجمهور يؤولون المضارع بالماضي أو يجعلون الجوابَ محذوفاً والتقديرُ : أقبل يجادلنا . وجوّز ابنُ مالكٍ كونَه جملةً اسميةً مقرونةً بالفاء أو بإذا الفُجائية ومنه قوله تعالى :
﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾[6] .

---

١ آل عمران : ٥٩

٢ينظر : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك : ٣/ ٢٧٥، ٢٧٦ .

٣ الفرقان ٤٩

٤ هود : ٩٨

٥ هود : ٧٤.

٦ لقمان : ٣٢.

وقال الجمهور : إنّ الجوابَ محذوفٌ ، وفي التقدير : انقسموا قسمين [1].

ونميل إلى رأي الجمهور في هذه المسألة ؛ لأنّ الشائع استعمال جواب لمّا ماضياً ، أمّا ما استشهد به ابنُ عصفور من مجيء جواب لمّا مضارعاً وابنُ مالكٍ من مجيئه جملةً اسميةً فهو مُتأوَّلٌ عند الجمهور كما مرّ بنا ، ونعُدّهُ نحنُ ظاهرةً عدوليةً لتحقيق غرض بلاغي دلاليٍّ ما . وتجدر الإشارة إلى أن فعلي الشرط والجواب مع لمّا يقعان في حيز الزمن الماضي لأنهما إخبار عن حدثين ماضيين وهذا ما يجعل الحكم بماضوية جواب لما قطعيَّ الثبوت .

* القسم الثاني : قوانين لغوية مرجِّحة :

هذا القسم من القوانين لا يوجب تماثل الصيغتين الصرفيتين في بنية العمق ، والحكم الجازم بوجود عدول عن صيغة إلى أخرى في بنية السطح . ولكنّه – أي هذا ا لقسم من القوانين – يرجِّح تماثل الصيغتين الصرفيتين في بنية العمق وحدوث عدول عن صيغة إلى أخرى في بنية السطح . ومن قوانين هذا القسم ما يأتي :

١ - قانون العطف :

إن ضم المتماثلات مظهرٌ من مظاهر الاتساق الجمالي والانسجام المنطقي الذي ترتاح إليه النفس ويحبذه العقل السليم . ولما كان أسلوب العطف أحد أساليب اللغة الفاعلة في ضم المتماثلات / المتعاطفات إعرابيا ، كان من تمام التماثل بين المتعاطفين ضم المتماثلات صيغياً لا على سبيل الوجوب ولكن مراعاة لجماليَّات الاتّساق والانسجام المنطقي . ونؤكد على أن ضم المتماثلات صيغياً في أسلوب العطف ليس قانوناً لغوياً حتمياً . بل هو مطلب عقلي منطقي وقيمة جمالية إيقاعية صرف . وحتى تتضح هذه الفكرة نمثل بالمثالين الآتيين :

محمد صائم النهار وقائم الليل ، محمد صائم النهار ويقوم الليل .

---

١ ينظر : همع الهوامع في شرح جمع الجوامع : ١٦٢، ١٦٣.

ففي المثال الأول نلاحظ أن صيغة اسم الفاعل (قائم) عُطفت على صيغة اسم الفاعل (صائم) . هذا التماثل الصيغي يحمل قيمتين : قيمةً عقلية منطقية ناشئة من ضم المتماثلات بواسطة الدالّ (حرف العطف الواو) ، وقيمة إيقاعية متولدة عن التماثل المقطعي الصوتي بين المتعاطفين .

و المثال الثاني الذي عطف فيه المضارع على اسم الفاعل ــــ على كونه سليماً من الناحية التركيبية والإعرابية ــــ يفتقر إلى القيم المنطقية والجمالية التي يكتنزها المثال الأول . لكنّ هذه القيم يمكن التسامح فيها والتضحية بها إذا كانت المغايرة بين صيغتي المتعاطفين تؤشر إلى قيمة دلالية معينة لا يمكن أن تؤديها مماثلة المعطوف للمعطوف عليه صيغياً ، كأن يكون العدولُ عن صيغةِ اسمِ الفاعل (صائم) إلى صيغة المضارع (يقوم) دالّا على أنّ اتصاف محمد بقيام الليل ليس على سبيل الاستمرار والثبوت كصيام النهار (دلالةِ اسم الفاعل) وإنما على سبيل التجدد والتكرار . ويتحمَّسُ الرازيُّ لبيان أهميةِ قانون العطف وفاعليتِه في تجنيس المتعاطفات ، إذْ يجعل هذا التجنيس (حكماً واجباً) فيقول في تأويله لظاهرة العدول عن المصدر (بشرى) إلى المضارع (لتطمئنّ) في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ "اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[1] : " قوله : (لِتَطْمَئِنَّ) فعلٌ ، وقوله (إِلاَّ بُشْرَى) اسم ، وعطف الفعل على الاسم مستنكر ، فكان **الواجب** أن يقال : إلا بشرى لكم واطمئناناً ، أو يقال : إلا ليبشركم ولتطمئنّ قلوبكم به ، فلمَ ترك ذلك وعدل عنه إلى عطف الفعل على الاسم ؟ ..."[2].

ومن الإشارات التراثية الدالّة على وجاهة قانون العطف ، وأنّ من مقتضيات الظاهر تماثل المتعاطفين صيغياً قول الآلوسي في تفسيره لقوله تعالى : **(**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾[3] " ولعموم الإنذار وخصوص التبشير قيل (مبشراً ونذيراً) على صيغة المبالغة دون (منذراً) مع أنّ ظاهر عطفه على

---

١ آل عمران : ١٢٦ .

٢ مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) : مج ٤ ، ج ٨ / ٢٣٧ .

٣ الفتح : ٨ .

(مبشراً) **يقتضي** ذلك ..."[1]. فقدجعل الآلوسيُّ مماثلة (نذيرا) لـــ (مُنــذِراً)فـــي الصيغة من مقتضيات قانون العطف .

وفي معرض الحديث عن ظاهرة العدول عن المضارع (ينفخ) إلى الماضي (ففزع) في قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾[2] يقول باحث معاصر : " فقد عطف (فزع) الماضي على (ينفخ) المضارع مع أن الفزع مسبب عن النفخ أي إنّ الفزع مستقبل بالنسبة لسببه وهو النفخ . **ومــن حــق العربيــة** أن يُعطــف المســتقبل علــــــــــــى نظيره " [3]. فمن حق العربية –في تقدير هذا الباحث- أن يُماثِــل منشئ الكلام بين المتعاطفين صيغياً .

٢ - قانون الجوار / الإتباع :

إن ظاهرةَ التأثير والتأثُّر بين العناصر المتجاورة من الظــواهر الملحوظــة والمسلّم بحدوثها لا على المستوى اللغويِّ فحسب ، وإنما على جميــع مســتويات الحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية والسياسية وغيرها . ويُهمُّنا في هذا المقــام دراسة هذه الظاهرة على المستوى اللغوي لمعرفة أنواع التأثيرات الناشــئة بــين الدوالّ اللغوية المتجاورة في السياق اللغوي بفعل قانون الجوار .

لقد تنبّه الدارسون القُدامى على فاعلية قانون الجوار في إحداث أنواع مــن التأثيرات في بنية المعدول إليه ، يقول العُكبريُّ : " والجوار مشهور عندهم فـــي الإعراب وقلب الحروف بعضها إلى بعض والتأنيث وغير ذلك " [4]. ويرفدنا نصُّ العكبري بأنواع من هذه التأثيرات منها :

---

١ روح المعاني : ١١/ ٢٢٣

٢ النمل ٨٧ .

٣ ظاهرة العدول في اللغة العربية : مقدمة الرسالة / ز .

٤ التبيان في إعراب القرآن : ١/ ٢٠٩.

١) التأثير الإعرابي :

تتأثر الكلمة في السياق اللغوي بالكلمة المجاورة لها فتأخذ حكمها الإعرابيّ . ولعلّ في مقولة الجرّ على الجوار ما يؤكِّد صحة هذه الدعوى . فالحكم الإعرابي الذي تقتضيه الطبيعة الموقعية الطارئة (الجوار) للكلمة في السياق اللغوي يغاير الحكم الإعرابي الذي تقتضيه الطبيعة الوظيفية الأساسية لها (الموقع الإعرابي) في السياق ذاته. ففي قول امرئ القيس :

كَأَنَّ ثَبِيْراً فِي عَرَانِيْنِ وَبْلِهِ كَبِيْرُ أُنَاسٍ فِي بِجَادٍ **مُزَمَّلِ**[1]

تتحدد لكلمة (مزمّل) طبيعتان : طبيعية موقعية طارئة ناشئة عن مجاورتها لكلمة (بجاد) المجرورة بحيث تأخذ حكمها الإعرابي وهو الجر. وطبيعة وظيفية أساسية ناشئة عن موقعها الإعرابي الحقيقي وهو كونها صفة لكلمة (كبير) المرفوعة بحيث تأخذ حكمها الإعرابي وهو الرفع .

وقد أورد سيبويه عن العرب قولَهم : هذا جُحرُ ضبٍّ خَرِبٍ [2] بجرِّ (خرب) لمجاورته (ضبّ) وهو في الأصل مرفوعٌ صفةً لـ (جحر) . وقرئ[3] ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلاً وَأَغْلالاً وَسَعِيراً﴾[4] بتنوين (سلاسلاً) في الوصل ؛ لمجاورتها (أغلالاً) وهي في الأصل بدون تنوين ؛ لأنها ممنوعة من الصرف ؛ لكونها على صيغة مُنتهى الجموع .

إن التأثير الإعرابي الذي يطرأ على الكلمة بحكم طبيعتها الموقعية الطارئة هو ظاهرة عدولية يفرضها قانون الجوار . ومن هنا كان قانون الجوار أساسا لغويا يعتمد عليه الناقد في الحكم بوجود ظاهرة عدول في السياق اللغوي .

---

[1] ديوان امرئ القيس : ٥٣.

[2] الكتاب : ١/ ٤٣٦.

[3] هذه قراءة نافع وهشام من طريق الحلواني ، والشذائي عن الداجوني وأبو بكر والكسائي وأبو جعفر ورويس من طريق أبي الطيب ، يُنظر : إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر : ٤٢٨، ٤٢٩.

[4] الإنسان : ٤.

٢) التأثير الصوتي :

تتأثر الكلمة بمجاورتها صوتياً على مستويي الصوامت والصوائت : فعلى مستوى الصوامت تستبدل الكلمة ببعض مكوناتها الصوتية مكوناً صوتياً جديداً مماثلاً لمكون صوتي في بنية الكلمة المجاورة تحقيقاً لجمالية التماثل الصوتي الكلي بين الكلمتين المتجاورتين .

ففي حديث : " ارجعن مأزورات غير مأجورات "[١] ندرك أنَّ الأصلَ موزورات غيرَ مأجورات . فقلبت الواو همزة لمجاورة (موزورات) لـ (مأجورات).

وفي قول العرب : بالغدايا والعشايا[٢] ، نقفُ على بناءٍ صرفيٍّ جديد غير مألوف هو (الغدايا) والمشهور المعروف في جمع الغدوة (الغدوات) لكن مجاورة هذه الكلمة لكلمة (العشايا) سوغ حدوث هذا التحوير الجوهري في بنيتها الصوتية الأساسية حتى تتماثل الكلمتان صوتياً [٣].

ولا يقتصر التأثير الصوتي لقانون الجوار ــ في حقل الصوامت ــ على الكلمات المتجاورة فحسب ، بل يتجاوز هذا المستوى ليؤثِّر في بنية الأصوات المتجاورة على مستوى بنية الكلمة الواحدة . فالعرب تقول : أوائل ، والأصل : أواول[٤] ، لكن الواو الثانية لما وقعت مجاورة للطرف أخذت حكم الواو المتطرفة فقلبت همزةً ، ومعلوم أن الواو تقلب همزةً إذا تطرّفت .

ويمتدّ التأثير الصوتي لقانون الجوار ليشمل الصوائت / الحركات على مستوى البنية الصرفية للكلمة كقول بعض العرب : شِعِير وبِعِير ورِغِيف(بكسر الشين والباء لمجاورتهما العين المكسورة وبكسر الراء لمجاورتها الغين

---

١ في إسناد هذا الحديث إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم نظر ولكنّا نورده على سبيل الاستئناس . ينظر في تخريج الحديث : سنن ابن ماجه : كتاب الجنائز ، باب ما جاء في اتباع النساء للجنائز ' رقم ١٥٧٨ / ٢٣٢ .

٢ يُنظر : فقه اللغة وسر العربية : ٣٢٦ ، أساس البلاغة : مادة (غدو) : ٤٦٦ ، المخصّص : ٩٩.

٣ ينظر : التبيان في إعراب القرآن : ٢٠٩/١.

٤ نفس المصدر والصفحة .

المكسورة) ويرى ابن جنِّي أنّ ذلك خاصّ بالأصوات الحلقية[1]، ومنه قراءة (الحمدِ لِلَّه) بكسرِ الدالِ إتباعاً للّام [2].

٣) التأثير النوعي (التذكير والتأنيث) :

يشير العكبري إلى هذا النوع من التأثيرات الناشئة عن قانون الجوار بقوله : " ومما راعت العرب فيه الجوار قولهم : قامت هند . فلم يجيزوا حذف التاء إذا لم يفصل بينهما ، فإن فصلوا بينهما أجازوا حذفها ، ولا فرق بينهما إلا المجاورة وعدم المجاورة "[3].

فمن مقتضيات الجوار في أسلوب النظم العربي ــــ إذن ــــ تماثلُ المتجاورين في النوع تذكيراً وتأنيثاً . ويراعي النظم القرآني هذا المقتضى في كثير من سياقاته كقوله تعالى : ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[4]. فقد كان الوجه أن يقول : خاضعةً . ويدلّ عليه قراءة **(فَظَلَّتْ أَعْنُقُهُمْ لَهَا خَاضِعَةً)** [5]؛ لأنها خبر عن مؤنث (الأعناق) ، لكنه " ذكّر الصفة لمجاورتها المذكر وهو قوله (هم) " [6].

وكقوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ. وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[7] إذ ذكّر الفعل (أخذ) وكان حقه التأنيث ؛ لأنه مسند إلى مؤنث (الصيحة) ، وعِلَّةُ تذكيره مجاورته لأسماء مذكّرة (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ) [8].

---

[1] يُنظر الخصائص : باب (في الإدغام الأصغر) : ٢/ ٤٩٧.

[2] رويت هذه القراءة عن الحسن وزيد بن علي ، وهي لغة تميم وبعض غطفان : يُنظر : إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر : ١٢٢.

٣ ينظر : التبيان في إعراب القرآن : ١/ ٢٠٩.

٤ الشعراء : ٤

٥ ينظر : مختصر شواذّ القراءات : ١٠٧.

٦ معالم التنزيل : ١/ ١٠٦.

٧ هود : ٦٦، ٦٧.

٨ سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد : ٤٦.

إن تماثل المتجاورين على المستوى الإعرابي والصوتي والنوعي في كثير من السياقات الأدبية والقرآنية ، يقتضي تماثلَهما على المستوى الصيغي الصرفي تحقيقاً لجمالية التماثل الكلي بين المتجاورين وهي قيمةٌ جماليةٌ إضافية ولكنها ليست ضرورةً حتميَّةً.

٣- **قانون التقابل** :

إنّ تقابل العناصر اللغوية في السياق الموازني يقتضي تماثل المتقابلين في العناصر الموازنيَّة رجحاناً لا وجوباً ؛ ذلك لأن هذا التماثل ينسجم مع بديهيات التفكير المنطقي والحس الجمالي الذي يألف المتماثلات وينفر من المتناقضات . ثم إن موازنة المتقابلين هي صورة من صور الموازنة الدلالية التي تتطلب موازنةً لفظيةً صوتية استكمالاً للبنية الموازنية في السياق اللغوي .

إنّ قول القائل : المجتهد ناجحٌ والمهمل يرسب ، يستثير المتلقِّي ذهنيّاً ووجدانيّاً . فهو يدرك بقدراته العقلية المنطقية ويستشعر بحسه الوجداني الجمالي أن صيغة المضارع (يرسب) تحمل شحنة هائلة من القلق والاضطراب في موقعها من السياق . وهنا يجد المتلقي نفسه مدفوعاً بذائقتِه اللغويةِ الجماليةِ إلى استبدال صيغة اسم الفاعل (راسبٌ) بها ؛ لإعادة الانسجام والائتلاف بين الدوالِّ في بنية السياق اللغوي. وإذا ما رحنا نبحث عن سر الاضطراب والقلق اللَّذَيْنِ حفلت بهما صيغة المضارع في هذا السياق ، وجدنا أن المقام مقام موازنة بين حالين متقابلتين : حال المجتهد وحال الراسب . ولما كان السياق اللغوي آثر صيغة اسم الفاعل (ناجح) لرسم ملامح الحال الأولى بما تحمله هذه الصيغة من ثبات ورسوخ في القيمة الدلالية ومن امتداد صوتي في القيمة الإيقاعية ، فإن من حق البنية الموازنية أن يؤتى بصيغة صرفية مماثلة – دلالياً وإيقاعياً- لاستيعاب ملامح الحال المقابلة .

وتزداد الحاجة إلى تماثل العناصر المتغايرة في السياقات التقابلية الموازنية كلَّما ازداد عدد العناصر المتماثلة في هذه السياقات لتحقيق مظهر التماثل الكلي .

ففي قوله تعالى : ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾[1]. تجسد الآيتان حالين متقابلتين هما (الثبات على الإيمان والثبات على الكفر) ويلاحظ تماثل هاتين الآيتين في العناصر الآتية :

- حرف العطف ولا النافية : ولا ، ولا .
- أن المسند إليه ضمير : أنا ، أنتم .
- أن المسند اسم فاعل : عابد ، عابدون .
- أن المفعول به اسم موصول : ما ، ما .

إن التماثل بين البنيتين المتقابلتين على مستوى هذه العناصر يُعدّ من المرجحات والمسوغات الأسلوبية لدعوى تماثل العنصرين المتغايرين (عبدتم / ماض ، أعبد / مضارع) في بنية العمق على صيغة واحدة / المضارع (تعبدون ، أعبد) .

ويستند ابن عاشور إلى قانون التقابل وهو يفترض وجود عدول عن المصدر إلى المضارع في قوله تعالى : ﴿وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾[2]. فيقول : "وكان **مقتضى المقابلة** أن يُقال : ولا رجوعاً ، ولكن عدل إلى (ولا يرجعون) لرعاية الفاصلة "[3].

٤ - قانون التماثل الموقعي / الإعرابي في السياق الواحد :

حين يضمُّ السياقُ اللغوي الواحد مفردتين أو مفردات متعدِّدة تتماثلان أو تتماثل على المستوى الإعرابي / الموقع في التركيب اللغوي ، يصبح التماثل على المستوى الصيغي مطلباً منطقياً ومنحىً جمالياً إيقاعياً مُلحّاً ، ففي قول الخنساء :

حَمَّالُ أَلْوِيَةٍ هَبّاطُ أَوْدِيَةٍ ... شَهَّادُ أَنْدِيَةٍ لِلْجَيْشِ جَرَّارُ[4]

---

١ الكافرون : ٥ ، ٦ .

٢ يس : ٦٧.

٣ التحرير والتنوير : ٢٢ / ٢٥٨.

٤ ديوان الخنساء : ٣٦.

يتضافر التماثل الموقعي للدوالّ (حمّال ، هبّاط ، شهّاد، جرّار) (كلّها أخبار لمبتدأ محذوف تقديره : هو) ، مع التماثل الصيغي لها (كلّها صيغ مبالغة) لخلق نسق متتابع من الدوالّ المتّسمة بالتضامّ المنطقي والتجانس الصوتي الإيقاعي . وتبرز جمالية التماثل الصيغي في السياق السابق حين نقابله بالسياق المتصور الآتي :

حَمَّالُ ألويةً يهبط أودية شهّاد أندية للجيش جارٌ

إذْ تمثِّل صيغتا المضارع (يهبِط) واسم الفاعل (جارّ) كسراً للنّسق المتماثل منطقياً وإيقاعياً من صيغ المبالغة (فعّال) الذي افترضته صيغة الاستهلال (**حَمَّالُ**) وأكّدته صيغة التعزيز (شهّاد) .

وتظلُّ مسألةُ التماثل الصيغي بناءً على التماثل الموقعي ضرورة ملحَّة لتحقيق جمالية الاتِّساق والتجانس . ولكنّها في كلّ الأحوال ليست ضرورةً حتميّةً واجبةَ التحقُّق كما هو الحال في قانوني السياق التاريخيِّ و لمّا الظرفيَّة أو الحرفية مثلاً ، بل إن كسر التماثل الصيغي بين الدوالّ المتماثلة موقعياً قد يمثل – في بعض السياقات- منحىً جمالياً إبداعياً بما يحمله من قيم دلالية إيحائية . ومن هذه السياقات قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [١] .

إنَّ صيغتي المضارع (يقذف) والمبالغة (علاّم) تتماثلان في الموقع الإعرابي (كلاهما خبر إنّ) [٢]، ولكنهما تتغايران على المستوى الصيغي ، ونفترض تماثلهما صيغياً في بنية العمق (يقذف ، يعلم) ، لكنّ سياق الآية الكريمة – من خلال العدول إلى صيغة المبالغة – يضحِّي بجماليِّة التماثل والاتّساق في سبيل تحقيق قيمة جمالية أخرى هي تحقيق التناسب الدلاليّ مع صيغة الجمع (الغيوب) الدالّة على كثرة الغيبيات التي تحيط القدرة الإلهيّة بعلمها .

---

١ سبأ : ٤٨ .

٢ ينظر إعراب مشكل القرآن : ٢/ ٥٩٠.

٥ - قانون التفصيل أو التقسيم / (إمّا) التفصيلية أو التقسيميَّة :

من المعاني التي يذكرها النحاة لــ (إمّا) معنى التفصيل ، ومــن شــواهدهم المشهورة من الذكر الحكيم قوله تعالى : ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِــيلَ إِمَّا شَــاكِرًا وَإِمَّــا كَفُورًا﴾[١] .

ويذكر الآلوسي دلالتين لــ (إمّا) في الآية السابقة فيقول : " و(إمّا) للتفصيل باعتبار تعدد الأحوال مع اتحاد الذات ، أي : هديناه ودللناه على ما يوصــل إلــى البغية في حالتيه جميعاً من الشكر والكفر ، أو للتقسيم للمهديّ باختلاف الذوات ... أي : هديناه السبيل مقسوماً إليهما بعضهم شاكر بالاهتداء للحق وطريقه بالأخذ فيه وبعضهم كفور بالإعراض عنه .... وإيراد الكفور بصــيغة المبالغــة لمراعــاة الفواصل والإشعار بأنّ الإنسان قلّما يخلو من كفران ما... "[٢].

من نصّ الآلوسيّ السابق ندرك أن (إمّا) في مثل سياق الآية السابقة تحمــل دلالتين : الأولى التفصيلُ باعتبار تعدد الأحوال للذّات الواحدة ، والثانية التقســيمُ باعتبار تعدد الأحوال لتعدد الذوات . وفي كلتا الحالتين نلاحظ أن (إمّا) تتكــــرر في السياق وأن الاسمين اللّذين تدخل عليهما (إمّا) المكررة متمــاثلان /متطابقــان إعرابياً وقد انتصبا في الآية إما على الحالية أو على الخبرية من كان المحذوفــة هي واسمها [٣].

هذا التطابق بين الاسمين على المستوى الإعرابيِّ يرافقه تغايرٌ بينهما علــى المستوى الصيغي في بنية السطح في الآية ، فالاسم الأول اسم فاعــل (شــاكراً) والاسم الآخر صيغة مبالغة (كفوراً) ، ونفترض تطابق الاسمين علــى مســتوى الصيغة في بنية العمق (شاكراً ، كافراً) . ويرجِّح التَّفكيرُ المنطقيُّ البسيط والحسُّ الجماليُّ الأوليُّ ضرورةَ هذا التطابق ، ذلك أنّ المنطق العقليّ غير المعقّد يميــل إلى تأليف النظائر ، والحس الجمالي المباشر يناظر بين المتوازنات . ويبــدو أن

---

١ الإنسان : ٣

٢ روح المعاني : ١٥٣/٢٩.

٣ مغني اللبيب : ١/ ٧٢ ، ٧٣ .

الوعي بهذه المعطيات كان حاضراً في الذهنيّة التراثيّة الناقدة . ومن النصوص التراثية الصريحة في هذا المقام قول البيضاوي: " ولعله لم يقل (كافراً) **ليطابق قسيمه** ؛ محافظةً على الفواصل .." [1] .

فنصّ البيضاويّ صريح في أنه كان الأصل أن يقول (كافراً) كما قال (شاكراً) أي بصيغة اسم الفاعل حتى يتطابق القسيمان ، ولكنه عدل إلى صيغة المبالغة (كفوراً) لتحقيق قيمة إيقاعية هي تماثل فواصل الآي. وفي نصّ الآلوسيّ السابق إشارة ضمنية إلى ذلك . فإنّ قوله : " وإيراد (الكفور) بصيغة المبالغة لمراعاة الفواصل والإشعار بأن الإنسان قلّما يخلو من كفران ما .." يتضمّن الدلالة على أنه كان الأصل أن تأتي مادة الكفر في سياق الآية بصيغة اسم الفاعل حتى تطابق الصيغة السابقة (شاكراً) وأن العدول عن صيغة اسم الفاعل إلى صيغة المبالغة جاء محققاً أغراضاً معينة هي مراعاة الفواصل والإشعار ... إلخ .

ومن النّصوص الصّريحة أيضاً قول الزركشيّ : " فإن قيل : قوله تعالى : ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [2] كيف غاير بين الصفتين وجعل المبالغة في جانب الكفران ؟ قلت : هذا سأله الصاحب بن عباد للقاضي عبد الجبار بن أحمد المعتزليّ ، فأجاب : بأنَّ نعم الله على عباده كثيرة ، وكل شكر يأتي في مقابلها قليل وكل كفر يأتي في مقابلتها عظيم ، فجاء (شاكراً) بلفظ فاعل ، وجاء كفور (فعول) على وجه المبالغة " [3] .

إن السؤال الذي توقّع الزركشيّ صدورَه عن المتلقِّي عند وقوفه على هذه الآية وهو: كيف غاير بين الصفتين ، وجعل المبالغة في جانب الكفران ؟ ، يدل على أن الأصل أن تتماثل الصفتان صيغياً ، وإلا ما توقع صدوره عنه ؛ لأن السؤال عن كيفية المغايرة بين الصفتين في هذا السياق يدلّ على أن هذه المغايرة مسلك أسلوبي مخالف للمألوف ، وكأن المألوف المعتاد في مثل هذه السياقات أن

---

١ أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٥ / ٤٢٦.

٢ الإنسان : ٣

٣ البرهان : ٢/ ٥١٤.

تتطابق الصفتان صيغياً ، وإلا لكان هذا السؤال غير مهمٍّ وغيرَ قابل للتوقع والحدس .

ومما يؤكد أنّ الأصل تطابقُ الاسمين صيغياً في مثل السياق السابق ورودُهما متطابقين في سياقات أخرى منها قوله تعالى في الأسرى :﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء﴾[1] ، إذْ تطابق الاسمان (منّاً ، فداءً) في الصيغة المصدرية . وقوله : ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾[2] ، فقد وقع التطابق في الصيغة الفعلية المضارعية .

٦- قانون الاطّراد :

إن ّاطّراد نماذج الظاهرة الأسلوبية في سياقات شتى ، يمنح المتلقي حقَّ تأويل النموذج المعدول وتصوُّرَه في بنية العمق على هيئة تنسجم مع النماذج المطّردة ، بحيث يصبح هذا النموذج منبِّها أسلوبيا على قيمة دلالية أو جمالية يسعى السياق إلى إثراء النص بها ومدِّه بمعطيات قيمية جديدة .

إنّ مبدأ القياس في التراث النحوي العربيّ – والبصريّ منه على وجه الخصوص – يرتكز على قانون الاطّراد حيث اتّخذ نحاة البصرة من وفرة المسموع وتواتره وتوارده قاعدةً لغويةً خولت لهم الحكم بشذوذ المثال المغاير (لعدوله) عن القاعدة المطّردة .

ولا نريد أن نحذوَ حذوهم في هذا المضمار ، ولعل صنيعنا يكون أخف وطأةً من صنيعهم حيث نبذوا المثال المغاير وأعدنا تشكيله وصهره في بوتقة القاعدة المطّردة .

وإذا كانت القواعد والقوانين اللغوية لا تُبنى إلا على كثرة كاثرة من الأمثلة التي يتم استقراؤها ، فإنّ بروز مثال على نمط مغاير يُعطي مبرِّرا للحكم بعدوله عن القاعدة العامة وبإمكانية إعادة تشكيله – ذهنياً لا سياقياً – لينسجم مع القاعدة المطّردة . ويصبح هذا المطلب مُلحّاً حين يرد هذا المثال في سياقات أخرى

١ محمد : ٤

٢ غافر : ٧٧

منسجما مع القاعدة العامة المطّردة ، حينئذٍ يمكن للدارس – دون تحرُّج – أن يُعلن عن وجود ظاهرة عدوليّة في النصّ وأن يقدّم رؤية تحليلية لهـذه الظـاهرة وأن يُعيد تشكيل النموذج المعدول على وفق القاعدة المطّردة .

وإذا كان النحاة يؤكِّدون أنّ جوابَ (لمّا) الظرفيَّة أو الحرفيَّة ماضٍ مُطلقـاً [1] . فإنّ هذا الحكم هو قاعدة مطَّردة أو قانون مطَّرِد يسوِّغ للدّارس عدَّ مجيء جواب لمَّا مضارعاً كما في قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [2] ، أو جملةً اسميةً كما في قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا نَجَّـاهُمْ إِلَـى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [3] ظاهرةً عدوليّةً ، ويمنحه الحقَّ في تقديمَ رؤيةٍ تصوريةٍ لبنيةٍ عميقة تُعيدُ تجنيس صيغة المضارع والجملـة الاسميَّة وصهرهما في بوتقة صيغة الماضي استجابة لقانون الاطّراد .

٧- قانون المعادَلَة / أمْ المعادِلةَ :

توظّف (أمْ) المعادِلة – سياقيّاً - في بنيةٍ اسـتفهاميّةٍ يُطلـب بهـا تعيـين أحـد العنصرين المستفهم عنهما ، كقولهم : أنجح محمّد في الامتحان أم رسب ؟ وسُمّيتْ (أمْ) معادِلةً لمعادَلَتِها الهمزةَ الواقعة في صدر الجملة في معنى الاستفهام [4] . وفي مثل هذه البنية الاستفهاميّة يُلاحظ دخول الهمزة على المُستفهم عنه الأوّل ودخول (أمْ) على المستفهم عنه الثاني . ويُصبح الحضور السياقيّ للعنصرين المُستفهَم عنهما في بنية الاستفهام ضرورةً حتميةً ، ولا يمكن – بحالٍ- الاستغناء بأحـدهما عن الآخر ؛ لذلك تُسمّى (أمْ) هذه – أيضاً- متّصلةً " لأنّ ما قبلها وما بعدها لا يُستغنى بأحدهما عن الآخر " [5].

وإذا كانت (أمْ) هي المُعادِل الدّلاليّ للهمزة (دلالة الاسـتفهام) ، فـإنّ المُستفهَم عنه الثاني (الواقع بعد أمْ) هو المعادِل المُكافئ للمستفهَم عنـه الأوّل (

---

[1] يُنظر : همع الهوامع : ١٦٢ ، ١٦٣ .
[2] هود : ٧٤ .
[3] لقمان : ٣٢ .
[4] مغني اللبيب : ١ / ٥١.
[5] نفسه : ١ / ٥١ .

الواقع بعد الهمزة) على عِدَّة مستويات : فهو يكافئه على مستوى حتميّة الحضور السياقيّ في بنية الاستفهام ، وعلى مستوى مطلوبيّة التعيين (كلاهما مطلوب تعيين أحدهما في بنية الاستفهام) وقد يتكافآن على مستوى الإعراب نحو : أمحمَدٌ حضر أمْ عليٌّ (كلاهما مبتدأ) .

إنّ تكافؤ العنصرين المستفهم عنهما في هذه البنية الاستفهاميّة على هذه المستويات يقتضي تكافؤهما على مستوى الصيغة تحقيقاً لجمالية التكافؤ الكلّيّ بينهما . وتحفل بنية الخطاب القرآني بسياقات وافرة حقَّقت جمالية التماثل الصيغي بين المتعادلين ، منها قوله تعالى : ﴿**أَيُمْسِكُهُ** عَلَى هُونٍ أَمْ **يَدُسُّهُ** فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿**أَفَأَمِنتُمْ** أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً . أَمْ **أَمِنْتُمْ** أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى ... الآيَة﴾[2] ، وقوله تعالى : ﴿**أَطَّلَعَ** الْغَيْبَ أَمِ **اتَّخَذَ** عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾[3]، وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ أَدْرِي **أَقَرِيبٌ** أَمْ **بَعِيدٌ** مَا تُوعَدُونَ﴾[4] ، وقوله تعالى : ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي **أَأَشْكُرُ** أَمْ **أَكْفُرُ** ... الآية﴾[5] ، وقوله تعالى : ﴿**أَتَّخَذْنَاهُمْ** سِخْرِيّاً أَمْ **زَاغَتْ** عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾[6]... إلخ .

إنّ هذا المنحى الأسلوبي القرآني في تجنيس المتعادلين ، يمنحنا صلاحية تصوُّر صيغة المعادِل المغايرة لصيغة المعادَل وإعادةِ تجنيسِها معها في البنية العميقة ، ففي مثل قوله تعالى : ﴿قُلْ **أَتَّخَذْتُمْ** عِندَ اللّهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ **تَقُولُونَ** عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[7] ، نتصور البنية العميقة للآية على الهيئة الآتية : **أَتَّخَذْتُمْ** عِندَ اللّهِ عَهْداً... أَمْ **قُلْتُمْ** عَلَى اللّهِ ، وفي مثل قوله تعالى : ﴿أَأَنْتُمْ **تَخْلُقُونَهُ** أَمْ نَحْنُ

---

[1] النحل : ٥٩ .
[2] الإسراء : ٦٨ ، ٦٩ .
[3] مريم : ٧٨ .
[4] الأنبياء : ١٠٩.
[5] النمل : ٤٠ .
[6] ص : ٦٣ .
[7] البقرة : ٨٠ .

الْخَالِقُونَ﴾[1] ، نحدس البنية العميقة للآية على النحو الآتي : أَأَنْتُمْ **تَخْلُقُونَهُ** أَمْ نَحْنُ **نَخْلُقُهُ** .

[1] الواقعة : ٥٩.

جماليات العدول

تُعدُّ ظاهرة العدول إحدى الظواهر الأسلوبية التي تتميز بكفاية عاليـــة فـــي القيام بوظائف مختلفة في بنية الخطاب اللغوي على مستويات شتى ومـــن زوايـــا نظر متعددة . وإذا كانت عملية الاتصال اللغوي لا تتشكل إلا بوجود ثلاثة أقطاب رئيسية هي : المبدع ، النص ، المتلقي ، فإنّ ظاهرة العـــدول تـــؤدي وظـــائف استثنائية بالقياس إلى كل قطب من هذه الأقطاب الثلاثة ؛ ونعُـــدُّ دراســـةَ فاعليـــةِ العدولِ ووظيفتِه الجمالية من زوايا المبدع والنص والمتلقّي طريقةً علميةً منهجيـــةً لمحاولة استيعاب أبعاد الظاهرة وتقديم رؤية وصفية منظمة لكفايتها الفنيـــــــــّة وقيمها الجمالية .

من زاوية المبدع تبرز - ابتداءً- الوظيفة الجمالية لظاهرة العدول ، فالمبدع يسعى – ولو بطريقة غير معلنة – إلى إبراز قدراته الفنية ومواهبه التعبيرية فـــي كل إجراء أسلوبي يتخذه في نصه الإبداعي . وإذا كان الأسلوب العدولي يمثـــل خرقاً للنسق المألوف وكسراً لأفق التوقع لدى المتلقي ، الأمر الذي يجعله حـــافلاً بعناصر التشويق والإثارة ، فإن هذا الأسلوب يصبح مجالاً خصباً لـــدى المبـــدع لعرض طاقاته التعبيرية وقدراته الفنية . فـــ " الأِسلوب العدولي مورد من موارد التأنق في الأسلوب وَرَدَهُ من شاء من القدماء ، ويَرِدُهُ من يشاء في يومنا هذا " [1]. وعلى ذلك يصبح العدول مؤشراً واضحاً " إلى الحضور الواضح للمبـــدع الـــذي يتطلع إلى إيصال رسالته إلى المتلقي بكل ما فيها من قيم جمالية " [2].

وإذا كانت النفس الإنسانية عالماً واسعاً من الاضطرابات النفسية والتناقضات العاطفية والمفارقات الوجدانية ، فإن ظاهرة العدول تصبح في بعـــض الســـياقات مرآة عاكسة لكل هذه الاضطرابات والمفارقات على صفحة العمـــل الإبـــداعي . ومن هُنا تتجلّى الوظيفةُ النفسيّةُ لهذه الظاهرة وهي التصوير اللغـــوي لتناقضـــات النفس الإنسانية ؛ ذلك أن البنية اللغوية لظاهرة العدول هي تركيب لغوي من دوالّ

---

١ البيان في روائع القرآن : ٢/ ٧٧.

٢ تحوّلات البنية في البلاغة العربية : ٢٩٣ .

متناقضة على إحدى المستويات اللغوية (المستوى الصوتي ، المستوى الصرفي ، المستوى الإعرابي ، المستوى الدلالي) .

ويشير باحث معاصر إلى هذه الوظيفة النفسية لظاهرة العدول فيقول : " قد يمثل الالتفات نازعاً نفسياً يوحي بتضارب الأشياء والأحداث وتداخلها في العقل الباطن للمبدع ، ويكون الالتفات هو التمثيل اللغوي لهذا النزوع النفسي " [١].

وفي بعض السياقات يصبح العدول مؤشراً أسلوبياً إلى وجود نزعة تمرُّدية في نفس المبدع ضدَّ ما يُهيمن في الواقع الخارجيّ من قيم وقوانين ومسلمات وبديهيات تتناقض مع قناعات المبدع وتصوراته . ولسبب أو لآخر يعجز المبدع عن التعبير عن تمرّده صراحةً ، فيصبح العمل الإبداعي متنفساً لتفريغ شحنات التمرد والرفض ويُصبح العدول هو الصورة اللغوية لهذا التمرد . بل إنّ العدول في مفهومه العام هو تمرّد على القاعدة اللغوية .

وقد حازت الدراسات البلاغية التراثية قصب السبق في دراسة الوظيفة الجمالية لظاهرة العدول من زاوية المبدع (كما حازته من زاويتي النص والمتلقي أيضاً كما سيظهر لنا لاحقاً)، خاصةً من خلال الإشارة إلى قصد التنويع في الأساليب الذي يسعى من خلاله المبدع إلى إبراز قدراته التعبيرية وكفاياته الأسلوبيّة ، . والحقّ أنّ الدراساتِ الحديثةَ أولتْ هذا الجانب عنايةً كبيرةً (بما توافر لها من مناهج وآليات بحثية حديثة متطورة) من خلال ربط العمل الإبداعي بكل ما فيه من ظواهر لغوية وأسلوبية بتركيبة المبدع النفسية والجسمانية وبيئته الاجتماعية والفكرية .

وتتعدّد الوظائفُ الجماليةُ التي تحقِّقُها ظاهرةُ العدول في بنية النص اللغويِّ إذ تُسهم بدور فعّال في تشكيل الوظيفة الشعرية والجمالية للعمل الإبداعي . هذه الوظيفة التي لا تتحقق من خلال بناء الأسلوب بناءً منطقياً نمطياً . بل من خلال المفارقة والإدهاش الناجمين عن الانحراف الأسلوبي وكسر النمطية وخلخلة التشكيل المنطقي لبنية النص اللغوي .

---

١ تحولات البنية في البلاغة العربية : ٢٩٣.

إن بناء الأسلوب بناءً منطقيّاً يُكسبه سمة الألفة والرتابة ويفقده ــــــ في الوقت ذاته ــــ جاذبية الجدَّة والطرافة . وفي هذا السياق تبرز فاعلية العدول ووظيفته الجمالية من خلال " توتير اللغة لبعث الحياة والجدة والرشاقة والجمال والعمق والإيثار والاختصاص وما إلى هذه المعاني التي تراد من تحريف استعمال أسلوبي عن موضعه " [1].

وفي حقل الدراسات اللغوية ندرك أنّ لكل نص لغوي غرضاً عاماً يسعى المنشئ إلى تحقيقه ، سواءٌ أكان هذا الغرض نفعياً أم كان جمالياً بحتاً . وظاهرة العدول واحدة من ظواهر فنية عدة يُوظِّفُها المنشئ في سبيل خدمة هذا الغرض . أي إنّ كُلَّ ظاهرةٍ أسلوبيّةٍ في بنية النص اللغوي تساهم بدور إيجابي فاعلٍ في تحقيق الغرض العام للنص اللغوي . فتكون إحدى الوظائف الجمالية الأساسية لتقنية العدول/ الانحراف " لزوم الإنحراف لتحقيق الأثر الكلي للنص " [2].

وعلى مستوى الدلالة تبرز فاعلية العدول " في مدّ السياق بدلالات متنوعة بما تحويه بنية الخطاب من أنساق متغايرة لصورة موحدة المقصد ، كما تعد مجالاً لغوياً ينفتح عن معانٍ ذات دلالات خصبة تلوِّن صور الخطاب "[3].

وفي حيّز الصيغ اللغوية تكشف ظاهرة العدول عن الطاقات التعبيرية والقيم الجمالية والدلالية التي تكتنزها الصيغ اللغوية حين تستجيب للتشكيل الفني الذي يكسر بها ومن خلالها قواعد التشكيل المنطقي النمطي للغة ، ويخرج بها عن حدود المألوف .

وقديماً أكَّد ابن الأثير على الوظيفة الجمالية للعدول الصيغي بقوله :" واعلم أيها المتوشِّح لعلم البيان أن العدول عن **صيغة** من الألفاظ إلى **صيغة** أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك " [4] .

---

١ ينظر : شعرية القصيدة قصيدة القراءة : ١٣٠.

٢ الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم : ١٤٤.

٣ الالتفات في القرآن الكريم دراسة أسلوبية : ٢.

٤ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ٢ /١٨٠.

ويحاول ابن الأثير تتبع الغرض الجمالي للعدول الصيغي في بعض صوره ، فعَن الغرض من العدول عن المستقبل / المضارع إلى الأمر يقول ابن الأثير : " وإنما يقصد إليه **تعظيما لحال من أُجري عليه الفعل المستقبل ، وتفخيماً لأمـره،** وبالضدّ من ذلك فيمن أجري عليه فعل الأمر " [1]. ويمثل لهذه الصـورة العدوليـة بقوله تعالى : ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [2] .فيرى أنه " إنما قال (أشهد الله واشهدوا) ولم يقل : (وأشهدكم) ليكون موازناً له وبمعناه ؛ لأن إشهاده الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت وأما إشهادهم فما هو إلا تهـاون بهم ودلالةٌ على قلة المبالاة بأمرهم ؛ ولذلك عدل به عن لفظ الأول لاختلاف مـا بينهما ، وجيء به على لفظ الأمر ، كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه : اشهد عليّ أني أحبك ؛ تهكماً به واستهانةً بحاله "[3].

ويقول عن الغرض من العدول عن الماضي إلى الأمر : "إنما يفعـل ذلـك **توكيداً لما أجري عليه فعل الأمر لمكان العناية بتحقيقه**"[4]. ويستشهد علـى ذلـك بقوله تعالى : ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[5]. فالعـدول عن الماضي(أمر) إلى الأمر (وأقيموا) إنما كان للعناية بتوكيده في نفوسهم ؛ فـإنّ الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده ، ثم أتبعها بالإخلاص الذي هـو عمـل القلب؛إذ عمل الجوارح لا يصح إلا بإخلاص النية"[6].

و**التخفيف** أحد الأغراض الجمالية التي تحققهـا تقنيـة العـدول ، يقـول الخضري :"وفائدته _ أي العدول – إما تخفيف اللفظ باختصاره كما فـي مثنـى وأخر ، أو تخفيفه مع تمحُّضه للعلمية كما في عُمَر وزُفَر عن عامر وزافر"[7].

---

١ السابق : ٢ / ١٧٩.

٢ هود : ٥٤ .

٣ المثل السائر : ٢ / ١٧٩ ، ١٨٠.

٤ نفسه : ٢ / ١٨٠.

٥ الأعراف : ٢٩ .

٦ المثل السائر : ٢ /١٨٠.

٧ حاشية الخضري : ٩٩/٢ وما بعدها ، وينظر أيضاً : العدول في اللغة العربية : ٦.

ولعلّ أكثر عناية الدارسين بجماليات العدول كانت من زاوية **المتلقي** . ومن الإشارات التراثية الرائدة في هذا السياق قول الزمخشري : "إن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطريةً لنشاط **السامع** وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد . وقد تختص مواقعه بفوائد"[١]. ويقول عن العدول فـــي موضع آخر إنه : " فنّ من الكلام جزلٌ فيه هزٌّ وتحريكٌ من **السامع** ، ... وهكذا الافتنان في الحديث والخروج فيــه مــن صــنف إلــى صــنف يســتفتح الآذان للاســـــــــــــــتماع ، ويستهش الأنفس للقبول " [٢].

ومصطلح (السامع) مصطلح تراثي يناظره في الــدرس اللغــوي الحــديث مصطلح (المتلقي) . والزمخشري في نصّيه السابقين يؤكِّد وظيفةً أساســيّةً مــن وظائف العدول هي وظيفة **تجديد نشاط السامع وإزالة السأم عنه** . وهذه الوظيفة على شهرتها وتواترها في الدرسين التراثي والحديث نقف مع القائلين بها موقف المخالف وخلافنا معهم جوهري وشكلي في آن واحد . أما الخــلاف الجــوهري فيتّسع حين تصبح هذه الوظيفة من مبرِّرات تقنية العدول في النص القرآني ؛ ذلك أن هذا التبرير يقتضي أن النص القرآني مجرداً من هذه التقنية هو مدعاة للســأم والملل أشعر بذلك أصحاب هذا الرأي أم لم يشعروا .

وأمّا الخلاف الشكليّ فيبرز عند إسقاط هذا المبرر على أي نــصّ لغــويّ إبداعيّ آخر غير النصّ القرآنيّ . وإنما كان الخلاف في هذه الحالة شــكلياً غيــر جوهريّ ؛ لأن النصّ بشريّ غير مقدّس والمجال مع الــنصّ البشــري يتّســع للخلاف وتباين الآراء .

ويرفض ابن الأثير هذا التقويم الفني للوظيفة الجمالية لتقنية العدول ، ويعلِّل هذا الرفض بقوله : " لأن الانتقال في الكلام من أسلوب إلى أسلوب إذا لم يكن إلا تطرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه ، فإن ذلك دليل على أن السامع يمــلُّ من أسلوب واحد فينتقل إلى غيره ليجد نشاطاً للاستماع ، وهذا قدحٌ في الكــلام لا

---

١ الكشاف : ١/ ١٤ .

٢ السابق : ١/٨٨ ، ٨٩ .

وصفٌ له ؛ لأنه لو كان حسناً لما مُلَّ ..."[1]. ثم يشير إلى أنَّ هـذا التقـويم ــ إن صحَّ ــ إنما يصح على نماذج العدول ذات السياقات الطويلة والحاصل أن نماذج العدول تتكرر في القرآن الكريم في سياقات قصيرة .[2]

والذي يظهر للباحث أن كلام الزمخشري ليس خطأً محضاً ولـيس صـواباً محضاً ، فهو قد يصح على نماذج العدول ذات السياقات الطويلة باستثناء السـياق القرآني في حين تظلُّ بنماذج العدول في السياقات القصيرة حاجةٌ للكشـف عـن مبرِّرات أخرى لها . وفي نصِّ الزمخشري السابق إشارة عامة إلى هذه المبررات في قوله :" وقد تختص مواقعه بفوائد ".

ومن جماليّات العدول أنه يُسهم بدور فعّال وإيجـابيّ فـي تمتـين أسـباب التواصل بين المتلقّي والنصّ الأدبيّ ؛ لأنه " يلفت الانتباه بقوة ويُسهم في التركيز الشديد على البنية اللغوية ذاتها بسبب عدوله عن المألوف "[3].

فالعدول بهذا المعنى يُعدُّ منبّهاً أسلوبياً لكسر أفق التوقع لدى المتلقِّي . ففـي الوقت الذي يكون فيه المتلقِّي انسجم ذهنيا ونفسياً مع أسـلوب معـيّن أو نسـق تعبيريّ ما بحيث يكون مهيأً لحدس مُجريات الأحداث وبناء نتائج متوقَّعة من وحي المقدمات التعبيرية ، إذا بالمبدع من خلال الانحراف بالأسلوب التعبيريّ المألوف إلى أسلوب تعبيريّ مغاير يفاجئ المتلقي بما لا يتوقّعه ويثير لديه تساؤلات شـتى عن دلالة هذا الانحراف . فيكون المبدع من خلال هذا النمط التعبيريّ الإبـداعيّ هيأ الأسباب لاستثارة كوامن الإبداع لدى المتلقّي الذي سـيدفعه مقـام الدهشـة والانبهار إلى سبر أغوار هذه الظاهرة الفنية الفذّة بحثا عن الطاقات الدلالية والقيم الجمالية القارّة فيها .

وفي إطار الحديث عن جماليّات العدول من زاوية المتلقّـي يحـدِّد بعـض الباحثين[1] نمطين من المتلقِّين هما :

---

١ المثل السائر : ٢ /١٧٩.

٢ ينظر: المصدر السابق : ٢ /١٦٩.

٣ تحولات البنية في البلاغة العربية : ٥٦ .

١) المتلقّي داخل النص[1] :

ويقصد به المخاطَب الذي يوجه إليه الخطاب في بنية النص والذي يتمثــل في بنية النص القرآني بالنبي والذين آمنوا والذين كفروا والناس ... إلخ ، ومــن جماليات العدول في بنية الخطاب الموجه إلى هذا النمط من المتلقــين : التفخــيم والتعظيم ، أو التوبيخ والتقريع ، أو الإهانة والتحقير .

٢) المتلقِّي خارج النص[2]:

ويُقصد به القارئ (أو السامع بحسب التراث البلاغي) ، وتبــرز جماليــة العدول مع هذا النمط من المتلقِّين في "قياس ضغوط الدّلالة الموجّهــة إليــه عــن طريق إدهاشه وإثارته بالمفاجآت الصياغيّة التي تُخالف توقّعه الأسلوبيَّ المعتــاد وبذلك يتم تنبيهه وجذبه إلى فضاء النص لتكتمل الدائرة الدلالية من خلال حضوره في دائرة الاتصال " [3].

إن إثارة المتلقي وإدهاشَه وكسر َأفق التوقع لديه من خلال الأسلوب العدوليّ قضية تعتمد على نوع المتلقي ، فــ " المتلقّي لا يتنبّه دائماً إلى ما في الخطاب من انحراف عن النَّسق المألوف " [4] . ومن ثم لا تتحقَّــقُ هــذه الوظيفــةُ الجماليــةُ للأسلوب العدولي إلا مع نمط خاص من المتلقين هو المتلقي المثالي " الذي يُحسن تلقِّي النصّ ويتفاعل معه ويدرك أنماط العدول في بنيته ومراميه " [5].

وفي التراث البلاغي إشارة رائدة إلى هذه القضية ، يقــول الســكاكي عــن ظاهرة العدول : " وهذا النوع قد تختص مواقعه بلطائف معانٍ قلّمــا تتضــح إلا لأفراد بلغائهم أو للحذاق المهرة في هذا الفن والعلماء النحارير . ومتــى اخــتص موقعه بشيء من ذلك كساه فضل بهاء ورونق وأورث السامع زيادة هزة ونشــاط

---

١ هو الدكتور أسامة البحيري ، في كتابه : تحولات البنية في البلاغة العربية ، ٣٥٦، ٣٥٧.

٢ هذه التسمية من وضع الباحث ، ولم يذكرها د/ اسامة البحيري ، ولكنها تفهم بالمقابلة مع تسمية النمط الأولى.

٣ تحولات البنية في البلاغة العربية / ٣٥٧.

٤ الالتفات في القرآن الكريم دراسة أسلوبية : ٢٩.

٥ تحولات البنية في البلاغة العربية : ٣٥٧

ووجد عنـــده من القبــــول أرفع منزلةٍ ومحل إن كان ممن يسمع ويعقــل وقليلٌ ما هم "[1].

وفي النصّ القرآني تنهض تقنية العدول بكلِّ الوظائف الجماليّة الســابقة ، إذْ شكَّلت هذه التقنية على مستوى الأسلوب القرآنيّ المتفوق " منعرجــات أســلوبية أضفت على بنية الخطاب دلالات قريبةَ التناول ، بعيدةَ التأويل . وبما يتفيَّــأ فــي سياقه من رؤىً تضيء السياق وتجعله أكثر قرباً وارتباطاً بما قبله ومــا بعــده ؛ ليمتدّ في حيز معنوي ذي أبعاد هادفة "[2].

---

١ مفتاح العلوم : ١١٣.

٢ الالتفات في القرآن الكريم دراسة أسلوبية : ٢.

الفصل الثاني

الصيغة ــ المشتقات

الصيغة

خضع مصطلح الصيغة كغيره من المصطلحات اللغوية لعملية التقنين ووضع الضوابط والقيود من قبل علماء اللغة . يقول صاحب اللسان: " فأما قول الراجز أنشده سيبويه :

لَقَدْ خَشِيْتُ أَنْ أَرَىْ جَدَبَّا   في عَامِنَا ذَا بَعْدَمَا أَخْصَبَّا[1]

فإنه أراد جَدْبا ، فحرّك الدال بحركة الباء وحذف الألف على حدّ قولك : رأيت زيد في الوقف ...ويروى أيضاً جدْبباً ؛ وذلك لأنه أراد تثقيل الباء والدال قبلها ساكنة فلم يمكنه ذلك وكره أيضاً تحريك الدال ؛ لأن في ذلك انتقاص الصيغة فأقرّها على سكونها وزاد بعد الباء باءً أخرى مضعّفة لإقامة الوزن ..."[2].

ويقول الفيومي : " صاغ الرجل الذهب يصوغه صوغاً : جعله حلياً فهو صائغ وهي الصياغة ... وهذا صوغ هذا إذا كان على قدره ، وصيغة القول كذا : أي مثاله وصورته " [3].

ويورد الزبيدي ما نصه : " وصاغ الشيء يصوغه صوغاً : هيأه على مثال مستقيم وسبكه عليه فانصاغ ... ويقال صيغة الأمر كذا وكذا بالكسر أي : هيئته التي بني عليها " [4].

ويستنبط أحد الباحثين المعاصرين من الدلالة اللغوية لمصطلح الصيغة ضوابط أربعة تحدد ماهية هذا المصطلح هي :

١- أن يكون لها هيئة حاصلة من ترتيب حروفها وحركاتها .

٢- أن تكون هذه الهيئة مثالاً يحتذى ويصاغ على منواله .

٣- أن يكون لهذه الصيغة أصل اشتقاقي صيغت منه .

---

[1] البيت لرؤبة بن العجّاج ، يُنظر : الكتاب لسيبويه : ١٧٠/٤.

٢ لسان العرب : مادة (جدب) ، ٢ /١٩٤ ، ١٩٥.

٣ المصباح المنير : ٢١١.

٤ تاج العروس : مادة (صوغ) ، ١٢ / ٤٥ ، ٤٦ .

٤- أن يكون لهذه الصيغة معنى وظيفي .[١]

أما الضابط الأول فيشير إليه قول الزبيدي : " ويقال صيغة الأمر كذا وكـــذا (بالكسر) أي : **هيئته التي بني عليها** . وقول الفيومي : " وصيغة القول كذا : **أي مثاله وصورته** ".وقـــــول ابن منظور :" وكره أيضاً **تحريك الدال ؛ لأنّ في ذلك انتقاض الصيغة** ".

وأمَّا الضابطُ الثاني فيدلّ عليه قول الزبيدي : " وصـــاغ الشـــيء يصـــوغه صوغاً: **هيّأه على مثال مستقيم وسبكه عليه فانصاغ** " وقول الفيومي : " **وهــذا صوغ هذا إذا كان على قدره** " .

أمّا الضابط الثالث فليس بمنضبط كما سيأتي معنا وليس عليه دليل من كتب اللغة .

وأما الضابط الرابع فهو أشهر من أن يُستشهد عليه ، وفي كتــب الصـــرف الكثير من التفصيلات عن دلالات كلِّ صيغة صرفية .

ونريدُ أنْ نقفَ مع هذه الضوابط وقفة متأنية لمناقشتها فنقول :

إن الضابطين الأول والرابع ليسا من الضوابط المائزة لمصطلح الصيغة ؛ ذلك أنهما ليسا خاصين بمصطلح الصيغة إذ إن كل بنية لغوية – صيغةً كانت أو غيرً صيغة- لها هيئة خاصة ناتجة عن ترتيب حروفها وحركاتها ولها في الوقت ذاته معنى وظيفي تؤديه . فالضمير (أنت) – وإن لم يكن صيغة كما سيظهر لنـــا لاحقاً – فإن له هيئةً حاصلةً من ترتيب حروفه الهمزة والنون والتاء ومن ترتيـــب حركاته الفتحة فالسكون فالفتحة . كما أنّ له معنىً وظيفياً يؤديه فـــي أي ســـياق لغوي ، وهو الدلالة على المخاطب المفرد المذكر . وكالضمائر أسماءُ الإشـــارة وحروف الجر مثلاً ، إذ ينطبق عليها الضابطان السابقان رغم أنها ليست صيغاً .

أمّا ما تتماز به الصيغة من الضوابط السابقة فهو الضابط الثاني فحســب ، فمن ضرورات الصيغة كونها أنموذجاً أو قالباً لغوياً يصاغ عليه وينســج علـــى

---

١ ينظر : الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم : ١٩.

منواله . فاسم الفاعل من الثلاثي (فاعل) وهذه البنية اللغوية نعدها صيغة ؛ لأنهــا تمثل قالباً لغوياً نصب فيه كل مادة لغوية ثلاثية لصياغة اسم الفاعل منها . ومــن هنا جاء تعريف الصيغة الصرفية بأنها : " القالب الذي تصــاغ الكلمــات علــى قياسه"[1] . ويقول عنها صلاح روّاي :" الصيغ الصرفية قوالب استنبطها الصرفيون ليصبُّوا فيها المادة اللغوية التي يعبرون بها عما يجول في أفكــارهم مــن معــانٍ محدودة"[2] .

وأمّا الضابط الثالث فهو غير منضبط وغير دقيق كما أشرنا سابقاً ؛ ذلك لأنّ الصيغة قالب جامــــــــد ٌ تصبُّ فيه المادّة اللغوية وليس لها أصلٌ اشتقاقي كما زعم هنداوي ، وإنّما الأصل الاشتقاقي للمادة المصبوبة في الصيغة وليس للصيغة ذاتها .

فالصيغة ـــ في ضوء هذا الضابط ـــ تتّسع لتستوعب كلماتٍ مثل : عالم (اسم فاعل) ومعلوم (اسم مفعول) وعلاّم (صيغة مبالغة) ... إلخ ؛ لأنها كلمــاتٌ ذات أصل اشتقاقي هو المصدر (عِلْم) عند البصريين ، والفعل الماضي (عَلِمَ) عند الكوفيين ، وهو الأصول الثلاثة من مادة العلم مجردةً من الحركات والسكنات عند المعجميين وبعض علماء اللغة المحدثين [3]. وهو ما تأخذ به هــذه الدراســة كمــا سيتقرر في مبحث (المشتقات) لاحقاً .

"أمّا ما لا يرجع إلى أصول اشتقاقيّة من مباني التقسيم وهو الضمير وأكثر الخوالف والظرف والأداة فمبانيها هي صورها المجردة إذ لا صيغ لها"[4]. ويقصر أحد الباحثين الصيغ على قسمين هما :" الأسماء المعربة والأفعال دون غيرها من

---

١ دور الصرف في منهجي النحو والمعجم : ٣٢٠.

٢ الصيغة الصرفية ودلالتها على المستويين الصرفي والنحوي : ٢٠.

٣ من هؤلاء اللغويين : عبد الله درويش في كتابه (دراسات في علم الصرف : ٤٠) وتمام حسان في كتابه (اللغة العربية معناها ومبناها : ١٦٨ ، ١٦٩

٤ اللغة العربية معناها ومبناها : ١٣٣

الأقسام "[1]. ويضيف تمام حسّان قسماً ثالثاً هو الصفة[2]. وفـــي رأي الباحـــث أن الصفة تدخل على العموم في قسم الأسماء .

وفي الدّرس الصرفي يكثر الخلط بين مصطلحي الصيغة الصرفية والميزان الصرفي ، بحيث يتناوبان فيحلّ أحدهما محلّ الآخر في المقاربـــات الصـــرفية . ويفرِّق تمّام حسّان بين الصيغة الصرفية والميزان الصرفيِّ فيؤكد أنّ الصيغة تمثِّل المبنى الصرفي الذي ينتمي إليه المثال وأن الميزان يمثل الصورة الصوتية النهائية التي يؤول إليها المثال . ومعنى ذلك أنَّ الصيغةَ والميزانَ قد يتَّفقـــان : فالفعـــل : (ضرب) صيغته (فَعَلَ) وميزانه الصرفي (فَعَلَ) أيضاً ، وقد يختلفان ففعل الأمـــر (ق) صيغته (افْعِل) وميزانه (عِ) . ثم يقترح أن يراعى الإعلال والإبـــدال فـــي التفريق بين الصيغة والميزان كما روعي الحذف والنقل في التفريق بينهما فيرى أن نحو : (استخار) صيغته (استفعل) ووزنه (استفال) ، وأنّ نحو : (أقام) صيغته (أفعل) ووزنه (أفال) [3].

وخلاصة ما سبق أن مصطلحي الصيغة والميزان الصرفي من حيث الشكل مصطلحان متغايران وأنهما لا يتطابقان / يترادفان شكلاً إلا حين تسلم بنية الكلمة على مستوى الميزان الصرفي – من تأثيرات الحذف والنقل والإعلال والإبدال .

---

١ الصيغة الصرفية ودلالتها على المستويين الصرفي والنحوي : ٢٠

٢ اللغة العربية معناها ومبناها : ١٣٦ .

٣ اللغة العربية معناها ومبناها : ١٤٤ ، ١٤٥ .

المشتقات

يُعدُّ الاشتقاق إحدى الوسائل اللغوية التي تساهم بدور فاعل وإيجابي في إثراء اللغة ورفدها بالكثير والجديد من المفردات التي تلبي احتياجات المتكلمين وتسعفهم في التعبير عما يجول في خواطرهم وما يستجد في واقعهم العملي من أحداث وأشياء تقف اللغة – لولا هذه الوسيلة اللغوية- إزاءها عاجزةً عن استيعابها والتعبير عنها .

*** تعريف الاشتقاق اللغوي :**

يعرف العكبريّ الاشتقاق بقوله : " أما حدُّ الاشتقاق فأقرب عبارةً فيه ما ذكره الرماني وهو قوله : الاشتقاق اقتطاع فرعٍ من أصلٍ يدور في تصاريفه على الأصل"[١].

ويورد السيوطيّ هذا التعريف : " هو أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنىً ومادةً أصليةً وهيئة تركيب ؛ ليدل بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة لأجلها اختلفا حروفاً أو هيئة كضارب من ضرب ، وحَذِر من حَذِرَ "[٢] .

ويعرفه أحد الباحثين المعاصرين بأنه: " استحداث كلمة أخذاً من كلمة أخرى للتعبير بها عن معنىً جديد يناسب المعنى الحرفي للكلمة المأخوذة منها . أو عن معنىً قالبي جديد للمعنى الحرفي ، مع التماثل بين الكلمتين في أحرفها الأصلية وترتيبها فيها " [٣].

من مجموع التعريفات السابقة نستنبط المحددات الآتية لمصطلح الاشتقاق اللغوي :

---

١ مسائل خلافية في النحو : ١/ ٧٤ .

٢ المزهر : ٣٤٦/١.

٣ علم الاشتقاق نظرياً وتطبيقياً : ١٠.

١) وجود عنصرين أساسيين يشكلان بنية الاشتقاق هما : المشتق (اقتطاع فرع، أخذ صيغة، استحداث كلمة) ، والمشتق منه (من أصل ، من أخرى ، من كلمة أخرى).

٢) مطابقة المشتق للمشتق منه في المادة اللغوية (نوع الحروف ، ترتيب الحروف) وفي المعنى الأصلي .

٣) تفرد المشتق عن المشتق منه بدلالة جديدة وبمعنىً إضافي اقتضته طبيعة صيغته الاشتقاقية الجديدة .

وحتى تتحقق عملية الاشتقاق اللغوي لا بد من توافر خمسة شروط أساسية هي : " استحداث الكلمة المشتقة من مأخذها/ أصلها ، وتماثل الحروف الأصلية في الكلمتين وتماثل ترتيب مواقع تلك الحروف الأصلية في الكلمتين والتناسب بين معنييهما والاطّراد : بمعنى كونه متاحاً دائماً " [١].

ومن الإشكاليات اللغوية التي أثارها الدارسون القُدماء فيما يتعلق بقضية الاشتقاق اللغوي إشكالية : هل يقع الاشتقاق في اللغة أو لا يقع ؟ .

ويلخِّص السيوطي مذاهب العلماء في هذه المسألة فيقول : " ذهب الخليل وسيبويه وأبو عمرو وأبو الخطاب وعيسى بن عمر والأصمعي وأبو زيد وأبو عبيدة والجرميّ وقطرب والمازنيّ والمبرد والزجاج والكسائي والفراء والشيباني وابن الأعرابي وثعلب إلى أن الكلم بعضه مشتق وبعضه غير مشتق . وذهبت طائفة من متأخري أهل اللغة إلى أن الكلم كله مشتق وقد نسب هذا المذهب للزجاج . وزعم بعضهم أن سيبويه كان يرى ذلك . وزعم قوم من أهل النظر أن الكلم كله أصل وليس منه شيء اشتق من غيره . وتفريع الناس إنما هو على القول الأول "[٢] .وتؤيد هذه الدراسة المذهب الأول الذي يرى بأن الاشتقاق يقع في اللغة وأن الكلام بعضه مشتق وبعضه غير مشتق .

---

١ علم الاشتقاق نظريا وتطبيقيا : ٤١.

٢ همع الهوامع : ٣/ ٤٥٠.

مرّ بنا قريباً أن المشتقَّ والمشتقَّ منه يشكِّلان البنيةَ الأساسيةَ للاشتقاق . ويحسن بنا أن نقف مع كل عنصر من هذين العنصرين لأهميتهما في دراسة ظاهرة الاشتقاق . ونقف ابتداءً مع المشتق منه أو الأصل الذي أخذت منه جميع المشتقات .

المشتق منه / أصل المشتقات :

تُعدّ قضية تحديد الأصل اللغوي الذي أخذت منه جميع المشتقات من القضايا اللغوية الشائكة التي أثارت جدلاً واسعاً بين الدارسين القدامى والمحدثين على مستوى الدراسات الصرفية و النحوية . والخلاف حول تحديد ماهية هذا الأصل قديم ترجع جذوره الأولى إلى مرحلة مبكرة من عمر الدرس اللغوي الصرفي . وقد تمخض عن هذا الخلاف رأيان شهيران : الأول تبنته المدرسة البصرية ومفاده أن المصدر هو أصل المشتقات والآخر تبنته مدرسة الكوفة ومفاده أن الفعل الماضي هو أصل المشتقات .

وفي إشارة رائدة يؤسس سيبويه للمدرسة البصرية اتّجاهها العام في هذه القضية فيقول : " واعلم أن بعض الكلام أثقل من بعض ، فالأفعال أثقل من الأسماء ؛ **لأنّ الأسماء هي الأولى** وهي أشد تمكناً ، فمن ثمَّ لم يَلحقها تنوينٌ ولحقها الجزم والسكون ، **وإنما هي من الأسماء** ، ألا ترى أن الفعل لا بد له من الاسم وإلا لم يكن كلاماً ، والاسم قد يستغني عن الفعل ، تقول : الله إلهنا ، وعبد الله أخونا"[1].

ويرى أحد الباحثين " أنه يستشف من قوله (وإنما هي من الأسماء) وقوله : (لأنّ الأسماء هي الأولى) الدليل على أنه يرى هذا الرأي"[2].

وتحت عنوان " القول في أصل الاشتقاق ألفعل هو أو المصدر ؟ " يلخص ابن الأنباري الخلاف البصري الكوفي حول أصل المشتقات ذاكراً

---

١ الكتاب : ١/ ٢٠ ، ٢١.

٢ الصيغة الصرفية ودلالتها على المستويين الصرفي والنحوي : ٩٠.

حجج كل فريق ، ويميل إلى رأي البصريِّين في هذه المسألة ، ويتصدى للردّ على حجج الكوفيين وتفنيدها حجةً حجة [1] .

وإذا كان المذهب البصريّ- في مسألة أصل الاشتقاق- حظـي بتأييـد كثير من المناصرين في القديم والحديث ، فإنه في الوقت ذاته لم يسلم من النقد والمآخذ . ومن مظاهر اضطراب المذهب البصري في هذه المسـألة نشـوب خلاف بين علماء البصرة أنفسهم في أصل المشتقات . فـالجمهور علـى أن الفعل والوصف (المشتقات الاسميَّة) مشتقان من المصدر . وذهـب بعـض البصريين إلى أنَّ المصدرَ أصلٌ للفعل ولكنَّه ليس أصلاً للمشتقات ، بل الفعل هو أصل المشتقات [2].

ومن مظاهر هذا الاضطراب – أيضاً – أنهم جعلوا اسم الهيئة واسم المـرّة مشتقَّين من الفعل الماضي الثلاثي . كما جعلوا المصدر الصناعي مشتقاً من اللفظ نفسه بزيادة ياء مشدّدة وتاء تأنيث على هذا اللفظ[3].

ويؤيـِّـد أحمد علم الدين رأي الكوفيين في هـــذه القضية اللغويّة محتجّاً بما يأتي :

١- ما ذهب إليه بعض المستشرقين من أن أكثر كلمات اللغة ترجـع إلـى أصل ثلاثي . وهذا الأصل هو فعل ثلاثي يضاف إلى أوله أو إلى آخره حرف أو أكثر ، فتنتج عن هذه الإضـافة صور متعددة للكلمة الواحدة تـدل علـى معـانٍ مختلفة .

٢- أن العقلية الفعلية هي السائدة على اللغات السامية . فالفعل في اللغـات السامية هو كل شيء – على حد تعبير ولفنسون – أما القول بأن المصـدر هـو الأصل فقد تسرب إلى الفكر اللغوي العربي عن طريق الفرس الآريين . فالمصدر

---

[1] يُنظر الإنصاف في مسائل الخلاف : ١/ ٢٣٥ – ٢٣٩.

٢ ينظر : همع الهوامع : ٢/ ٧٢ ، ٧٣.

٣ ينظر : شذا العرف في فن الصرف : ٥٤.

في اللغات الآرية هو أصل الاشتقاق . والأخذ بهذا الرأي هو مظهر من مظـــاهر التأثر بالفكر اللغوي الفارسي الآري[١].

وفي حيِّز الرأي القائل بأن الفعل هو الأصل ، يحتـــدم الخـــلاف حـــول أي الأفعال هو الأصل . فيرى بعضهم أن اسم الفاعل هو الأصل . ويرى فريـــق آخر أن صيغة الأمر هي الأصل . ويرى فريق ثالث أن المضارع هو الأصـــل . ويذهب د/ إبراهيم السامرائي إلى أن الفعل إنما تطور عن بعض صور اسم الفعل ، ويرى غيره أن الفعل إنما تطور عن كلمات كانت دالَّـــــــــــــةً على الاســـم والفعل معاً ، ثم خلصت للدلالة على الفعل بإضافة فكرة الزمن [٢].

ويرفض د/ تمّام حسّان رأي البصريين والكوفيين على حد سواء في مســـألة أصل الاشتقاق فيقول : " والواقع أنّ الصعوبات تقوم – فعلاً – دون الاقتناع برأي البصريين والكوفيين على حدٍّ سواء . فأما البصريون فأنا أســـألهم عـــن (كـــان) الناقصة- وهي عندهم فعل- ألها مصدر أم لا مصدر لها . إن مذهبهم يقـــول :إنّ كان الناقصة لا مصدر لها ومع ذلك يعتبرونها مشتقةً فما أصل اشتقاقها ؟ وأمـــا الرد على الكوفيين فإن (يدع ، يذر) في رأيهم لا ماضي لهما وهما مشتقان علـــى رغم ذلك فما أصل اشتقاقهما إذاً "[٣].

ويرى عبد الله أمين أن جميع المشتقات بما فيها المصدر مأخوذة من الفعـــل بعد اشتقاقه من أصل المشتقات ، وأصل المشتقات الذي اشتُقَّ منه الفعـــل عنـــده نوعان : أسماء المعاني[٤] ، وأسماء الأعيان[٥] ولن نقف عند هذا الرأي طـــويلاً لأنَّ محصلته النهائية كوفيّة التوجّه فالفعل هو أصل المشتقات (وهي موضوع بحثنا)

١ ينظر : دراسات في النظم الصوتي الصرفي : ٣٦، ٣٧.

٢ السابق : ٣٧.

٣ اللغة العربية معناها ومبناها : ١٦٧.

٤ ويقصد بأسماء المعاني أسماء العدد وأسماء الأزمنة ، ينظر : الاشتقاق : ١٥- ٢٢ .

٥ المقصود بأسماء الأعيان أسماء الأمكنة والأقارب والقبائل ، يُنظر المصدر السابق : ٢٣- ٣٢ ، وأعضاء الجسم ، يُنظر : السابق : ٣٣- ٥٢ ، وأشياء أخرى كثيرة كلها مصادر حسية ، يُنظر السابق : ٥٣- ١٥٥.

وإن حاول عبد الله أمين تلافي الاضطراب في المنهج الكوفي بإدخـــال المصـــدر ضمن المشتقات .

وإلى جانب الاتجاهين الرئيسين البصري والكوفي في قضية أصل الاشتقاق يقوم اتجاه ثالث مهّد له المعجميون العرب عملياً وبلوره بعض اللغويين المحـــدثين نظرياً . ويذهب هذا الاتجاه إلى أن أصل الاشتقاق غير مستعمل في اللغة ، بل هو شيء مجرد وهو عبارة عن الأحرف الثلاثة الأصول للمشـــتقات مجـــردة مـــن الحركات والسكنات ، فمثلاً المشتقات الآتية : مكتب وكاتب ومكتـــوب وانكتـــب واستكتب وكتاب وكتابة ... أصلها الاشتقاقي هو مادة الكاف والتاء والباء مجردةً من الحركات [١].

هذا الرأي ترجمه المعجميون عملياً في معجماتهم ، حيث درجوا في ترتيـــب مواد هذه المعاجم على طريقة الإتيان بالحروف الثلاثة الأصول للمـــادة اللغويـــة منفصلةً بعضَها عن بعض كنوع من الإشارة إلى أن هذا هو أصل هذه المادة ثـــم ينظمون تحته جميع الصيغ الصرفية : المصدر والفعل واسم الفاعل واسم المفعول ... إلخ .

والحروف الثلاثة الأصول عند المعجميين لا معنى لها ؛ لأنها – أولاً – ترد مفككةً غير مترابطة فلا تدل على كلمة معينة ؛ ولأنها – ثانيـــاً – مجـــردة مـــن الحركات والسكنات التي تمنحها هويتها الدلالية : فمادة (الضاد والراء والبـــاء) لا دلالة لها ، أمّا حين نصل بين حروفها ونشكلها على النحـــو الآتـــي : (ضَـــرْب) تصبح مصدراً دالاً على الحدث . وحين نشكل حروفها الثلاثـــة بحركـــة الفـــتح (ضَرَبَ) تصبح فعلاً دالاً على ا لحدث والزمنية الماضوية . وحين نضيف إليها ألفاً بعد الضاد (ضارب) تصبح وصفاً (اسم فاعل) دالّاً على الحدث ومن قام بـــه ... وهكذا .

---

١ ينظر : دراسات في علم الصرف ، لعبد الله درويش : ٤٠. وقد أخذ بهذا الرأي تمام حسان في كتابه اللغة العربية معناها ومبناها : ١٦٨، ١٦٩.

ويرى د/ تمام حسان : " أنّ المعجميين لم يروا في الأصول الثلاثة أكثر من ملخص علاقةٍ أو رحم قربى بين المفردات التي تترابط معجمياً بواسطتها ؛ ولذلك كان الإجراء المفضل عندهم في معاجمهم أن يفصلوا في الكتابة بين أصول المادة حتى لا تفهم منها كلمة ما "[1].

ويبيّن د/ تمّام وجاهة هذا المنهج المعجمي في اعتبار الأصل الاشتقاقي فيقول"...وإذا صح لنا أن نوجد رابطة بين الكلمات فينبغي لنا ألا نجعل واحدةً منها أصلاً للأخرى وإنما نعود إلى صنيع المعجميين بالربط بين الكلمات بأصول المادة فنجعل هذا الربط بالأصول الثلاثة أساس منهجنا في دراسة الاشتقاق . وبذلك نعتبر الأصول الثلاثة أصل الاشتقاق ، فالمصدر مشتق منها والفعل الماضي مشتق منها كذلك ... ويكون المصدر بهذا الفهم مشتقاً متصرفاً ؛ لأنّ صيغته تعتبر إحدى الصيغ التي تتقلب عليها أصول المادة . وكذلك يُعتبر الفعل الماضي مشتقاً متصرفاً"[2] .

وتتّخذ ظاهرة الاشتقاق طابعاً موسّعاً على مستوى التأليف اللغوي ، إذْ ترفدنا كتب اللغة بالكثير من السياقات اللغوية التي يتخذ فيها الأصل الاشتقاقي صوراً مختلفةً ، فتارةً يشتقون من أسماء العدد الجامدة " كانوا تسعة وتسعين فأمأيتهم "[3] . وتارةً من أسماء الزمان " وأخرف القوم – دخلوا في الخريف "[4]. وتارةً من أسماء الذوات : " يديته : ضربت يده " [5] . بل إنهم يشتقون أيضاً من الحروف ، كقولهم : "سألتك حاجة فلوليت لي : أي قلت لي : لولا "[6]. " ومعنى ذلك أن (الأصل)

١ اللغة العربية معناها ومبناها : ١٦٨.

٢ السابق : ١٦٩.

٣ المخصص : ١٧: ١٢٩.

٤ السابق : ١٠/ ٤٠٩.

٥ لسان العرب : مادة (يديَ) ، ٢٠ / ٣٠٣.

٦ الخصائص : ١/ ٤١٧.

في اللغة متعدد ، إذ قد اشتقت العرب من الأفعال ومن الأسماء الجامدة والمشتقة ومن الحرف " [1].

وفي إطار الخلاف حول أصل الاشتقاق تميل هذه الدراسة إلى الأخذ بمنهج المعجميين في تحديد أصل الاشتقاق بالأصول الثلاثة من الكلمة غير مرتبطة بعضها ببعض ومجردة في ذات الوقت من الحركات والسكنات . ومن مبررات هذا الميل :

١- سلامة هذا المنهج من الانتقادات التي أخذت على المنهجين الآخرين (البصري والكوفي) . فعلى شهرة هذين المنهجين وسيادتهما في قضية أصل الاشتقاق ، فإنهما قد حظيا بغير قليل من الاضطراب في عرض الحجج اللغوية والمسوغات المنطقية الداعمة في هذه القضية . ولعل فيما مر بنا قريبا من عرض لهذه المآخذ ما يؤكد هذه الحقيقة.

٢- اتّساق منهج المعجميين في عدِّ الجذر أصلا للمشتقات مع مسلَّمات التطور المنطقي لطبيعة الأشياء . فالأشياء في مراحلها الأولى تبدو مجهولة الهوية غير محددة الملامح تماما كالجنين في مرحلة ما قبل التخلق . ثم تبدأ ملامحه وقسماته بالتشكل والبروز تدريجيا .

هذا التنامي المنطقي يتّسق وفكرة الاشتقاق من الجذر الثلاثي للكلمات مجردا من الحركات والسكنات . إنَّ هذا الأصلَ في هيئته هذه مجهولُ الهُويّة غير محدد المعالم ، فالحروف مفككة غير مترابطة وفي ذات الوقت لا ملامح لها ولا قسمات فهي مجردة من الحركات والسكنات التي تعطيها ملامحها وهويتها .

هذا الوضع الضبابي للجذر الثلاثي يرشح هذه البنية ؛ لتؤدي وظيفة الأصل اللغوي الذي تشتق منه صيغ جديدة تؤدي وظائف دلالية جديدة . وكل صيغة من هذه الصيغ تتشكل من خلال إضافة بعض الحركات والسكنات

---

١ دراسات في النظم الصوتي الصرفي : ٣٨.

وبعض الحروف إلى الأصل اللغوي مّما يعطي هذه الصيغة هُويّتها الصرفية وملامحها الدلاليّة .

أنواع المشتقات :

إن المنحى الذي سلكته هذه الدراسة في اعتبار الجذر الثلاثي هو الأصل الذي اشتُقّت منه سائر المشتقات ، يقتضي – بداهةً– أن تنحو منحىً مغايرا في اعتبار أنواع المشتقات .

إن مصطلح المشتقات في العرف النحوي – البصري والكوفي على حد سواء – إذا أُطلق فإنما يراد به المشتقات الاسمية الخمسة (اسم الفاعل ، صيغ المبالغة من اسم الفاعل ، اسم المفعول ، الصفة المشبهة ، اسم التفضيل) .

والحقيقة أن حصر المشتقات في هذه الأنواع الخمسة هو مظهر من مظاهر الاضطراب المنهجي في المذهبين البصري والكوفي جميعا . فعلى المذهب البصري كان يُفترض أن تدخل الأفعال في هذه الأنواع باعتبار المصدر أصلا لها وباعتبارها مشتقة منه . وعلى المذهب الكوفي كان يفترض أن يدخل المصدر في هذه الأنواع على أساس أنه مشتق من الفعل الماضي .

ويتوسّع الصرفيون في مفهوم المشتقات فيزيدون على ما ذكره النحويون من أنواعها اسمي الزمان والمكان واسم الآلة .

وتسعى هذه الدراسة إلى توسيع مفهوم المشتقات لتشمل إلى جانب المشتقات الاسمية الخمسة واسمي الزمان والمكان واسم الآلة المصدر أيضا ولتشمل كذلك المشتقات الفعلية (الماضي والمضارع والأمر) [١] . وعلى أساس هذا المفهوم الواسع لأنواع المشتقات تعالج هذه الدراسة – في جانبها التطبيقي – نماذج

---

١ إن اعتبار الفعل أحد المشتقات ليس من مبتدعات هذه الدراسة . فقديماً نسب السيوطي إلى ابن الصائغ قوله في كتابه التذكرة : " يشتق من المصدر تسعة : الفعل واسم الفاعل والمثال واسم المفعول وصيغة المفاضلة والصفة المشبهة واسم المصدر واسم الآلة واسم الزمان والمكان " الأشباه والنظائر : ٣ / ٢٨٨.

العدول. فما وجد من هذه الأنواع في نماذج العدول المدروسة فإنما تـــم اعتبـــاره واختياره عن إدراك ووعي في ضوء مفهومها لأنواع المشتقات . وما غاب منهـــا عن حقل هذه الدراسة التطبيقية فإنما غاب عن إدراك ووعي أيضا على اعتبار أنه لا يشكل حضورا فاعلا في بنية العدول ؛ أو لأنه لا يمثل أحد القطبين الأساســـيين في بنية العدول (المعدول أو المعدول عنه) .

الباب الثاني

الدراسة التطبيقية(المقاربةالتحليلية)

الفصل الأول

العدول في صيغ الأفعال

توطئة

تؤكِّد كتب النحو العربي في تعريفها للفعل على دلالتي الحدث والزمن . فالفعل: " ما دلّ على معنىً في نفسه واقترن بزمان "[1] . فالزمن قسيم الحدث في البنية الدلالية للفعل . ويُضيف ابن جني دلالةً ثالثة ً للفعل هي الدلالة على الفاعل[2] .

إنَّ اجتماعَ الدلالةِ الزمنيةِ ودلالةَ الحدثِ شرطٌ أساسيٌّ لتحديد الهوية الدلالية لصيغة الفعل . فلا فعل بلا زمن ولا فعل بلا حدث . وإن تفرّدَ إحدى الدلالتين بالهيمنة على البنية اللغوية للكلمة يفضي إلى خلق بنية لغوية مغايرة لبنية الفعل . فالدلالة الزمنية منفردة تحدد الهوية الدلالية لظروف الزمان . ودلالة الحدث منفردةً تشكل الهوية الدلالية للمصادر.

يقتضي التقسيم المنطقي للزمن على ماضٍ وحاضر ومستقبل ، تقسيم الفعل على ماضٍ ومضارع وأمر يقول سيبويه عن الأفعال : " بنيت لما مضى ، ولما يكون ولم يقع ، ولما هو كائن لم ينقطع "[3].

فقوله (لما مضى) أي : الفعل الماضي . وقوله : (ولما يكون ولم يقع) أي : الفعل المستقبل / الأمر . وقوله (وما هو كائنٌ لم ينقطع) أي : الفعل المضارع .

" فالماضي ما قرن به الماضي من الأزمنة نحو قولك : قام أمس وقعد أول من أمس . والحاضر : ما قرن به الحاضر من الأزمنة نحو قولك : هو يقرأ الآن وهو يصلي الساعة . وهذا اللفظ يصلح للمستقبل إلاّ أن الحال أولى به من الاستقبال تقول : هو يقرأ غداً ويصلي بعد غدٍ فإن أردت إخلاصه للاستقبال أدخلت في أوله السين أو سوف فقلت : سيقرأ غداً وسوف يصلي بعد غدٍ . والمستقبل ما قرن به المستقبل من الأزمنة نحو قولك : سينطلق غداً أو: سوف

١ همع الهوامع : ٢٢.

٢ الخصائص : ٢/ ٣٢٨.

٣ الكتاب : ١ / ١٢ .

يصلي بعد . وكذلــك جميع أفعال الأمر والنهي نحو قولك : قم غداً أو: لا تقعــد غداً " .[1]

إنّ انغلاق الفعل على دلالة زمنية محددة ليس خاصية مطــردةً . فالدلالــة الزمنية للفعل تتسم بالمرونة والطواعية . وفي ظل هذه المرونة تبرز خصيصتان أساسيتان إضافيتان من خصائص الفعل هما : قابلية التفريــغ الزمنــي وقابليــة الاستبدال أو التناوب الزمني . وتشير الخصيصة الأولى إلى طاقة قارّة في بنيــة الفعل تؤهله لاستفراغ دلالته الزمنية الخاصة (دلالــة الماضــي أو الحاضــر أو المستقبل) واستيعاب دلالة الزمن المطلق . وهذه الخصيصة لا يكتنزها الفعل في بنيته الصرفية الإفرادية وإنما تتخلّق وتتشكل من خلال التفاعــل الإيجــابي بــين صيغة الفعل وشبكة الدوالّ اللُّغويَّة والقرائن السياقيَّة في السياق اللغوي .

هذه القضية تقودنا للحديث عن الزمن الصرفيّ والزمن النحــويّ . فــالزمن الصرفيّ زمن محدد . زمن ثابت تكتنزه الصيغة مــن خــلال بنيتهــا الصــرفية الإفرادية بمعزلٍ عن السِّياق اللغويّ أو من خلال الاستعمال المثاليّ للصيغة فــي السياق اللغويّ .

أما الزمن النحوي فهو زمن جديد طارئ على البنية الدلالية لصيغة الفعل ، وهو يشير إلى " اكتساب صيغ الأفعال وظائف مغايرةً فــي الســياق أو دلالات زمنيةً جديدة نتيجة تفاعلات السياق والملابسات وقرائن الأحوال "[2].

وفي ضوء خصيصة قابلية التفريغ الزمني في الفعل ندرك أن الفعل (كــان) يشير من خلال بنيته الصرفية الإفرادية إلى دلالة الزمن الماضي ، لكنــه حــين يندغم في بنية السياق الآتي : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾[3] يفرّغ تماماً مــن هــذه الدلالة الصرفية المنغلقة ليستوعب آفاقاً رحبة من الدلالة الزمنية المنفتحــة التــي

---

١ اللمع في العربية : ٧٠ .

٢ تحولات البنية في البلاغة العربية : ٣٢٠.

٣ النساء : ٩٦.

تمتدّ لتتجذر في حقب سحيقة من الزمن الماضي ولتهيمن على كل جزئيات الزمن الحاضر ولتتطلع إلى آفاق لا تحدُّ من الزمن المستقبل .

وإذا كانت الدلالة الزمنية لصيغة المضارع تحيل على الــزمن الحاضـــر أو المستقبل فإنها في بعض السياقات تفرغ من هذه الدلالة الزمنية الخاصة لتستوعب دلالة الزمن المطلق وتصبح مؤهلةً للدلالة على الزمن المستمر . " فإن قيل : مـــا وجه عطف الفعل المضارع على الفعل الماضي في قولـــه : (إن الـــذين كفـــروا ويصدون) ، فالجواب من أربعة أوجه : واحدٌ منها ظاهر السقوط : الأول : هو ما ذكره بعض علماء العربية من أنَّ المضارع قد لا يلاحظ فيه زمانٌ معيّنٌ من حالٍ أو استقبالٍ ، فيدلّ إذ ذاكَ على الاستمرار"[1].

أما خصيصة الاستبدال أو التناوب الزمني فتشير إلى إمكانية حلول صـــيغة فعلية محل صيغة فعلية أخرى أو العدول عن صيغة فعلية إلى صيغة فعلية أخرى . ويشير سيبويه إلى هذه الحقيقة بقوله : " وقد تقع (نفعل) في موقع (فعلنا) "[2].

وقد تنبَّه الدارسون القُدماء على هذه الخصيصة ولا سيما المفسرون الـــذين درسوها " تحت مسمّى المجاز ، ومخالفة ظاهر اللفظ معناه " [3]. ثم تناولهـــا ابـــن الأثير وبعض الدارسين المحدثين تحت مسمى (الالتفات في الـــزمن) . وتتناولهـــا هذه الدراسة تحت مسمّى (العدول في صيغ الأفعال) .

إنّ هذه الخصيصة تجعلنا ندرك أنّ " استعمال الصيغ الفعليـــة قـــد يكـــون استعمالاً مثالياً كما تقتضيه اللغة المعيارية وقد تستعمل صيغةٌ في موطن غيرهـــا لتفرز دلالات مغايرةً للسياق الذي نقلت إليه . وهذا يتم وفقاً للاستعمال الإبـــداعي للصيغ . فمن خلاله يمكن الاستفادة من مَدَيَات الصيغة وإمكانـــات عطائهـــا فـــي السيـــــــــــــــــاق الذي تنقل إليه "[4].

---

١ تفسيرأضواء البيان : ٤ /٢٩٢.

٢ الكتاب : ٣ /٢٤.

٣ الالتفات في القرآن الكريم دراسة أسلوبية : ١٠٨.

٤ المصدر السابق : ١٠٦.

العدول بين صيغتي الماضي

١ - (فما اسطاعوا ، وما استطاعوا) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿فَمَا **اسْطَاعُوا** أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا **اسْتَطَاعُوا** لَهُ نَقْبًا﴾.[١]

وردت بنية العدول في هذه الآية في سياق الحديث عن السد الذي صنعه ذو القرنين من الحديد والنحاس ؛ ليكون حاجزاً بين قوم يأجوج ومأجوج والقوم الذين تأذوا منهم . وفحوى هذه الآية أن قوم يأجوج ومأجوج لم يستطيعوا أن يتسلقوا هذا السد لملاسته وارتفاعه ، ولم يستطيعوا أن ينقبوه لسماكته وثخنه .

واللافت للنظر في الآية اختيار الفعل (اسطاعوا) الناقص البنية بحذف التاء مع فعل الظهور ، ثم العدول إلى الفعل (استطاعوا) التام البنية مع فعل النقب ، فهل لهذه الظاهرة علة تقف وراءها أو إنّها ظاهرة عادية ؟

ذهب بعض العلماء إلى أن (اسطاعوا) لغة في (استطاعوا) ، فيكون الجمع بين الصيغتين في الآية من قبيل الجمع بين اللغات [٢].

وقيل : إن (اسطاعوا) أصلها (استطاعوا) ولكن حذفت منها التاء تخفيفاً لكثرة الاستعمال والدوران على الألسنة . ومما سهّل حذف التاء قرب مخرجهما من مخرج الطاء [٣].

ويعترض على هذا الرأي بأنه لو أريد التخفيف لوقع التخفيف في الثانية لا في الأولى ؛ لأن الثقل إنما يكون في الكلمة الثانية لتكرارها . وقد أجاب ابن عاشور عنْ هذا الاعتراض بقوله : " وابتدئ بالأخف منهما ؛ لأنه وليه الهمزة وهو حرف ثقيل ؛ لكونه من الحلق بخلاف الثاني إذ وليه اللام وهو خفيف " [٤]. وهذا الجواب على طرافته يظل تعليلاً صوتياً بعيداً غير مستساغ ، ولا يمكن الجزم به أو التعويل عليه .

---

١ الكهف /٩٧.

٢ ينظر في هذا الرأي : الجامع لأحكام القرآن : ٥٦/١١.

٣ ينظر : المصدر السابق : ١١/ ٥٦ ، التحرير والتنوير : ١٥ /١٣٦.

٤ التحرير والتنوير : ١٥ /١٣٦.

ويذهب باحث معاصرٌ إلى أن ورود الصيغتين متقاربتين سهّل أن تكتمل إحداهما وتنقص الأخرى ؛ لأن مدار الأمر على (البيان والتبيين) والتقارب يجعل الصيغة الناقصة بينةً كالكاملة "[1].

ومن العلماء من ذهب إلى أن صيغة (استطاعوا) إنما جاءت تامةً ؛ لأن متعلقها وهو المفعول جاء اسماً مفرداً (نقباً) فلما خفَّ المتعلق جيء بالفعل تاماً ، وأنّ صيغة (اسطاعوا) إنما خُفّفت بحذف التاء ؛ لأنّ متعلقها جاء ثقيلاً مكوناً من : أنْ والفعل والفاعل والمفعول لأن يظهروه)[2] . ويُلاحظ أن الآراء السابقة – في جملتها – تعوّل على العلة الصوتية كثيراً ، في الوقت الذي لم تلتفت فيه إلى العلة المعنوية ولو من طرف خفي .

وهناك فريق آخر من العلماء أولى العلة المعنويةَ ـــ في هذه القضية ـــ اهتماماً بالغاً إذْ ربطوا بين وضع كل صيغة من الصيغتين في موضعها وبين الدلالة التي تؤديها . وقد بنوا تعليلهم على أساس تفسير عمليتي تسلق السد ونقبه من حيث السهولة والصعوبة .

فأكثر الأقوال على أن تسلّق السدّ أيسر من نقبه [3]؛ لذلك جيء معه بالصيغة المخففة (اسطاعوا) في حين جيء بالصيغة التامة مع النقب ؛ لأنه أصعب . وهذا تعليل يتكئ على التناسب بين اللفظ والمعنى . ويضيف السامرائي إلى العلة السابقة علةً أخرى تتعلّق بالزمن ، فهو يرى أن تسلق السد يتطلب زمناً أقصر فجاء معه بالصيغة الأقصر ، وأنّ نقب السدِّ يتطلّب زمناً أطول فجاء معه بالصيغة الأطول ".[4]

ويذهب بعض العلماء في هذه القضية مذهباً آخر ، فيرون أن تسلّق السد أصعب من نقبه ، وفي ذلك يقول ابن عاشور : " لأن استطاعة نقب السد أقوى من

---

١ سر الإعجاز في تنوّع الصيغ المشتقة من جذر لغوي واحد : ١٠٠.

٢ درة التنزيل وغرة التأويل : ١٥٨.

٣ ينظر في هذا الرأي : تفسير القرآن العظيم : ٥/ ١٧٦، ملاك التأويل : ٧٩١/٢ ، بلاغة الكلمة في القرآن : ١٢.

٤ بلاغة الكلمة في القرآن : ١٢.

استطاعة تسلقه " [1]. ومدلول هذه العبارة أن نقب السد أيسر من تسلُّقه ؛ لأن قـوة الاستطاعة على فعل شيء تعني يسره بالقياس إلى فعل شيء آخر قوة الاستطاعة على فعله أقلّ .

وينحو حسن طبل هذا المنحى في دراسته لهذه الآية ، غير أنه – في تقديري – كان أقدر من ابن عاشور على إيضاح هذه الفكرة والتعليل لها تعليلاً علمياً دقيقاً ، إذْ فرّق ابتداءً – بين صيغتي : (استطاع ، اسطاع) ، فأشـار إلـى أنّ هـاتين الصيغتين في سياق النفي – تدلان على العجز غير أن صيغة (وما استطاعوا)تدل على العجز الذي يأتي بعد المحاولة واستنفاد الطاقة والجهد في القيام بالشيء ، أما صيغة (فما اسطاعوا) فتدل على العجز التام الفوري الذي لا تسـبقه محاولـة ولا يجدي معه جهد لاستشعار الإنسان استحالة تحقق المراد. ويستشهد على صحة ما ذهب إليه من التفريق بين الصيغتين بعدة آيات من القرآن الكريم [2]. كما أشار إلى أن الصيغة الأولى (وما استطاعوا) وردت أيضاً مثبتة في كثير من الآيـات دالّـة على الدعوة إلى بذل الجهد ومحاولة استنفاد الطاقة [3].

ومن خلال الاستعراض السابق لرأي حسن طبل في بنية العدول في الآية ، نستنتج أنه يميل إلى القول بأن تسلُّق السدّ أصعب من نقبه ، ومدلول عباراته يؤكد هذا الاستنتاج ؛ فإن استشعار الإنسان عجزه عن القيام بالشيء قبل محاولة القيـام به يدل على أنه أصعب من الشيء الذي لا يأتي استشعار العجز عن تحقيقـه إلا بعد محاولة القيام به واستنفاد الطاقة في ذلك . وقد جاءت صيغة (وما اسطاعوا) الدالة على العجز قبل المحاولة مع تسلق السور (أن يظهروه) وجاءت صيغة (فما استطاعوا) الدالة على العجز بعد المحاولة مع نقب السد (له نقبـاً) . والـذي أميل إليه في قضية السهولة والصعوبة هذه ، هو الرأي الأخير ، وهذا الميل يتكئ – فضلاً عن الرأي الوجيه الذي قدمه حسن طبل على ثلاثة أدلة إضافيّة أحـدها نقلي والثاني عقلي والثالث صوتي :

١ التحرير والتنوير : ١٥ /٣٦.

٢ ينظر : سورة النساء /١٢٩ وسورة يس /٦٧ وسورة الكهف / ٧٢ ، ٧٨ .

٣ كالآية : ١٦ من سورة التغابن والآية : ٦٠ من سورة الأنفال والآية : ٩٧ من سورة آل عمران .

أما الدليل النقلي فهو قوله (صلّى الله عليه وسلّم) في الحديث الصحيح الذي روته زينب بنت جحش :" أن النبي (صلّى الله عليه وسلّم) دخل عليها فزعاً يقول : لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب ، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه – وحلّق بأصبعه الإبهام والتي تليها - فقالت زينب بنت جحش : فقلت : يا رسول الله : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم ، إذا كثر الخبث "[1].

ووجه الاستشهاد بالحديث أن نقب السدّ لو لم يكن أسهل من تسلّقه لما وجّه قوم يأجوج ومأجوج جهودهم إليه حتى نجحوا في ذلك كما أثبت الحديث ، إذ من غير المعقول أن يوجّهوا جهودهم ويستفرغوا طاقتهم في عمل شاقّ ولديهم خيار آخر أسهل منه . وهذا يعني أنهم ما اختاروا إلاّ أسهل الفعلين بالنسبة لهم . وأركّز على عبارة (بالنسبة لهم) ؛ لأننا لو ذهبنا نرجّح أي الفعلين أسهل (بالنسبة لنا) لقلنا : إن تسلق السور أسهل من نقبه . ولعل هذا ما يفسّر ذهاب أكثر العلماء إلى اختيار هذا الرأي . أي إنهم قاسوا السهولة والصعوبة في هذه القضية بالنسبة لظروفهم ولزمانهم فحكموا بأن تسلّق السور أيسر من نقبه ، وكان المفترض أن يحكموا في هذه المسألة بالنظر إلى ظروف قوم يأجوج وإمكانياتهم ، فربّما لم تكن إمكانيات تسلّق السّور متوافرة لديهم ، بل هذا مؤكّد وإلا لوجهوا جهودهم إلى تسلق السور بدلاً من نقبه . فتسلّق السور –إذاً –كان هو الأصعب بالنسبة لقوم يأجوج ومأجوج ، وهو الأسهل بالنسبة لنا .

وقد يُقال : إنّ هذا الحديث يتعارض مع الآية الكريمة التي تصرِّح بعدم استطاعتهم القيام بالفعلين كليهما . والحقيقة أنه لا تعارض ؛ لأن الآية تنفي الاستطاعة في الزمن الماضي (فما اسطاعوا ... وما استطاعوا) ، ونفيُ الماضي لا يقتضي تأبيد النفي ، فلحكمةٍ ما أرادهم الله أن يعجزوا عن ذلك في الماضي ، ولحكمةٍ أخرى أرادهم أن ينجحوا في نقب السدّ لاحقاً .

وأما الدليل العقلي فيتّضح بالمثال الآتي :

---

١ البخاري : باب قصة يأجوج ومأجوج : الحديث (٢٨٨٠) ، ٩ / ٢٢٩ ، وصحيح مسلم : كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج ، ٣ / ١٣١٧.

لو أنّ إنساناً أراد أن يبالغ في إثبات عجز إنسان آخر عن القيام بعملين ، فإنه يبدأ بتحديه في القيام بالعمل الأصعب من بين هذين العملين ، فإذا ثبت عجزه عنه انتقل إلى تحديه بالقيام بالعملِ الأسهل ، فإذا عجز عنه أيضاً كان ذلك أبلغ في إظهار عجزه ؛ لأنّه قد يتعلل مع العمل الأول بأنه صعب ومستحيل ، فإذا ما جاءته الفرصة ثانيةً لإثبات قدرته على القيام بعملٍ آخر هو أسهل من العمل الأول فعجز عنه كان ذلك أبلغ في إظهار عجزه ؛ لأنه لم تبق له حجةٌ يحتج بها . أما إذا بدأ التحدي بطلب القيام بالأمر الأسهل فعجز المتحدَّى عن القيام به فلا معنى لتكرار التحدي بالقيام بالأمر الأصعب ، فذلك لا يستقيم منطقياً ؛ لأن الذي يعجز عن القيام بالشيء السهل هو - بلا شك - عاجز عن القيام بما هو أصعب منه . وإنما كان إثبات العجز في الحالة الأولى أبلغ ؛ لأنه قد ثبت عجز المتحدَّى مرتين ، أما في الحالة الثانية فثبت عجزه مرةً واحدة .

هذا المثال ينطبق – تماماً – على الآية القرآنية ، فقد أراد السياق القرآني المبالغة في إثبات العجز التام لقوم يأجوج ومأجوج عن القيام بالفعلين معاً ، فنفى عنهم الاستطاعة على القيام بالأمر الأصعب (تسلق السور) والأمر الأسهل (نقب السدّ) على حدٍّ سواء . ولو أنّ تسلق السور كان أسهل عليهم من نقبه لاكتفى سياق الآية بنفي استطاعتهم عليه ولما احتاج إلى نفي استطاعتهم على نقب السدّ ؛ لأن نفيَ الثاني – في هذه الحالة – يصبح من فضول الكلام لتحققه بداهةً . فالعاجز عن الأسهل – لا شك ولا ريب – عاجز عن الأصعب من بابٍ أولى .

وخلاصة هذه المسألة أنّ علّة العدول عن الفعل المخفّف (فما اسطاعوا) إلى الفعل التامّ (وما استطاعوا) هي الدلالة على أن نقب السد أسهل من تسلقه ؛ لذلك آثر السياق صيغة (فما اسطاعوا) الدالّة على العجز التامّ قبل المحاولة مع الحدث الأصعب (نقب السدّ) ، ثم عدل إلى صيغة (وما استطاعوا) الدالّة على العجز الحاصل بعد المحاولة مع الحدث الأسهل (تسلُّق السور) .

وأما الدليل الصوتي فنتكئ فيه على نتائج الدراسات الصوتية الحديثة . فقد أثبتت هذه الدراسات أن صوت التاء المحذوفة من الفعل (اسطاعوا) وصوت

الطاء المثبت يتماثلان من حيث المخرج ، فكلاهما ينطق من المخـــرج الأســـناني (dental) نفسه . هذا التماثل بين هذين الصوتين على مستوى المخرج يقابله تباين على مستوى الصفة فالتاء مرقّقة في حين أن الطاء مفخمة ، وفـــي ضـــوء هـــذا التباين يمكن أن نفسِّر ظاهرة حضور صوت الطاء دون صوت التاء في بنية الفعل (اسطاعوا) إن حضور صوت الطاء بما يحمله من خصيصة التفخيم في بنية هـــذا الفعل ربما يُعدّ مؤشراً إلى فخامة الحدث الذي يسعى هذا الفعل إلى نفيه (حـــدث الظهور على السد) ويصبح حضور التاء إلى جوار الطاء في بنية الفعل التـــالي (استطاعوا) وسيلة صوتية للتخفيف من فخامة صوت الطاء ، لذا قد يكون هـــذا التخفيف مؤشراً إلى خفة الحدث الذي يسعى هذا الفعل لنفيه (حدث نقب السد) .

٢ - (أُزلِفتْ ، بُرِّزتْ) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿وَ**أُزْلِفَتِ** الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ . وَ**بُرِّزَتِ** الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾[١].

يذهب كثير من العلماء إلى أن صيغتي (أفعل ، فعّل) - وإن اشتركتا في الدلالة على التعدية - فإن الثانية تنفرد دون الأولى بدلالتها على الكثرة والمبالغة والتأكيد ، وفي ذلك يقول الكرماني : " (أنجينا ، نجّينا) للتعدي ، لكن التشديد يدل على الكثرة والمبالغة " [٢].

وبملحظٍ من هذا التفريق نستطيع مقاربة بنية العدول في الآية ، ويصبح تساؤلنا عن سر اختيار صيغة (أُفْعِلَ /أزلفت) مع الجَنَّة ، ثم العدول إلى صيغة (فُعِّلَ /بُرِّزت) مع الجحيم ، مشروعاً ومبررا. وتستوقفنا ــ ابتداءً ــ ملاحظتان للمفسِّرين تتعلقان بهاتين الصيغتين :

١ - الملاحظة الأولى : تتعلق بالدلالة المعجمية لمادة الإزلاف ، فـ " أَزْلَفَ الشيءَ قَرَّبَه ... وأُزْلِفَتِ الجنةُ للمتقين أَي قُرِّبَتْ "[٣] ، و "الزُّلْفَى : التَّقْرِيبُ جَدّاً "[٤]

٢ - والملاحظة الثانية : تتعلّق بعلة تقديم إزلاف الجنة على تبريز النار ، وعلة ذلك عندهم الإيماء إلى سبق رحمته على غضبه [٥].ونستضيء بمعطيات هاتين الملاحظتين في الكشف عن القيم البلاغية لبنية العدول في الآية الكريمة .

كنا قد عرفنا سابقاً أنَّ صيغة (فعَّل) تمتاز عن صيغة (أَفْعَلَ) بدلالتها على التكثير والمبالغة ، " ومن مقتضيات التكثير والمبالغة ، استغراق وقت أطول وأنه يفيد تلبثاً ومكثاً " [٦].

---

١ الشعراء / ٩٠/٩١.

٢ أسرار التكرار في القرآن : ٨٤ ، وينظر أيضاً : التحرير والتنوير : ١٩ /١٦٠، وأسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية : ٦٧.

٣ لسان العرب : مادة (زلف) : ٦٩/٦.

٤ تاج العروس : مادة (زلف) :٢٥٦/١٢.

٥ روح المعاني : ١٠٦/١٩.

٦ بلاغة الكلمة في التعبير القرآني : ٦٢.

وبالمقابل تشير صيغة (أفعل) التي لا تنضوي بنيتها على أيِّ دلالـــةٍ علـــى التكثير والمبالغة ، إلى أنّ الحدث يستغرق فترة زمنية قصيرة أو أقصر بالقيـــاس إلى الحدث الذي تدل عليه صيغة (فعَّل) . ومن هنا ندرك سرّ اختيـــار صـــيغة (أفعل) مع حدث إزلاف الجنة وتقريبها ، فالإزلاف أو التقريب حدث ســـريع لا يستغرق زمناً طويلاً ؛ لأن الجنة منحة وبشارة وعلاقة الممنوح المبشَّر بها علاقة شوق وتلهف واستعجال للقاء ، ومن عظيم تفضل المـــانح والمبشِّـــر وإنعامـــه ، التعجيل والمبادرة بمنحته وبشارته ، وحسبك بالله من متفضل ومنعم!!

وهكذا تتضافر الدلالة المعجمية لمادة (أزلفت) مع دلالتها الصيغية للدلالة على التعجيل بتقديم المنحة الربانية والبشارة الإلهية للمؤمنين المتقين رحمةً بهـــم من مرارة الترقب والانتظار في موقف الحساب والجزاء ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾[١] .

وتتعالق دلالة تقديم صيغة (أفعل) مع الدلالتين السابقتين فـــي رفـــد دلالـــة الإنعام والإكرام لهؤلاء المتقين بمعطىً إضافيّ جديد ، فتقـــديم إزلاف الجنـــة – فضلاً عن دلالته على الإيماء إلى سبق رحمة الله تعالى على غضبه – يشير إلى الاهتمام بالمقدَّم له / المتقين وإكرامه وإظهار الانشغال بـــه وإرجـــاء الآخـــر / الغاوين وإقصائه وتجاهله وكأنه غير موجود ولو إلى حين ، وهو نوع من العذاب النفسي بإطالة مدة الانتظار وما يصاحبها من الهواجس والقلق والترقب والتوقـــع فانتظار المصيبة أعظم من وقوعها .

أمّا العدول إلى صيغة (فعَّل) مع فعل إبراز النار فيحمل عدة دلالات :

١-الدلالة الأولى : بيان سعتها وضخامتها بحيث احتاجت إلى مبالغة فـــي حـــدث الإبراز .

---

١ ق : ٣١ .

٢-الدلالة الثانية : الإشارة إلى كثرة القائمين بهذا الحدث ؛ لأن الحدث الضخم يتطلب كثرة كاثرة للقيام بتكاليفه ، وقد ورد في الحديث الصحيح أنه : " يؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها " [١] .

٣-الدلالة الثالثة : الإشارة إلى شدة هيجانها واضطرابها بما يتأجج في بطنها من صنوف العذاب المختلفة مما يجعلها هائجة كالفرس الجموح ، بحيث تحتاج إلى مبالغة في كبح جماحها وتهدئة روعها . ولعل في الحديث النبوي السابق ما يؤيّد هذه الدلالة .

٤-الدلالة الرابعة : الإشارة إلى أن هذا الإبراز كان على كره من الكافرين ، فهم خائفون مشفقون من رؤية النار التي سَيَؤول أمرهم إليها فجيء بصيغة المبالغة للدلالة على مزيد تخويف الكافرين وإدخال الرعب في قلوبهم بإراءتهم ما يخافونه قهراً ولو كانوا له كارهين .

وهكذا تتضافر دلالة صيغة (فعَّل / برزت) على بيان سعة النار وضخامتها وكثرة القائمين بحدث التبريز من الملائكة وبيان شدة هيجانها واضطرابها والإشارة إلى إراءة الكافرين ما يكرهون قهراً ، مع دلالتها المعجمية على إراءة الكافرين النار من بعد وما يترتّب عن ذلك من قلق وخوف وترقُّب لوصولها وما سيحُلُّ بهم حينئذٍ من عذاب ومع دلالة تأخيرها عن صيغة (أفعل /أزلفت) على تحقير الكافرين وتجاهلهم وعدم الاهتمام بشأنهم ، تتضافر كلُّ هذه الدَّلالات على رسم ملامح المصير المرعب الذي سيؤول إليه حال هؤلاء الغاوين .

٣-(انفطرت ، انتثرت ــ فُجِّرت ، بُعثِرتْ) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿إِذَا السَّمَاء **انفَطَرَتْ** . وَإِذَا الْكَوَاكِبُ **انتَثَرَتْ** . وَإِذَا الْبِحَارُ **فُجِّرَتْ** . وَإِذَا الْقُبُورُ **بُعْثِرَتْ** ﴾[٢] .

تتضمن بنية العدول أربع علامات من علامات يوم القيامة (انفطار السماء ، انتثار الكواكب ، تفجير البحار ، بعثرة القبور) . وبملحظٍ من أنّ فعلي (الانفطار

---

١ تحفة الأحوذي : كتاب الفتن ، باب ما جاء في صفة النار ، ٧ /٢٩١.

٢ الانفطار١- ٤ .

والانتثار) جاءا بصيغة المبني للمعلوم وأنّ فعلي التفجير والبعثرة جاءا بصيغة المبني للمجهول ، فإنّ هذه الظاهرة تصبح لافتة للنظر وحاثة على التساؤل عن دلالة التحول والعدول عن صيغة المبني للمعلوم إلى صيغة المبني للمجهول . وفي سياق البحث عن دلالة هذا العدول يحسن بنا أن نلاحظ ما يأتي :

١- أن فعلي الانفطار والانتثار فعلان سماويان ، أمَّا فعلا التفجير والبعثرة فهما فعلان أرضيان .

٢-أُسند فعلا الانفطار والانتثار إلى فاعل معلوم (السماء ، والكواكب) ، وأُسند فعلا التفجير والبعثرة إلى نائبٍ عن الفاعلٍ (أو إلى مفعول لمْ يُسمَّ فاعله) .

في ضوء هاتين الملاحظتين ندرك سرَّ اختيار الفعلين المبنيين للمعلوم (انفطرت ، انتثرت) مع السماء والكواكب . إن السماء والكواكب عنصران فضائيان ليس لهما خصيصة التمكن والثبات ، فهما مهيئان – ذاتياً – للسقوط ؛ لأنهما محكومان بقانون العلوية ، ولولا وجود قوة تمنعهما من السقوط على الأرض لسقطا ، وهذا مضمون قوله تعالى :﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[1].

ومقتضى هذه الآية أنه تعالى لو لم يمسكهما لوقعتا على الأرض . إذن فسقوط كل شيء علوي – ومنه السماء والكواكب – على ما هو سفلي (الأرض) قانون ثابت وبقاؤه مستقراً ثابتاً خرق لهذا القانون لحكمة أرادها الله تعالى . وفي يوم القيامة يأذن الله سبحانه برفع قانون الحفظ والإمساك عن السماء وما حوته من كواكب فيهيمن قانون العلوية من جديد فتنفطر السماء وتنتثر الكواكب استجابةً لهيمنة هذا القانون. ففي إسناد الفعلين (انفطرت ، انتثرت) إلى فاعل معلوم (السماء ، الكواكب) إشارةٌ إلى أنهما فعلان ذاتيان محكومان بقانون الفوقية (العلوية).

وإذا كان السقوط والهوْي من خصائص العناصر السماوية ، فإن الاستقرار والثبات من خصائص العناصر الأرضية السفلية . والبحار والقبور عنصران

١ الحج / ٦٥.

أرضيان محكومان بقانون الثبات والاستقرار . فالبحار ثابتـــةٌ لا تطغـــى علـــى الأرض ولا يختلط العذب منهما بالمِلح ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾[1]. والقبور ثابتـــة قارة في جوف الأرض . هذا في الدنيا أما في يوم القيامة فتتغير الأحـــوال فـــلا سلطان لقانون غير (مشيئة الله) ولا مـــراعاة لقاعـــــدة غير قاعدة ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[2]. ومن علامات القيامة انكسار قانون الثبات والاستقرار للعناصر الأرضية فتنفجر البحار ويختلط عذبها بملحها ، وتُبعثر القبور وتُخرج ما في جوفها .

واللافت للنظر في هذا السياق أنّ فعلي التفجير والبعثرة لم يُسندا إلى فاعـــل معلوم كالفعلين السابقين . بلْ أُسندا إلى نائب عن الفاعل . وكان مقتضى قـــانوني الجوار والعطف أن يطّرد بناء الأفعال جميعاً للمعلـــوم (انفطـــرت ، انتثـــرت ، تفجّرت ، تبعثرت) ، ولكن السياق آثر بناء الفعلين الأخيرين للمجهول فما دلالـــة ذلك ؟.

إنّ العدول إلى صيغة المبني للمجهول في الفعلين (فُجِّرت ، بُعثِرت) يشـــير إلى أنّ هذين الحدثين ليسا من خصائص البحار والقبور وإنما هما حدثان طارئان عليهما . فإنّ البحار والقبور خاضعان لقانون الثبات والاستقرار فعـــدم التفجـــر وعدم التبعثر هما الخصيصتان الثابتتان للبحار والقبور ؛ لذلك أُسند فعلا التفجير والبعثرة إلى نائب عن الفاعل للإشعار بأن هذين الحدثين ليسا من الأفعال الذاتيـــة للبحار والقبور وإنما هما حدثان واقعان بفعل قوةٍ موجّهة خفية .

وخلاصة ما سبق أن استجابة السماء والكواكب –ذاتياً – للانفطار والانتثار والسقوط بفعل قانون الهوْي يهيؤهما لتكونا فاعلين حاضرين في السياق ؛ لـــذلك أُسند الفعل إليهما مباشرةً ، أما ثبات البحار والقبور واستقرارهما فيشير إلى أنهما غير مهيئين – ذاتياً – للانفجار والبعثرة ؛ لذلك لم يُسند الفعل إليهما مباشرةً ، بل أسند إلى نائبٍ عن فاعلٍ (مجهولٍ) غائبٍ عن السياق اللغويِّ حاضرٍ في الحِسِّ

---

١ الرحمن : ٢٠.

٢ البروج : ١٦.

المؤمنِ الذي يستشعر عظمة الله وقدرته الخفية الكامنـــة خـــارج مجـــال الإدراك القاصر المحدود .

٤ -(كذَّبوا ، قالوا ، ازدُجر) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَ**قَالُوا** مَجْنُونٌ وَ**ازْدُجِرَ**﴾[١] .

يكتسب قانون العطف حضوراً فاعلاً في بنية العدول في الآية ، ويضفي على هذه البنية ثراءً دلالياً خصباً بما يتيحه لها السياق من ثنائيـــة المعطـــوف عليه / المعدول عنه . هذه الثنائية الناشئة عن اختلاف الحاكي لبنيـــــــــــة المعدول إليه المحكية (وازدجر) . إذْ يرشح السياق حاكيين اثنين لهذه البنية : أولهما : الله سبحانه وتعالى فيكون الفعل (ازدجر) معطوفاً على الفعل (قـــالوا) وكلاهما محكيٌّ عن الله سبحانه .

وثانيهما : قوم نوح ، فيكون الفعل (ازدُجر) معطوفاً على اســـم المفعـــول (مجنون) ، ويكون المتعاطفان معاً مؤسِّسَينِ لبنية جملة مقول القول المحكية عـــن قوم نوح و المعنى : إنّ قوم نوح قالوا عنه إنـــه مجنـــون وإن الجـــــــــن قـــد ازدجرته وذهبت بلبه وتخبطته [٢].

ولأنّ القول بعطف الفعل (ازدجر) على اسم المفعول (مجنـــون) لا يـــدخل ضمن هذا القسم من أقسام الدراسة ، فسنضرب عنه الصفح ونركز على ظـــاهرة عطف الفعل (ازدجر) على الفعل (قالوا) وما تحمله ظاهرة العدول عـــن الفعـــل المبني للمعلوم إلى الفعل المبني للمجهول من قيم دلالية .

تنفتح بنية الفعل المبني للمجهول على دلالة المطاوعـــة وتحقُّـــقِ اســـتجابة المفعول لفعل الفاعل . هذه الدلالة يفتقر إليها الفعل المبني للمعلوم الذي يحيل على

---

١ القمر / ٩.

٢ ينظر في اختلاف الحاكي للفعل (ازدجر) : البحر المحيط : ٨ /١٧٥، ومفاتيح الغيب : مج ١٥ ، ج ٢٩ / ٣٦ ، ٣٧ .

دلالة ممارسة الفاعل للفعل دون الإشارة إلى موقف المفعول به من حيث استجابته لفعل الفاعل ومن حيث تحقق أثر الفعل الممارس فيه .

وتأتي بنية العدول في سياق تسلية قلب النبي صلى الله عليه وسلم وتصبيره على ما لحقه من أذى المشركين بعرض صورة من معاناة الأنبياء السابقين مع أقوامهم ، صورة معاناة نوح عليه السلام مع قومه . وتؤدي بنية الفعل المبني للمجهول / المعدول إليه دوراً إيجابياً وفاعلاً في إبراز عمق المعاناة وفداحة الإيذاء .. إنه ليس إيذاءً عابراً غير مؤثر ، إنها ليست محاولات فاشلة ، بل هو إيذاء مُمضّ وازدجار مرهِق بدلالة الفعل المبني للمجهول (ازدُجِر) الدال على تحقق أثر الإيذاء في نفسية سيدنا نوح عليه السلام ما جعله يطلق صرخة الاستغاثة المريعة بخالقه : ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [1].

وفي هذا السياق يقول الرازي : " إن قيل : لو قال : كذبوا عبدنا وزجروه كان الكلام أكثر مناسبةً ، نقول : لا ، بل هذا أبلغ ؛ لأن المقصود تقوية قلب النبي صلى الله عليه وسلم بذكر من تقدمه ، فقال : وازدُجر ، أي فعلوا ما يوجب الانزجار من دعائهم ، حتى ترك دعوتهم وعدل عن الدعاء إلى الإيمان إلى الدعاء عليهم ، ولو قال : زجروه ما كان يفيد أنه تأذى منهم ؛ لأنّ في السعة يقال : آذوني ولكن ما تأذيت ، وأما (أُوذيت) فهو كاللازم لا يُقال إلا عن حصول الفعل قبله "[2].

ومن دلالات العدول إلى صيغة المبني للمجهول الإشارة إلى أن فعل الزجر العملي أسوأ وأشد وطأة من فعل القول اللفظي ؛ ذلك لأن فاعل الفعل المبني للمجهول يكون غائباً عن السياق لغرض من الأغراض الدلالية التي ذكرها علماء النحو والصرف من تعظيم الفاعل أو تحقيره أو الخوف منه أو الخوف عليه ... إلخ

١ القمر : ١٠.

٢ مفاتيح الغيب : مج ١٥ ، ج ٢٩ / ٣٦ ، ٣٧ .

ولمّا كان بناء فعل الزجر للمعلوم يقتضي حضور الفاعل في السياق في صورة (واو) الضمير (وزجروه) فقد سعى السياق من خلال العدول بفعل الزجر إلى صيغة المبني للمجهول إلى تغييب هذا الفاعل / قوم نوح . فيكون بهذا المسلك الأسلوبي قد نبّه على تحقيرهم " وطهَّر الألسنة عن ذكرهم ؛ دلالةً على أنّ فعلهم أسوأ من قولهم"[1] .

ومن فوائد العدول إلى صيغة المبني للمجهول تغييب ضمير المفعول به /نوح عليه السلام عن الحضور السياقي تنزيهاً له من أن يقع مفعولاً به لضمير قومه ؛ تشريفاً له وتكريماً ! يقول ابن عاشور : " ونكتة بناء الفعل للمجهول – هنا-التوصل إلى حذف ما يُسند إليه فعل الازدجار للفاعل وهو ضمير (قوم نوح) ، فعدل على أن يقال : وازدجروه إلى قوله (وازدُجر) ؛ محاشاةً للدال على ذات نوحٍ وهو ضمير من أن يقع مفعولاً لضميرهم " [2].

ودلالة أخرى نلمحها من وراء تغييب ضمير نوح عليه السلام في بنية المعدول إليه هي الإشارة إلى أن عظم المعاناة وفظاعة الإيذاء الَّذَيْنِ تعرض لهما سيدنا نوح عليه السلام على يد قومه لا يكاد يذكر ولا وزن له بالقياس إلى النعيم الذي ينتظره عند ربه فجاء تغييب ضمير نوح المفعول به للإلماع إلى هذا المعنى اللطيف .

ثُمَّ إن العدول إلى صيغة المبني للمجهول له قيمته الإيقاعية إذْ وقعت بنية المعدول إليه (وازدُجر) موقع الفاصلة من الآية لتتوافق صوتياً وإيقاعياً مع فواصل الآي السابقة واللاحقة .[3]

---

١ روح المعاني : ١٤ / ٨١.

٢ التحرير والتنوير : ٢٧ / ١٧٥ .

٣ ينظر : الجامع لأحكام القرآن : مج ٩ ، ج ١٧ / ١٣١ . وروح المعاني : ١٤ / ٨١ .

العدول بين صيغتي المضارع

١ - (ليدَّبَّروا ، ليتذكَّر) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ **لِّيَدَّبَّرُوا** آيَاتِهِ وَ**لِيَتَذَكَّرَ** أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ [١] .

من الملاحظ على هذه الصورة العدولية أن المعدول عنه والمعدول إليه ينضويان تحت صيغة صرفية واحدة تجمعهما هي صيغة المضارع لكنّ اللافت للنظر في هذا المقام أن صيغة المعدول عنه خضعت لتغيير أساسي في بنيتها الصوتية ترتَّب عليه حدوث تحول في بنيتها الدلالية فالبنية الأصلية للفعل (ليدَّبروا) هي (ليتدبَّروا) وصيغتها (يتفعَّل) . وتحيلنا هذه الصيغة على دلالة طول الحدث والتدرُّج فيه[٢] .

لكن التغيير الصوتي الذي حدث في بنية هذا الفعل جرّاء تسكين التاء ثم إدغامها في الدال أحدث تغييرا صوتياً في صيغتها أولاً ، ثم ترتّب على هذا التغيير الصوتي حدوث تغيّر دلالي ثانياً . فإن هذه الصيغة تشير إلى دلالة المبالغة في الحدث والإكثار منه[٣]، والتكلف [٤].

أما صيغة المعدول إليه فقد استُعملت في هذا السياق على أصلها بدون إدغام ؛ لذا فإن دلالتها على طول الحدث والتدرّج فيه ظلت ثابتةً دون تغيير . وقبل أن نحاول مقاربة هذه الظاهرة العدولية واستكناه قيمتها الدلالية والإيحائية يحسن بنا أن نسجل الملاحظات الآتية :

---

١ سورة ص : ٢٩ .

٢ بلاغة الكلمة في التعبير القرآني : ٤٢/٤١.

٣ السابق : ٤٢/٤١.

٤ التحرير والتنوير :١٤٩/٢٣.

١ - إنّ مادة (التدبُّر) تحيل إلى دلالة المبالغة في التفكُّر والتأمل للوصـــول إلى المعلومات الخفية والحقائق الكامنة[١]. أما مادة (التذكُّر) فتشـــير إلـــى معنـــى استرجاع المعلومات السابقة واستحضارها[٢]. ومعنى الاتعاظ والاعتبار[٣].

٢ - إنّ التدبُّر هو الطريق الموصل إلى التذكُّر سواءٌ أكان التـــذكّر بمعنـــى استحضار ما عرف عن طريق التدبر أم كان بمعنى الاتعاظ به .

٣ - إنّ صيغة المعدول عنه (ليدّبروا) تشتمل على تضـــعيفين : تضـــعيف الفاء وتضعيف العين ، وفي ذلك مزيد مبالغة وتكثير وتكلّف في ممارسة الحدث.

٤ - إنّ الضمير في المعدول عنه (ليدَّبّروا) يعود إمّا إلى (أولو الألبـــاب) " على طريقة الإضمار للفعل المهمل عن العمل في التنازع . والتقدير : ليدَّبر أولوا الألباب آياته ويتذكروا " [٤] . فيكون الفاعل في المعدول عنه والمعدول إليه واحداً . أو إلى (الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمتقين) الذين ورد ذكرهم فـــي الآيـــة السابقة فيكون لكلٍ من المعدول عنه والمعدول إليه فاعل مستقلٌّ .

في ضوء الملاحظات السابقة تتكشف لنا بعض الـــدلالات المتعلقـــة بإيثـــار الصيغة المدغمة مع فعل التدبُّر ثم العدول إلى الصيغة غير المدغمة مـــع فعـــل التذكّر . فباعتبار فاعل التدبّر والتذكر واحداً نستنتج الآتي :

أنّ دلالة الصيغتين الصرفيتين المعدول عنهـــا والمعـــدول إليهـــا تتناســـبان والدلالة المعجمية لمادة الفعلين فإن دلالة الصيغة المدغمة على المبالغة والإكثـــار والتكلُّف تأتي متوافقةً ودلالة التدبّر على المبالغة والإكثار من التفكـــر والتأمـــل . وفي ذلك إشارة إلى أنّ التأمل في كتاب الله لمعرفة مراد الله من آياته هـــو مـــن الأمور الشاقّة التي تتطلب مبالغةً وتكلفاً في التأمل والتدبّر .

أما العدول إلى صيغة غير المدغمة (يَتَفَعَّل) مع فعل التذكر فله دلالتان:

---

١ ينظر : السابق : ٢٣/ ١٤٨، ١٤٩ .
٢ المصدر نفسه : ٢٣/ ١٤٩.
٣ جامع البيان : ٢٣/ ٩٨ ، الجلالين : ٦٠٢.
٤ التحرير والتنوير :٢٣ / ١٤٩.

الأولى : أن فعل التذكر – سواءٌ أكان بمعنى استحضار المعلومات السابقة أمْ كان بمعنى الاتعاظ والاعتبار – هو من الأفعال التي لا تحتاج في ممارستها إلى مبالغة وتكلف ؛ لأنّ استرجاع المعلومات أسهل من البحث عنها ، ولأنّ الاتعاظ والاعتبار يبنيان على قضايا ظاهرة وأمور ميسّرة ذهنياً وفكرياً ، فالإنسان لا يتّعظ بالشيء المبهم الذي يتعسّر عليه فهمه ؛ لذلك عُدِل عن الصيغة الدالّة على المبالغة والتكلّف مع فعل التذكّر .

- الثانية : أن فعل التذكر يحدث تدريجياً لاسترجاع المعلومات السابقة أو لأخذ العظة والعبرة ففيه تمهّل وتدرّج ؛ لذلك عُدل إلى صيغة (يتفعَّل) مع فعل التذكُّر لدلالة هذه الصيغة على التدرُّج والتمهّل . كما أن هذه الصيغة تدل على طول الحدث ، والتذكرُ بمعنى الاتعاظ والاعتبار هو فعل طويل وحدث ممتد خاصةً حين يكون هذا المتَّعظ من أصحاب العقول وذوي الألباب فهم دائمو التفكر لأخذ العظة والعبرة.

وفي ضوء هذا الاعتبار (أنّ فاعل التدبّر والتذكّر واحد) ، تصبح بنية العدول وسيلةً فاعلةً للكشف عن مرحلتين من مراحل التفكير العقلي الإنساني لدى أصحاب العقول الراجحة اللبيبة : المرحلة الأولى هي مرحلة البحث والتنقيب عن الحقائق الغائبة والأسرار الكامنة في القرآن نصاً وفي الكون كله قياساً . ومن مقتضيات هذه المرحلة من مراحل التفكير العقلي أن يكون هذا التفكير عميقاً وشاقاً ومبالغاً فيه . وهذه الوظيفة العقلية لا ينهض بالدلالة عليها غير الصيغة المدغمة الدالّة على المبالغة والتكلّف .

والمرحلة الثانية : هي مرحلة استرجاع المعلومات والمعارف الناتجة عن المرحلة الأولى (مرحلة التدبر) لأخذ العظة والعبرة منها ، ولا شك أن هذه المرحلة لا تتطلب الجهد العقلي الذي تطلّبته المرحلة الأولى ؛ لأنها مرحلة استرجاع فحسب لا مرحلة بحث وتنقيب . ومن مقتضيات الاسترجاع التدرُّج والتمهُّل وهو ذات المعنى الذي تنضوي عليه صيغة (يتفعَّل) .

أما إذا ذهبنا أن كلاً من فعلي التدبر والتذكر له فاعل مستقل فتكون علاقة الفاعل الثاني بالفاعل الأول علاقة الجزء بالكل ، أو الخاص بالعام ، على اعتبار أن (أولوا الألباب) يدخلون ضمن الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمتقين . ويكون الفاعل الثاني متميزاً عن الفاعل الأول برجاحة العقول ونباهة الألباب ، فيدخل فيهم العلماء والنابهون من الناس . وهذا يعني – بالمقتضى – أن الفاعل الأول على درجة أدنى من رجاحة العقل والرسوخ في العلم فيدخل فيهم العامة وطلاب العلم المبتدئون .. إلخ .

وفي ضوء ذلك نستطيع تفسير اختيار الصيغة المدغمة مع الفاعل الأول ثمّ العدول إلى الصيغة غير المدغمة مع الفاعل الثاني استناداً إلى ما اتضح لنا من دلالة كل صيغة . فلمّا كان الفاعل الأول يشير إلى صنف من الناس قليل العلم ليس له من رجاحة العقل ومن النباهة ما للصنف الثاني (أولو الألباب) ، فهذا يعني أنّ تأمله في كتاب الله وتفحص آياته يحتاج إلى مبالغة وتكلُّف ومشقَّة في محاولة فهم مراد الله من آياته ؛ لذلك جاء اختيار فعل التدبر متناسباً وحال هؤلاء صيغةً ومادةً معجميةً كما اتضح لنا سابقاً من دلالة مادة التدبر ودلالة الصيغة المدغمة .

كما جاء العدول إلى فعل التذكُّر مع الفاعل الثاني (أولو الألباب) متناسباً وحال هؤلاء صيغةً ومادةً معجميةً كذلك . وقد أشرنا سابقاً إلى دلالة مادة هذا الفعل ودلالة صيغته وتناسب كل ذلك مع حال (أولو الألباب) .

ونلاحظ أن صيغة (ليدَّبَّروا) أقصر من صيغة (وليتذكّر) – إذا ما استثنينا واو الجماعة المتصلة بالصيغة الأولى - كما نلاحظ أن فاعل التدبر كثير بالقياس إلى فاعل التذكر ؛ لأن أصحاب العقول الراجحة والراسخين في العلم منهم قليلون بالقياس إلى عامة الناس ومجملهم . فاختار الصيغة القصيرة صوتياً مع العدد الكثير والصيغة الطويلة صوتياً مع العدد القليل لإحداث التوازن بين الفعلين .

٢ - (يتفجَّر ، يشَّقَّق) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا **يَتَفَجَّرُ** مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا **يَشَّقَّقُ** فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[١] .

هاهنا صورةٌ من صور انتكاس الفطرة الإنسانية ومنظر من مناظر المسخ والتشويه لطبيعة الأشياء حين تستحيل القلوب الرقيقة اللينة بطبيعتها حجارةً قاسيةً صمَّاء . بل إنها لتتجاوز في قسوتها هذه الحجارة وتبلغ فيها غاية المدى .

ويبرز عنصر المفارقة جلياً واضحاً حين يخرق السياق معيارية الصورة التشبيهية بجعل المشبَّه متفوقاً على المشبه به في وجه الشبه . فوجه الشبه الجامع بين المشبه والمشبه به هو القسوة التي يفترض التشبيه المعياري تفوقها في جانب المشبه به . لكن السياق - بمنحىً إبداعي مدهش - يعكس القضية من خلال عرض نماذج تصورية للمشبه به (الحجارة) يبدو فيها أكثر رقةً وليناً من المشبه (القلوب) فمنها (أي الحجارة) ما يفيض منه الماء بتدفُّق مكوناً أنهاراً ، ومنها ما ينبع منه الماء نبعاً خفيفاً . وفي كلتا الصورتين من دلائل الرطوبة واللين – على تفاوت بينهما – ما يبرز شدة قسوة هذه القلوب التي لا تخشع ولا تلين استجابة لنداء الإيمان .

وتؤدي بنية العدول في الآية دوراً فَاعلاً في رسم ملامح الصورتين السابقتين ومدّهما بالظلال الإيحائية المعبِّرة . وتنهض الصيغة المعدول عنها غير المدغمة (يتفجَّر / يتفعَّل) بتشكيل بنية الصورة الأولى في حين تنهض الصيغة المدغمة المعدول إليها (يشَّقَّق) بتشكيل بنية الصورة الثانية . ويوحي إيثار الصيغة غير المدغمة (يتفجَّرُ) ابتداءً بأن السياق يسعى لبناء نسق متتابع من الصيغ غير المدغمة ، لكن السياق يكسر أفق التوقع لدى المتلقي حين

---

١ البقرة : ٧٤ .

يخرق هذا النسق المتوقع من خلال العدول إلى الصيغة المدغمة (يشّقق) ليصبح هذا الخرق ظاهرةً عدوليةً لافتةً للنظر وواعدةً بدلالاتٍ خصبة.

مرَّ بنا – قريباً – أن الصيغة غير المدغمة (يتفعَّل) تحيل إلى دلالة طول الحدث والتدرج فيه ، وأن الصيغة المدغمة تحمل دلالة المبالغة في الحدث والإكثار منه . وقبل أن نحاول الكشف عن المحمولات الدلالية القارّة في بنية العدول في الآية يحسن بنا التعرف إلى الدلالة المعجمية لمادتي التفجُّر والتشقُّق . يقول الزمخشري : "والتفجُّر : التفتُّح بالسّعة والكثرة ... (يشَّقَّق) يتشقق ... والمعنى : إنّ من الحجارة ما فيه خروق واسعة يتدفق منها الماء الكثير الغزير ومنها ما ينشق انشقاقاً بالطول أو بالعرض فينبع منه الماء أيضاً"[1].

ويقول الرازيّ : " التفجّر : التفتُّح بالسعة والكثرة ... بمعنى : وإن من الحجارة ما ينشق فيخرج منه الماء الذي يجري حتى تكون منه الأنهار ... (وإنّ منها لما يشّقّق فيخرج منه) أي : من الحجارة لما ينصدع فيخرج منه الماء فيكون عيناً لا نهراً جارياً ، أي إنّ الحجارة قد تندى بالماء القليل وفي ذلك دليل تفاوت الرطوبة وأنها قد تكثر في حالٍ حتى يخرج منها ما تجري منها الأنهار . وقد تقل . وهؤلاء قلوبهم في نهاية الصلابة لا تندى بقبول شيء من المواعظ ولا تنشرح لذلك ولا تتوجه إلى الاهتداء[2].

ويقول الآلوسي : " والتفجُّر : التفتح بسعة وكثرة كما يدل عليه جوهر الكلمة وبناء التفعُّل . والمراد من الأنهار الماء الكثير الذي يجري في الأنهار ... والتشقُّق : التصدع بطول أو بعرض " [3].

نخلص مما سبق إلى النتائج الآتية :

١) أنّ معنى التفجُّر : كثرة الفتحات المتكونة في الصخر واتساعها . وأن معنى التشقق : انشقاق الصخر بالطول أو بالعرض .

---

١ الكشاف : ١٥٥/١.

٢ مفاتيح الغيب :١٤٠/٢.

٣ روح المعاني : ٢٩٧/١.

٢) أنّ التفجّر يكون مصحوباً بتدفق الماء بغزارة وكثرة ينتج عنهما تكــون الأنهار ، في حين أن التشقق ينتج عنه نبوع الماء وخروجه بكمية أقل – بالقياس إلى التفجر – فتنشأ عنه العيون والينابيع وهي أقل غزارةً وتدفقاً من الأنهار .

٣) أن الوسط الذي تحدث فيه ظاهرة التفجر أكثر رطوبةً وندىً من الوسط الذي يحدث فيه التشقق الذي يتّسم بجفاف نسبي .

وبالاستناد إلى النتائج السابقة وإلى ما عرفناه سابقاً مــن دلالــة الصــيغتين المدغمة وغير المدغمة يمكننا أن نقارب بنية العدول في الآية فنقول :

إن إيثار الصيغة غير المدغمة (يتفجَّر) في مفتــتح بنيــة العــدول يحقــق الانسجام الدلالي بين دلالة هذه الصيغة صرفيّاً ودلالة مادتها معجميّــاً . فالدّلالــة الصرفيّة لهذه الصِّيغة على طول الحدث يتناسب مع دلالة مادتها على طول تدفق المــاء وغزارته . كما أنّ دلالتها الصرفيّة على التدرُّج في الحدث يتطابق ويتَّسق ودلالة مادتها على تكون الفتحات ونشوئها تدريجياً فإن هذه الفتحــات لا تتكــوّن دفعةً واحدةً بل بالتدريج وهذا مشاهد وملموس في الحياة العملية وهو ناشئ عــن رطوبة الصخور بحيث يظل الماء القارّ في جوفها يترقّى باتجاه السطح حتى يجد له متنفساً وفتحةً للخروج ولا شك أنّ هذا الترقّي ليس على مستوى واحــد فــي جميع أجزاء الصخر بل من الماء ما يسبق إلى السطح فيكوِّن فتحةً ، وبعد حــين تصل كمية أخرى إلى السطح فتكون فتحةً أخرى وهكذا تدريجياً .

أمّا بالنِّسبة للصِّيغة المدغمة (يشَّقّق) . فإن دلالة هذه الصيغة الصرفية على المبالغة يتطابق ودلالتها المعجمية على التشقق الطولي أو العرضي للصخر . فإن الصخرة القليلةَ الماء المنخفضةَ نسبة الرطوبة ، تتشقّق بصــعوبة وعســر ؛ لأنّ انخفاض مستوى الرطوبة يؤدي إلى اتّساع الشّقِّ وتمدُّده طولاً وعرضاً وبخاصةٍ حين تتعرض لحرارة الشمس العالية . هذه الصعوبة والتمدد في شــق الصــخرة تعبِّر عنهما - تماماً - الصيغة المدغمة (يشّقّق) فإن اجتماع حرفين مشددين دالٌّ على الشدة والمبالغة في الحدث فضلاً عن اجتماع حرفي الشين والقــاف الــذين يعطيان إيحاءً صوتياً دالاً على التكسُّر والتمزُّق والتشقق .

٥-(ثم ليقضوا ، وليوفوا ــ وليطّوّفوا) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ **لْيَقْضُوا** تَفَثَهُمْ و**َلْيُوفُوا** نُـــذُورَهُمْ و**َلْيَطَّوَّفُــوا** بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [١].

تتضمن الآية الكريمة ثلاثة أشياء من أعمال الحج هـــي : قضـــاء التفــث والإيفاء بالنذور والطواف بالبيت . ويلاحظ أن التعبير عن هذه الأعمال الثلاثـــة وقع بصيغة المضارع المجزوم بلام الأمر . لكن اللافت للنظر في هذا المقام خلوّ الصيغتين الأوليين من التضعيف بالتشديد الدالّ على المبالغة في الحدث في حـــين اشتملت الصيغة الثالثة على تضعيفين بالتشديد : الأول التضعيف بتسكين التاء ثم إدغامها في الطاء المتحركة . والتضعيف الثاني بتشديد عين الفعل (الواو) .

ونفترض اتّساق الصيغة الثالثة المضعّفة (وليطّوفوا) مع الصيغتين الأوليين (ثم ليقضوا ، وليوفوا) في الخلوّ من التضعيف في البنية العميقة علـــى الصـــورة الآتية (وليطُوفُوا) . هذا الافتراض مؤسس على ملاحظة خضوع الصيغ الثلاث لسلطة قانوني الجوار والعطف اللذين يقتضيان تماثل الصيغ المتجـــاورة لتحقيـــق جمالية الاتساق الصيغي بين المتجاورات . لكن الخروج عن سلطة هذين القانونين وغيرهما من القوانين اللغوية المعتبرة يصبح مشروعاً حـــين يتجـــاوز الســـياق الغرض الإخباري للكلام إلى الغرض الجمالي الإبداعي . حينئذٍ تصبح التضـــحية بضرورات الشكل وقوانينه في سبيل المعنى وجمالياته من سمات التشكيل اللغوي الإبداعي . فما الأغراض الدلالية الجماليـــة للعـــدول إلـــى الصـــيغة المضـــعفة (وليطّوّفوا) ؟؟ .

يمكن الانطلاق في مقاربة دلالات العدول في الآية من منطلقات ثلاثة هي : الحكم الشرعي للطّواف والعِلّة الشرعية له ودلالته الشرعية . ففي ضوء المنطلق الأول ندرك أن الطواف على ثلاثة أنواع : ركنٌ من أركان الحج لا يصحُّ الحـــج إلا به وهو طواف **الإفاضة (الزيارة)** ، وواجبٌ ، تركه لا يُبطل الحج وإن كـــان يوجب التضحية بدمٍ وهو طواف **الوداع** ، وطوافٌ هو سُنَّة لا شيء علـــى مـــن

---

١ الحج /٢٩.

تركه وهو طواف **القدوم** .[1]ويرجِّح العلماء أن الطواف المذكور في الآيــة هــو طواف الإفاضة (الزيارة)[2].

وفي ضوء هذا الترجيح نستطيع أن نفسر ظاهرة العدول في الآية : فلمّا كان الطواف المقصود في الآية (طواف الإفاضة) ركناً من أركان الحــج وفرضــاً لا يصح حج المؤمن إلا بأدائه عبّر عنه بالصيغة المضعّفة بالتشــديد الدالّــة علــى المبالغة للتأكيد على أهمية هذا المنسك واشتراط القيام به لصــحة الحــج خلافــاً للعمليتين السابقتين وهما : **قضاء التفث** : وهو الحلق ورمــي الجمــار وإزالــة الأشعث ونحوه[3] و**الإيفاء بالنذور** ، فإنهما - وإن كانا من أعمال الحج وشعائره - ليسا من أركان الحج ولا يتوقف عليهما صحته .

ويشير الشوكاني إلى علّة مشروعية الطواف فيقــول : " شــرع الطــواف لإغاظة المشركين كما في حديث ابن عباس قال : قدم رسول الله صلى الله عليــه وسلم وأصحابه فقال المشركون : إنه يقدم عليكم قومٌ قد وهنــتهم حمَّــى يثــرب فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يرملوا الأشواط الثلاثة وأن يمشوا ما بــين الركنين ، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم "[4].

إنّ علّة مشروعية الطواف هذه ترفدنا بدلالة أخرى لظاهرة العدول في الآية فالسياق القرآني يوظف تقنيــــة العدول إلى الصــيغة الدالــة علــى المبالغــة (وليطّوفوا) ؛ للتأكيد على ضرورة أن يبالغ المسلمون في الطواف حــول البيــت لإظهار الجلد والقوة والنشاط إغاظةً للكافرين ودرءاً لشماتتهم .

ويكتسب دالُّ (الطواف) إلى البيت الحرام في سياق الآيــة دلالــةً شــرعيةً مغايرةً لدلالته اللغوية . وتتخذ هذه المغايرة شكل التخصيص أو التقييد . فالطواف في اللغة هو الدوران حول الشيء [5]. دون تقييد بعدد مرات الدوران . أما الدلالة

---

١ ينظر الجلالين : ٤٨/١٢ ، معالم التنزيل : ٣٨٠/١ ، زاد المسير : ٤٢٧/٥، أحكام القرآن : ٩٦/١.

٢ ينظر الجامع لأحكام القرآن : ٤٨/٢١ ، معالم التنزيل : ٣٨٠/١ ، زاد المسير : ٩٥٦.

٣ ينظر الجامع لأحكام القرآن : ١٢ / ٤٨ .

٤ الدراري المضيئة شرح الدرر البهية : ٢٤١/١.

٥ ينظر : مفردات الراغب (مادة طوف) : ٣١٣، وتاج العروس ، مادة طوف : ٣٥٩/١٢.

الشرعية لهذا الدالّ فتحدَّد عدد مرّات الدوران حول البيت الحرام بسبع دورات يقول ابن القيم: " قوله : (وليطّوفوا بالبيت العتيق) مجملٌ في مقدار الطواف فبينته السنة بأنه سبع"[1] .

فالطواف حول البيت – إذن – هو طواف مخصوص محدد بسبع دورات . ولا شك أن تكرار الطواف حول البيت سبع مرات يحمل دلالة المبالغة في ممارسة الحدث . فجاء العدول إلى الصيغة المضعَّفة (وليطّوفوا) الدالة على المبالغة متّسقاً ودلالة الطواف حول البيت على المبالغة والتكثير .

العدول عن صيغة الماضي إلى صيغة المضارع

" وإنه – أي العدول عن الماضي إلى المضارع – طريق للبلغاء لا يعدلون عنه إذا اقتضى المقام سلوكه "[2] . بهذه العبارة الواضحة يحدِّد السكاكيّ القيمة البلاغية والأسلوبية لهذه الصورة العدولية . فهي إحدى الطرق والأساليب البلاغية التي يسلكها البلغاء في مقام الإدهاش والروعة .

ويحفل النّصّ القرآنيّ بنماذج وافرة من هذه الصورة العدوليّة تتناثر في سياقات مختلفة منه لتشكِّل أعلى نسبة من نسب الصور العدوليّة في صيغ الأفعال . بل في صيغ المشتقّات جميعاً على مستوى الكثافة وعلى مستوى الإبداع .

وفضلاً عن الدلالة الزمنية لصيغة المضارع على الحال أو الاستقبال ، فإنها في بنية العدول تكتسب طاقاتٍ دلاليةً إضافيةً ، وتؤدي وظائف أسلوبية مدهشة منها: حكاية الحال الماضية . هذه الوظيفة جعلت (فندريس) يسمى المضارع (المضارع التاريخي) ويقول عن هذه الوظيفة : " الماضي يمكن أن يعبِّر عنه الحاضر ، وهو استعمال شائع في الحكاية "[3] .

وتتركز القيمة الأسلوبية لحكاية الحال الماضية بوساطة صيغة المضارع في تقريب الصورة ورسم ملامحها بدقة متناهية واستدعائها لتمثل أمام المتلقي بكل ما

---

١ الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة : ٢١٢/١.

٢ مفتاح العلوم : ١١٩.

٣ تحولات البنية في البلاغة العربية : ٣٢٣. نقلاً عن اللغة لــ (ج. فندريس) : ١٣٨.

تفيض به من حيوية وإثارة وغرابة وإدهاش . وليمتلك المتلقي حضوراً حيوياً في مسرح الأحداث التي تحتدم أمامه فيعيشها بكل تفاصيلها ويتفاعل معهـــا ويســـتلهم منها مواطن العظة والاعتبار .هذه الوظيفة تؤديها صيغة المضارع بكفاءة عالية لا تؤديها صيغة اشتقاقية أخرى بما تكتنزه من طاقات دلالية تمكنهـــا مـــن تحقيـــق الانطباق الزمني بين زمن الحكي وزمن الحدث .

إنّ نقل الحدث بوساطة صيغة الماضي يمنح الصورة قيمةً إخبارية توثيقيَّـــة ويحرمها ــ في الوقت ذاتها ــ قيمتها الإيحائية التعبيرية فتبـــدو باهتـــة الملامـــح ضبابية الرؤية وكأنما قد تراكم على سطحها غبار الزمن (الماضي) .

إنّ المدى الزمني الشاسع بين زمن الحدث وزمن الحكي هو الـــذي يجعـــل الصورة ضبابية باهتةً ؛ ذلك لأن المتلقي في هذا النمط الروائي يغيب عن زمـــن الحدث ويصبح تفاعله مع الأحداث تفاعلاً جزئيا عن طريـــق الحاســـة الســـمعية فحسب. فهو مرويٌّ له . سامع لا شاهد .

هذا القصور الوظيفي الأسلوبي لصيغة الماضي في تجسيد الحدث الماضـــي تتجاوزه صيغة المضارع من خلال تضييق المدى الزمني بين زمن الحدث وزمن الحكي بل إلغائه بحيث ينطبق زمن الحدث على زمن الحكي فيصبحُ هو إيّـــاه . الأمر الذي يتيح للمتلقّي توظيفَ حاستي السمع والبصر فهو سامع وشاهد في ذات الوقت فضلاً عن التفاعل الوجدانيّ والانسجام الروحيّ المتولّـــدين عـــن مواكبـــة الأحداث .

ومن الدلالات التي تنفتح عليها صيغة المضارع دلالـــة التكـــرار والتجـــدد. وتستثمر هذه الدلالة سياقياً للتعبير عن العادات الروتينية والممارسات الرتيبة في النشاط الإنساني حين يتكرر الحدث ويتجدد لا على سبيل استغراق كـــل أجـــزاء الزمن . وإنما في أوقات مختلفة منه فـــ : الطالب يذاكر دروسه ، والمسلم يؤدي صلاته.

ومن هذه الدلالات أيضاً الدلالة على الاستمرار والديمومة بحيث تســـتغرق ممارسة الحدث كل أجزاء الزمن (الإنسان يعيش على الأرض) .

كل هذه الدلالات نتفيأ ظلالها ونستلهم إيحاءاتها ونحن نرصد نماذج العدول عن الماضي إلى المضارع في سياقات النص القرآني الكريم .

١ - (ذهب ، جاءته ، يجادلنا) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾[١] .

إنّ معرفتنا بزمن هذه القصَّة التي سُردت في سياق الآيات الكريمات التي ضمنها هذه الآية ، يجعلنا ندرك أنَّ الزمن الذي ينتظم جميع الأفعال الواردة فيها في بنية العمق هو الزمن الماضي . أي إنَّ السياق الأصليّ المفترض للآية يسير على النحو الآتي :

ذهب ــ جاءته ــ جادلنا

ماضٍ ــ ماضٍ ــ ماضٍ

لكنّ الصورة الفعلية الماثلة أمامنا لهذه الأفعال في بنية السطح تشير إلى حدوث عدول زمني في بنية الفعل الثالث على النحو الآتي :

ذهب ــ جاءته ــ يجادلنا

ماضٍ ــ ماضٍ ــ مضارع

والأسئلة التي تلحُّ هاهُنا هي : ما دلالة هذا العدول ؟ ولماذا خرق الفعل (يجادلنا) قوانين السياق التاريخي والجوار و(لمّا) الظرفية أو الحرفية التي تفترض اطّراد الأفعال وبناءها على صيغة صرفية واحدة ؟ .

يقول الزمخشري في سرِّ هذا العدول : " ... وقيل في (يجادلنا) : هو جواب (لمّا) . وإنما جيء به مضارعاً لحكاية الحال" [٢]. وقد ردد رأي الزمخشري هذا

١ هود : ٧٤.

٢ الكشاف : ٢ / ٤١٢ .

كل من عرض لهذه المسألة من المفسرين من بعده ، فلم يشذَّ عنه أحد فيما اطلعتُ عليه من كتب التفسير [1].

والغرض من حكاية الحال الماضية استحضار الصورة أمام المتلقي . وهي وظيفة حيوية لا ينهض بأدائها غير الفعل المضارع بما يحمل من حركية وتجدد وقدرة على رسم مجريات الأحداث في تناميها وتدرجها شيئاً فشيئاً وكفاية عالية في تصوير المواقف الانفعالية الحادّة ورسم الصور الغرائبية التي تتَّسم بالمفارقة والإدهاش . وبالعودة إلى الفعل المضارع (يجادلنا) الذي نسعى لمقاربة دلالة العدول إليه في بنية الآية الكريمة ، نجده يكتنز معظم هذه الدلالات .

ولا نغالي حين نزعم أنه – فضلاً عن دلالاته السابقة – يقدم درساً عملياً في كيفية استشعار الراعي المسئول لمسؤوليته تجاه رعيته حين يحس بالخطر يوشك أن يحدق بهم . هذا على مستوى الإنسان العادي ، فكيف حين يكون هذا المسئول رسول الله وخليله !.

فسيدنا إبراهيم – عليه السلام- يضرب لنا في هذه الآية أروع الأمثال فيما ينبغي أن يكون عليه المسئول من حرص ورحمة وشفقة على مصالح الرعية والأتباع . وعلاقة سيدنا إبراهيم بلوط والمؤمنين معه ليست علاقة نبي بأصحابه وأتباعه فحسب . بل إن هناك علاقةً أخرى تؤازر هذه العلاقة وتقويها ، هي علاقة القربى . فلوط هو ابن أخت سيدنا إبراهيم [2]. وهي علاقة تتضافر مع علاقتي الإيمان والاتباع لتشكل دافعاً قوياً من دوافع استشعار المسؤولية الملقاة على عاتق إبراهيم عليه السلام .

فالفعل المضارع (يجادلنا) يخدم هذه الفكرة من خلال رسم صورة انفعالية حادة عنصرها الفاعل سيدنا إبراهيم الذي ألجأه النبأ الفاجع الذي أنبأه به الملائكة عن عزمهم على أهلاك قوم لوط إلى الدخول معهم في جدل عنيف وحوار ساخن.

---

١ ينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٣ / ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل : ٢ / ٢٨٢ ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : ٤ / ٢٢٧ .

٢ الكشاف : ٣ / ٤٥١ .

وإن المتلقي ليكاد يتقرّى ملامح هذه الصورة بعينيه وأذنيه معاً وكأنه ينظـــر إلـــى الماضي من سترٍ رقيق ليتراءى له سيدنا إبراهيم في جلسة الجـــدل هـــذه ، وقـــد صدرت عنه إشارات الاعتراض وعبارات الرفض القلق لهذا القرار المفاجئ الذي ربما ذهب ضحيته أنصاره وأتباعه من المؤمنين ، بل وأقرباؤه وأهله .

هذه المحاولات المستميتة التي يبذلها نبيّ الله إبراهيم في سبيل حماية رعيته وأقربائه لم تكن مجرد انفعال عابر بل هي عاطفة مسيطرة وشعور مستحكم ، فهو لم يكتفِ بإظهار هذا الاعتراض مرةً واحدة وانتهى الأمر ، بل ظلَّ يحاول ويكرر المحاولة ويُقدِّم حُجج هذا الاعتراض ومسوِّغاته ، وهذه الدلالة يمنحنا إياها الفعل المضارع بما ينفتح عليه من دلالة التكرار والتجدد .

وتزوِّدنا بنيةُ العدول في الآية بدراسة نفسيةٍ ناضجةٍ ومكتملةٍ عـــن عاطفـــة الخوف وأثرها في شلِّ الحواس وتعطيل الملكات . فقد وقعت هذه البنية في حيّـــز أسلوب الشرط المفتتح بأداة الشرط (لـــمّا) ، واحتّـــلَّ المعـــدول عنـــه (ذهـــب ، وجاءته) موقع فعل الشرط والمعدول إليه (يجادلنا) موقع الجواب . وتمدنا كتـــب التراث النحوي بدلالة أداة الشرط (لـــمّا) فهي حرف وجود لوجـــود ، أو حـــرف وجوب لوجوب [1]. أي إنّها تدل على وجود الجواب أو وجوبه لوجود الشـــرط أو وجوبه ، فحدوث الجواب مشروط بحدوث الشرط وإذا لم يحدث الشرط لم يحدث الجواب .

وبتطبيق ذلك على الآية نجد أنّ جواب الشرط (يجادلنا) لم يوجـــد إلا بعـــد وجود فعل الشرط (ذهب) . فالمجادلة لم تحدث إلا بعد ذهاب الخوف ومجـــيء البشرى . وكأنّ سيدنا إبراهيم – عليه السلام- لم يكن مهيأً – ذهنيـــاً ونفســـياً – لتحمل تبعات القيادة ومقتضيات المسؤولية من الدفاع عن رعيته وتابعيه وقرابتـــه ضد الخطر القادم إلاّ بعد ذهاب الخوف عنه . وكأن الخوف والقيـــام بمقتضـــيات المسؤولية لا يجتمعان .

١ مغني اللبيب : ١ / ٣٠٩ .

وقد أثبتت الدراسات النفسية فاعلية الخوف في تبديد الطاقات وإضعاف قوى التركيز وتعطيل وظائف الحواس أو على الأقل التقليل من كفاءتها . وفي القــرآن الكريم شواهد أخرى تؤيد هذه الحقيقة . ففي معرض حديثه عــن الكــرب الــذي أصاب المسلمين في غزوة الأحزابٍ يقول تعالى : ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِــنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾[1] .

ويبدو أثر الخوف واضحاً في رسم ملامح الصور المريعة في الآية . ونلمح أثره في الحواس في هذه الصورة (وإذ زاغت الأبصار) . فحاسة البصر لم تعــد تؤدي وظيفتها في الرؤية وإن ظلت العينان مفتوحتين . بل إنــه (أي الخــوف) ليرسم صورةً غايةً في الإدهاش والغرابة حين يفعل فعله في تضخيم الأعضاء أو نقلها من موضع إلى آخر (وبلغت القلوب الحناجر) .

ويتجاوز الخوف حقل الحواس الماديّة ليفرض سطوته على القوى المعنويــة والطاقات الذهنية (وتظنّون بالله الظنونا) . فبفعل الخوف تفقد العقول قدرتها على التفكير الرصين وعلى استحضار وعود الله ورسوله بالنصر فتعصف بها الظنون وتسيطر عليها الشكوك .

ويتكرر أثر الخوف على قدرات التفكير في قولـــــه تعالى عن موسى عليه السلام : ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ . فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُــونَ جَبَّــارًا فِــي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾[2].

فحالة الخوف التي كان يعيشها موسى عليه السلام بسبب حادثة القتل الأولى التي اضطر إلى ارتكابها ، جعلته – في حُمَّى الخوف والهلع- ينسى تلك الحادثــة وندمه على ارتكابها واعترافه أمام الله بأنه قد ظلم نفسه باقترافه لهذا الذنب العظيم ووعده لله بأنه لن يكون ظهيراً للمجرمين . نسي موسى - عليه السلام - كل ذلك

---

١ الأحزاب : ١٠ .

٢ القصص : ١٨ ، ١٩ .

تحت تأثير الخوف والفزع وأوشك على اقتراف حادثة قتل أخرى لولا أن عصمه الله .

ويتكرّر الأثر ذاته مع موسى أيضاً في مناسبةٍ أخرى هي قصة موسى – عليه السلام- مع سحرة فرعون ، وذلك في قوله تعالى : ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى . فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى﴾ [١] .

فالخوف من السحر الذي مارسه السحرة أمام موسى ورؤيته للحبال والعصي تتحول ثعابين وحياتٍ تسعى ، أفقد موسى قدرته على التفكير وجعله ينسى ما وعده الله من النصر بقوله : ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾[٢]، ومن المعيَّة والحفظ بقوله : ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾[٣].

وفي قصّة سيدنا إبراهيم نجد أن العاطفة التي سيطرت عليه ابتداءً ، هي عاطفة الخوف ؛ بسبب أن ضيوفه لم يقاربوا الطعام الذي قدمه لهم ، فخاف أن يكون هناك شرٌّ ينتظره هو وأهله . يقول تعالى في تصوير هذا الموقف : ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾[٤] .

ثم بيّن الله تعالى في الآية موضع الدراسة أن عملية الجدل لم تتم إلا بعد زوال الخوف . وليس هذا فحسب ما أرادت الآية إثباته ، فلو كان الغرض مجرد الإخبار عن ذلك لنهض الفعل الماضي (جادلنا) بهذه الوظيفة . ولكن السياق القرآني من خلال العدول إلى صيغة المضارع (يجادلنا) يرمي – فضلاً عن الدلالة السابقة – إلى تقديم وصف نفسيٍّ لحالة الخائف بعد زوال عوامل خوفه . وقد أثبتت التجارب الإنسانية – بما فيها التجارب الشخصية التي نعيشها بأنفسنا- أن الإنسان يجد من النشاط والحيوية وتجدد الحياة بعد زوال خوفه ما لا يجده في حال اطّراد الأمن ودوام الاطمئنان . وهذا هو ما أراد السياق القرآنيُّ تأكيدَهُ من

---

١ طه : ٦٦، ٦٧.

٢ القصص : ٣٥.

٣ طه : ٤٦.

٤ هود : ٧٠ .

خلال العدول إلى صيغة المضارع (يجادلنا) . فسيّدنا إبراهيم- بعد زوال خوفه ومجيء البشارة إليه بولده إسحاق – بدأ يشعر بالاستقرار النفسيّ والصفاء الذهنيّ ، فتجدد نشاطه وقويَ عزمه وتضاعفت طاقته واتسم دفاعه عن قومه وأهله وأتباعه ومجادلته عنهم بالقوّة والتّكرار والاستمرار في المحاولة .. الأمر الذي لا ينهض بالدلالة عليه غير الفعل المضارع بما ينفتح عليه من دلالات التجدد والتكرار والاستمرار .

٢ - (جاءتهم ، تصبهم) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿فَإِذَا **جَاءتْهُمُ** الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن **تُصِبْهُمْ** سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[١] .

ركّز بعض المفسرين – في تناولهم لهذه الآية – على ظاهرة تعريف الحسنة ومجيء (إذا) معها ، وعلى تنكير السيئة ومجيء (إن) معها فقال : " فإن قلت : كيف قيل : (فإذا جاءتهم الحسنة) بإذا وتعريف الحسنة ، (وإن تصبهم سيئة) بـإنْ وتنكير السيئة ، قلتُ : لأن جنس الحسنة وقوعه كالواجب لكثرته واتساعه ، وأما السيئة فلا تقع إلا في الندرة ، ولا يقع إلا شيء منها . ومنه قول بعضهم : وقد عددت أيام البلاء ، فهلاّ عددت أيام الرخاء" [٢] .

فنعم الله لمّا كانت كثيرة وملموسة في الواقع ، جاء معها باسم الشرط (إذا) الدال على تحقق الوقوع وعرّفها بـ (أل) الجنسية التي تفيد شمول الجنس وعمومه . والسيئة لما كانت نادرة الوقوع قليلة الحصول جاء معها بحرف الشرط (إن) الذي يفيد الندرة والقلة والشك في تحقق الوقوع . وجاء بها عاريةً من أداة التعريف منكرةً ؛ لأن النكرة تدل على الفرد الواحد من الجنس فتنضوي على دلالة الندرة والقلة .

وعلى الرغم من أنّ النحاة كانوا قرّروا – قديماً – أن الفعل يتمحّض لمعنى الاستقبال حين يقع في حيّز الشرط ، يظلُّ هذا السؤال قائماً : لِمَ جاء بالفعل

---

١ الأعراف : ١٣١.

٢ الكشاف : ١٠٦/٢. ويُنظر أيضاً : أنوار التنزيل : ٣ /٥١ ، ٥٢ .

ماضياً مع الحسنة ومضارعاً مع السيئة ؟ ولِمَ لَمْ يأتِ بالفعلين على نسقٍ واحد (مضارعين أو ماضيين) ، فيخرجنا من حيرة التساؤل وحُمَّى الجدل ؟ .

وفي تقديري أنَّ الإجابة عنْ هذا السؤال بأنه إنما خالف بينهما طلباً للتنويع ــ كما يذهب إلى ذلك كثير من المفسرين في حالات متشابهة ـــ إنما هو علّة تحتاج إلى علة ؛ لأن هذا التعليل يستدعي سؤالاً آخر هو : ولِمَ هذا التنويع ؟ . والجواب المتوقع في هذا المقام أن يقال : إنما نوّع طلباً للترويح عن المتلقي ودفعاً للسآمة عنه، وهو تعليل يتَّهم النصَّ القرآنيَّ بأنه مدعاةٌ للسأم والملل شعر بذلك قائله أم لم يشعر .

والذي يظهر لي أن العدول عن الماضي إلى المضارع إنما جيء به لذات الغرض الدلالي الذي أشار إليه المفسرون في مقام التعليل لتعريف الحسنة واقترانها بـ (أل) ، وتنكير السيئة واقترانها بـ (إن) . فقد استعمل الماضي – أولاً- مع الحسنة لما يتضمنه من دلالة على القطع بثبوت الحدث وتحققه . ثم عدل إلى المضارع مع السيئة لما ينضوي عليه المضارع من دلالة الشك واحتمال الوقوع .

ومما حسّن وقوع الماضي في موقعه والمضارع في موقعه من السياق ، مجاورة الماضي (جاءتهم) للماضي (قالوا) بعده ، ومجاورة المضارع (تُصبهم) للمضارع (يطَّيَّروا) بعده . وقانون الجوار هذا من القوانين المعتبرة عند علماء النحو والبلاغة [1] .

٣ - (فألقى ، تلقف) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿**فَأَلْقَى** مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ **تَلْقَفُ** مَا يَأْفِكُونَ﴾[2] .

ظاهر الآيةِ يُعطي انطباعاً أوليّاً لدى المتلقِّي بأنّ العدول في الآية ليسَ عدولاً صيغياً بل هو عدول جُمْليٌّ عن الجملة الفعليَّة (ألقى موسى) إلى الجملة الاسميّة

---

١ يُنظر : سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد : ٣٩، ٤٦.

٢ الشعراء : ٤٥.

(إذا هي تلقف) ، وليس الأمر كذلك ، بل هو عدولٌ صيغيٌّ عن الماضي (ألقى) إلى المضارع (تلقف) .

لقد أشرنا ــ سابقاً[١] ــ إلى أنّ البنية العميقة للصيغة ــ في ضوء ظـاهرة العدول ــ هي البنية التي تعرَضت لجملة تحـويرات أو إقصـاءات أو إضـافات أحدثتْ تغييرات أساسيَّة في بنيتها ، هذه التغييرات تمنح الصيغة هيئةً صرفيةً أو تركيبية مغايرةً على مستوى بنية السطح ، فقد يكون التغيير على مستوى الصيغة الصرفية فحسب كقـوله تعالى : **(فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً)**[٢] ، فالبنيـة العميقة المتصورة للآية هي على النحو الآتي : (فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا) والتغيير الذي حدث في بنية العمق هو تحوير بنية المعطوف مـن صـيغة اسـم الفاعل (جاعل) إلى صيغة الماضي (جعل) .

وقد يكون التغيير على مستوى الصيغة الصرفيَّة وعلى مستوى التركيب معاً كما في الآية موضوع الدراسة ، فالبنية العميقة للآية نتصورها على النحو الآتي :

(فألقى موسى عصاه فلقفت ما يأفكون) ، وكما هو معلوم أنّ البنية العميقة تمثِّل المستوى الإخباري النفعي للكلام مجرّداً من الأغراض البلاغيَّة والقيم الدلالية الفنِّية ، ومجرّداً ــ بالمقتضى ــ من الدوالِّ التي تحقِّق هذه الأغـراض والقـيم. والبنية العميقة للآية المشار إليها تحقِّق هذا الغرض الإخباري الإبلاغي لا البلاغيّ ، لكنّ السياق القرآني يسعى إلى إثراء الخطاب بقيم دلالية وأغراض بلاغية تمنحه سحراً بيانياً إضافيّاً ، ومن الوسائل الأسلوبيّة التي يوظّفها السياق القرآنيّ لتحقيـق هذه القيم :

أوّلاً : العدول عن صيغة الماضي (لقفت) إلى صيغة المضارع (تلقف) ، وهو عدول تمثّل في تحوير صيغة الماضي لتحقيق أغراض بلاغيـة سـنذكرها لاحقاً.

---

[١]في الصفحة : ٢٨ .

[٢] الأنعام : ٩٦ .

ثانياً : إضافة دوالٍّ لغويّةٍ منحت المعدول هيئة تركيبيّة جديدةً ، وأوّل هــذه الدوالِّ دالّ المفاجأة (إذا) لمنح صورة (اللَّقْف) عنصر المفاجأة والمباغتة ، ثمّ إن استدعاء دالِّ المفاجأة ، اقتضى استدعاء ضمير الغيبة (هو) عنصراً مســنداً إليه واقتضى أيضاً إسناد صيغة المعدول (تلقف) إليه ؛ لأنّ دالَّ المفاجأة لا يدخل إلا على جملة اسميةٍ[1].

وتأسيساً على ما سبق يصبح من الخطأ تصوّر البنية العميقة للآيــة موضــوع الدراسة على النحو الآتي : (فألقى موسى عصاه فإذا هي لقفت ما يأفكون) ، بل ينبغي تجريدها من الدوالِّ الإضافية التي جيء بها لتحقيق أغراض بلاغيــة ؛ لأن البنية العميقة غرضها الإخبار فحسب فلا ينبغي تصوُّرها مقترنة بهــذه الــدوالِّ . ومن الخطأ أيضاً عدُّ العدول في الآية عدولاً جُمْليّاً ، بلْ هو عدول صيغيّ رافقــه إلصاقُ جملة دوالٍّ لغوية بصيغة المعدول إليه لتحقيق أغراض بلاغيّة ، وقد مــنح هذا الإلصاق صيغة المعدول إليه هيئة تركيبية جديدة ووظيفة سياقيةً مغايرةً .

تأتي هذه الآية في سياق منهمر من الآيات الكريمات التي انتظمتهــا قصــة موسى عليه السلام مع فرعون (سبعٌ وخمسون آية) . والسياق التــاريخي لهــذه القصة يجعلنا ندرك أن الزمن الذي يهيمن على مجريات الأحداث في بنيــة هــذه القصة هو الزمن الماضي ؛ لأنها وقعت وانتهت منذ زمن بعيد ومن ثــمّ يصــبح القول بضرورة توحُّد الأفعال ـــ على صيغة الماضي ـــ في بنيـــة هذه القصــة على وجه العموم ، وفي هذه الآية على وجه الخصوص ، مبرّراً ومشروعاً.

وإذا كانت حركةُ الزمن في بنية العدول في الآية على مستوى بنية السطح ، تتحدّد بالمخطط الآتي :

فألقى ـــ تلقف

ماضٍ ـــ مضارع

---

[1] مغني اللبيب : ١٠٢ .

فإن السياق التاريخي يفترض ضرورة إعادة تشكيل حركة الزمن في بنية العمق ، بحيث تنصهر بنية المعدول إليه في بوتقة الزمن الماضي على النحو الآتي :

فألقى ـــ فلقفت

ماضٍ ـــ ماضٍ

هذا التوحيد لصيغتي المعدولِ عنه والمعدولِ إليه ، يُعدّ خطوة أولى في طريق الكشف عن القيم الدلالية الكامنة في بنية العدول هذه . ومن المعطيات اللغوية التي نستضيء بها في سبيل تحقيق هذه الغاية ملاحظة أن المعدول عنه صيغة فعل ماضٍ (فألقى) مسندٍ إلى فاعل بشري إنساني (موسى) . وفي الوقت ذاته فإن المعدول إليه صيغة فعل مضارع (تلقف) مسند إلى فاعل غير بشري : العصا (أو الحية في سياقات أخرى) .

وعلى الرغم من أنّ الفعل الماضي المعدول عنه (فألقى) ، جاء على أصله متَّسقاً مع السياق التاريخي للقِصَّة ، فإنّ بقاءه على أصله يحمل دلالةً معينةً هي خلق نوع من التشاكل والتجانس مع الفعل الماضي المسند إلى السحرة في الآيَّة السابقة (فألقوا) [١] على مستوى المادة المعجمية والصيغة الصرفية والفاعل . فكلاهما من نفس المادة (الإلقاء) ، وعلى نفس الصيغة (الماضي) ، وكلا الفاعلين ينتمي إلى العنصر البشري الإنساني (موسى ، السحرة) .

أما صيغة المضارِع المعدول إليها (تلقف) ، فهي التي ينبغي أن تلفت انتباهنا وتحظى باهتمامنا في سياق البحث عن دلالة عدول هذه الصيغة عن بنية الزمن الماضي ، على الرغم من دلالتها على حدث يقع ضمن سلسلة من الأحداث التي ينتظمها ـــ تاريخياً ـــ الزمن الماضي . ومن المسوّغات الأسلوبيَّة للعدول إلى صيغة المضارع في الآية ما يأتي :

١ في قوله تعالى : ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ الشعراء : ٤٤.

١) استدعاء الصورة واستحضارها في الذهن [1]. هذه الوظيفة الحيوية لا ينهض بأعبائها غير الفعل المضارع بما ينضوي عليه من إمكانات فائقة لرسم ملامح الصورة حيةً نابضةً تفيض بالحيوية والحركة .

٢) الدلالة على التجدد والاستمرار [2].

٣) تحقيق التشاكل والتجانس مع الفعل المسند إلى حبال السحرة وعصيِّهم . هذا التجانس قد يكون على مستوى الصيغة ، كما في هذه الآية . فقد تجانست صيغة (تلقف) صرفياً مع صيغة (تسعى) المسندة إلى حبال السحرة وعصيهم في سورة طه في قوله تعالى : ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [3] .

فالفاعل في الفعلين عنصر غير بشري ، والفعل (تسعى) المسند إلى العصيّ والحبال هو فعل شرٍّ ، والفعل (تلقف) المسند إلى العصا هو فعل خيرٍ مضاد ، فكان لا بد من تكافؤ فعلي الشر والخير على مستوى الصيغة الصرفية.

وقد يكون هذا التجانس على مستوى المادة المعجمية والصيغة الصرفية معاً ، كما في سورة طه في قوله تعالى : ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [4] . فقد تجانست هذه الصيغة مع الصيغة ذاتها التي وردت في السورة ذاتها مسندة إلى حبال السحرة وعصيهم في الآية التي استشهدنا بها سابقاً [5].وقد كان هذا التجانس والتشاكل على مستوى المادة المعجمية (السعي) وعلى مستوى الصيغة الصرفية (المضارع) ، فضلاً عن كون الفاعل في الصيغتين عنصراً غيرَ بشري.

٤) مراعاة قانون الجوار : فقد وقع هذا الفعل مجاوراً للفعل المضارع (يأفكون) فحسُن وروده بصيغة المضارع مثله . هذه العلة التي تستند إلى قانون شكلي لفظي (قانون الجوار) تصاحبها علة

---

١ ينظر : روح المعاني : ١٠ / ٧٨ .

٢ نفسه : ١٠ / ٧٨ .

٣ طه : ٦٦ .

٤ طه : ٢٠.

٥ هي الآية ٦٦ من سورة طه .

دلالية ، فإن الفعلين (تلقف ، يأفكون) فعلان متضادان دلالياً ؛ لأن الأول فعل خير والثاني فعل شرٍّ . وفي مجيء فعل الشر بصيغة المضارع مؤشر إلى استمراره وتجدده في سياق هذه القصة نصّاً وفي الحياة – عامةً – قياساً وواقعاً ، فكان لزاماً أن يأتي فعل الخير بصيغة مماثلة للإشعار بتجدد واستمرار مقاومة فعل الخير لفعل الشرّ في هذا السياق وفي غيره تحقيقاً لقانون التدافع بين القوى المتضادة .

٤ - (كتبتْ ، يكسبون) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا **كَتَبَتْ** أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا **يَكْسِبُونَ**﴾[1] .

يُمدُّنا السياق الخارجي للآية بمعطيات فهم بنية العدول . فقد ورد في سبب نزول هذه الآية أنّ " ابن عباس قال : وصف الله محمداً (صلّى الله عليه وسلم) في التوراة ، فلما قدم رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) حسده أحبار اليهود فغيروا صفته في كتابهم ، وقالوا : لا نجد نعته عندنا . وقالوا للسفلة : ليس هذا نعت النبيّ الذي يُحرّم كذا وكذا كما كتبوه ، وغيروا نعت هذا كما وصف فلبّسوا على الناس . وإنما فعلوا ذلك ؛ لأن الأحبار كانت لهم مأكلة يطعمهم إياها السفلة ؛ لقيامهم على التوراة ، فخافوا أن تؤمن السفلة فتنقطع تلك المأكلة "[2] .

ففضلاً عما عرف عن اليهود من صفات بشعة كتكذيب الرسل وقتلهم والبخل والجبن والذِّلَّة ، يمنحهم سياق هذه الآية صفة إضافية هي صفة الاجتراء على كتاب الله بالتحريف والتزوير ؛ تحقيقاً لمصالحهم وإضلالاً للناس ، وتتضافر بنية العدول في السياق مع بقية الدوال لرسم ملامح هذه الجريمة النكراء وما ينتج عنها من تبعات .

وقد وجَّه المفسرون جهودهم في الآية إلى تفسير ماهية الشيء المكتسب المشار إليه بـ (ما) في بنية المعدول إليه (ما يكسبون) دون الإشارة إلى وجود

١ البقرة : ٧٩.

٢ الدر المنثور : ١/ ١٥٩ ، ١٦٠ .

ظاهرة عدول عن الماضي إلى المضارع أصلاً . وبناءً على إغفالهم لهذه الظاهرة العدولية أغفلوا – بداهةً – ما تتضمنه من قيم دلالية ؛ إلا ما كان من رأي الراغب الأصفهاني الذي سنورده لاحقاً .

فالمراد بالكسب : إما المال الحرام الذي يأكلونه مقابل تحريف آيات الله ، وإما المعاصي والخطايا الأخرى التي يرتكبونها [1].

فهناك شبه إجماعٍ – تقريباً – على أن الشيء المكتسب هو ثمن التحريف ، أو المعاصي والخطايا ، وإن كان أبو حيان والرازي يرجحان المعنى الأول ؛ لأنه أليق بالسياق . والتفسير الأول – في تقديري- هو الرأيُ الراجح بالقياس إلى التفسير الثاني كما قال أبو حيان والرازي ، وإن لم يكن الأليق بالنسبة لغيره خلافاً لهما ، فأما رجحانه على التفسير الثاني فمن أوجه :

- الأول : أنه مؤيدٌ بسبب نزول الآية ، فقد مرّ بنا آنفاً أنهم إنما حرَّفوا الكتاب ؛(لأنه كانت لهم مأكلة يطعمهم إياها السفلة لقيامهم على التوراة) .
- الثاني : أن الفعل المضارع المعدول إليه بما ينفتح عليه من دلالة التجدد والاستمرار، يأتي متسقاً ورغبتهم في استمرار وتجدد المال الذي يكتسبونه من استحواذهم على السفلة .
- الثالث : أنّ الآيةَ الكريمةَ افتُتحتْ بذكر العقوبة النازلة بهؤلاء اليهود وهي (الويل) ، وإنما استحقُّوا هذه العقوبةَ على ذنبين : تحريف الكتاب (يكتبون الكتاب بأيديهم) ، وأكل ثمن هذا التحريف (ليشتروا به ثمناً قليلاً) ، ثم عاد السياق ففصّل العقاب فجعل الويل ويلين : ويلاً على الذنب الأول (مما كتبت أيديهم) ، وويلاً على الذنب الثاني (مما يكسبون) ، وقد وقع الكسب في هذا السياق وهو الذنب الثاني موقع (ليشتروا به ثمناً قليلاً) في السياق الأول وهو الذنب الثاني هناك ، وهذا يعني أن الكسب معناه : أخذ ثمن التحريف .

---

[1] ينظر : جامع البيان : ٢٩٩/١، مفاتيح الغيب : مج ٢ ، ج٣ / ١٥٢، الجامع لأحكام القرآن : ٩/٢ ، زاد المسير : ٧١ ، البحر المحيط : ١ / ٤٤٤ .

- الرابع : أن بنية العدول ترتكز على مقدمة ونتيجة ، أو علةٍ ومعلول وفي ذلك يقول أبو حيان : " كتابتهم مقدمة نتيجتها كسب المال الحرام " [1]. فالمعدول عنه في بنية العدول (كتبت أيديهم) هو المقدمة ، والمعدول إليه (يكسبون) هو النتيجة . وفي هذا دليل على أن الكسب يعني : أخذ المال الحرام ثمناً للتحريف .

مما سبق يتبين أن المعنى الراجح للكسب في الآية هو كسب المال الحرام ثمناً لتحريف كتاب الله (التوراة) ، وهذا التفسير لمعنى الكسب هو التفسير اللائق في الآية الذي يتَّسق وسياق الآية الداخلي (اللغوي) وسياقها الخارجيّ (سبب النزول).

لكنَّ صيغة المعدول إليه (يكسبون) تكتنز دلالةً أخرى تكشف عن سرّ هذا العدول وتنضوي على التفسير الأليق بسياق الآية . هذا التفسير الذي لا يفتقر إلى ما يدعمه من معطيات السياقين الداخليّ والخارجي . أما هذه الدلالة المكتنَزة فهي الإشارة إلى تضخُّم رصيد الذنوب والمعاصي لأحبار اليهود الذين تولوا كبر تحريف كتاب الله فأضلوا كثيراً من الخلق . هذا الرصيد الذي يظل ينمو ويتكاثر بتكاثر عدد الواقعين في الضلال بسبب تحريف الكتاب المقدّس ، وإنما عددنا هذا التفسيرَ هو الأليقَ ؛ لأنَّ اكتساب الآثام والذنوب جراء التحريف مستمر دائم متجدد بتجدد وقوع الإضلال للآخرين سواءٌ في حياة هؤلاء المجرمين أو بعد موتهم ، وهذه الدلالة هي ما تنفتح عليها صيغة المضارع (يكسبون) الدالّة على التجدد والاستمرار . أما تجدّد الكسب واستمراره وهو بمعنى اكتساب المال ثمناً للتحريف ، فهو محدد بفترة عيش هؤلاء المحرفين منقطع بموتهم ؛ لذلك كان التفسير الأول أليق .

ويرفدنا السياق الخارجي بما يعزز هذا التفسير ، فقد ورد في النص السابق للسيوطي في سبب نزول الآية – والحديث عن أحبار اليهود- " وقالوا للسفلة ليس هذا نعت النبي الذي يحرم كذا وكذا كما كتبوه ، وغيروا نَعْتَ هذا كما وصف فلبَّسوا على الناس " ، ففي قوله : (وغيّروا نَعْتَ هذا) إشارة إلى التحريف ، وفي

---

[1] البحر المحيط : ١ / ٤٤٤ .

قوله : (فلبّسوا على الناس) إشارة إلى الإضلال الذي مارسوه فاستحقوا بموجبه أن يظلوا يكتسبون الآثام ويتجدد هذا الاكتساب ويستمرّ كلّما ضلّ بسبب تحريفهم إنسان . وقد صرح الله سبحانه بهذه الحقيقة في آية أخرى فقال :**(** لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ)[١] .

هذا السّرّ الدقيق لظاهرة العدول عن الماضي إلى المضارع في الآية كان قد أدركه الراغب فيما نقله عنه صاحب (محاسن التأويل) بقوله : " قال الراغب : إن قيل : لِمَ ذكر (يكسبون) بلفظ المستقبل و(كتبتْ) بلفظ الماضي ؟ قيل : تنبيهاً على ما قاله النبيّ صلى الله عليه وسلم : (من سنّ سنة سيئةً فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة)[٢] فنبّه بالآية أن ما أصلوه وأثبتوه من التأويلات الفاسدة التي يعتمدها الجهلة هو اكتساب وزر يكتسبونه حالاً فحالاً " [٣].

٥ - (آمنوا ، يتوكلون) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ **آمَنُوا** وَعَلَى رَبِّهِمْ **يَتَوَكَّلُونَ**﴾[٤] .

يفترض قانون الجوار ضرورة اتحاد صيغتي الظاهرة العدولية زمنياً في بنية العمق على النحو الآتي : (آمنوا ... توكلوا) ، لكن السياق – ولغرض بلاغي ما– آثر العدول عن الماضي إلى المضارع في الفعل الثاني : (آمنوا ... يتوكلون).

وفي حدود ما اطّلعت عليه من كتب التفسير ، لم أجد من أشار إلى سرّ هذا العدول . وبملحظٍ منْ أنّ صيغة المعدول إليه (يتوكلون) وقعت في موقع الفاصلة

---

١ النحل : ٢٥.

٢ لم أجد الحديث بهذا اللفظ فيما تيسر لي من كتب الحديث ، ولعله نقلٌ بالمعنى والذي وجدته مقاربا : " **مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ مِثْل وِزْر كُلّ مَنْ يَعْمَل بِهَا إِلَى يَوْم الْقِيَامَة** "، شرح النووي على مسلم : الحديث رقم (١٥) ، مج٨ / ٤٧٩.

٣ محاسن التأويل : ٣١٩/١.

٤ الشورى : ٣٦.

من الآية الكريمة ، فإنه تجدر الإشارة إلى أنّ كثيراً من المفسرين يعوّلون – كثيراً - على قضية الفاصلة هذه ، فيعللون – في ضوئها - لكثير من ظواهر العدول التي يقع فيها المعدول إليه في موقع الفاصلة بعلّة الحفاظ على توافق الفواصل أو رؤوس الآي . وهو تعليل صوتي مقبول في كثير من الأحيان ، لكن هذا التعليل لا يجد له موضع ترحيب في هذه الآية ؛ ذلك لأن بناء الفاصلة – هنا - لا يتناسب صوتياً وبناء الفواصل السابقة عليها ، إذْ نجد صورة هذه الفواصل تباعاً كالآتي : (شكور .. كثير ... محيص ... يتوكلون) ، وربما يحظى هذا التعليل بشيء من القبول إذا ما توسعنا في مسألة التناسب الصوتي بين الفواصل بالنظر إلى الفواصل التالية لهذه الفاصلة : (يتوكلون... يغفرون... ينفقون... ينتصرون... إلخ) ، وعلى ذلك فتصبح بنية هذه الفاصلة مفتتحاً لسياق منهمرٍ من الفواصل المتناسبة صوتياً .

وتظلّ العلة المعنوية مقدَّمةً على العلة الصوتية لا سيما في الدراسات القرآنية ؛ لأنه من غير المجدي – في تقديري – أن تستفرغ الجهود في البحث عن العلة الصوتية – على أهميتها باعتبار النص القرآني تشكيلاً لغوياً إبداعياً – في الوقت الذي يتم فيه إغفال العلّة المعنوية التي يقوم عليها فهم النص القرآني ، ومحاولة الكشف عن مراد الله من آياته . فالعلة المعنوية – إذن – هي التي ينبغي أن تكون محور اهتمام الدارسين الأول ، ولا بأس – بعد ذلك – من البحث عن العلَّة الصوتيَّة بوصفها جانباً من جوانب إعجاز النظم القرآني الفريد.

تعرض الآية الكريمة لنوعين من العطاء الإلهي والنعم الربانية : العطاء الدنيوي وهو عطاءٌ مؤقت زائل محقق النفاد ﴿فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا﴾[1] ، ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ﴾[2] ، ﴿وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[3] . والعطاء الأخروي وهو عطاءٌ دائمٌ باقٍ لا ينفد ﴿وما عند الله خير

---

١ الشورى : ٣٦.

٢ النحل : ٩٦ .

٣ الزخرف : ٣٥ .

وأبقى﴾[١] ، ﴿وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ﴾[٢]. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾[٣] . والعطاء الدنيوي على زواله ونفاده هو عطاء عام ونعمة شاملة لا يمتاز فيها المؤمن عن الكافر ؛ لأنه عطاء ابتلاء واختبار يتساوى فيه الكل ، حتى لا يبقى لأحدٍ على الله حجة فالكل في فرص العيش وتكافؤ النعم سواء .

أمَّا العطاء الأخروي فهو عطاء خاص ؛ لأنه عطاء جزاء ومثوبة ، يكافأ به المحسن ، ويُحرم المسيء ، وهذه أنصع صور العدل وأسمى تجلياته .

وتأتي بنية العدول في سياق الحديث عن العطاء الأخرويّ ؛ لتكشف عن صفتين من صفات الجنس البشري المستحق لهذا العطاء الخاص ، وتفتتح بنية العدول بصيغة الماضي (آمنوا) ؛ لتحديد الصفة الأولى من صفات هؤلاء ، وهي صفة الإيمان (للذين آمنوا) . وفي هذا التحديد إخراج لجنس آخر من البشر ممن لم يستحقوا هذا العطاء الخاص وهم (الذين كفروا) بداهةً . ثم تأتي الصفة الثانية من صفات هؤلاء وهي صفة التوكّل ولكن هذه المرة بصيغة المضارع (يتوكلون) مما يشكل منبهاً أسلوبياً حاثاً على التساؤل عن سرِّ هذا العدول والتحول .

من الدلالات التي يكتنزها الماضي ، دلالته على تحقق الوقوع بحيث لا يبقى مجال للشك في حقيقة الحدث ، ونلمح ظلال هذه الدلالة في بنية الفعل الماضي (آمنوا) الذي يشير إلى صفة راسخة في هؤلاء المؤمنين ، فإيمانهم ثابتٌ متحققٌ لا يحتمل الشك . وقد يُقال : إن الاسم أدلُّ على الوصفية والثبات من الفعل فلِمَ لم يقلْ (للمؤمنين) ؟. والجواب على ذلك أن الدلالة على الزمن الماضي مطلوبة أيضاً ؛ لذلك آثر صيغة الماضي على صيغة الاسم . وبيان ذلك أن الآية تتحدث عن الجزاء الأخروي ؛ لأن الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء ، فثواب الله الذي هو (خيرٌ وأبقى) إنما هو جزاء على الإيمان الذي تحقق في الزمن الماضي (آمنوا) ،

---

١ الشورى : ٣٦.

٢ النحل : ٩٦ .

٣ النساء : ٥٧ .

فالجزاء في الآخرة والإيمان في الدنيا، والدنيا ماضٍ بالنسبة للآخرة فاختير الماضي لتحقيق هذه الدلالة .

أمّا لماذا عدل إلى صيغة المضارع مع الصفة الثانية (يتوكلون) ؛ فلأن التوكل ممارسةً عملية للإيمان ، فالإيمان قاعدة راسخة في نفس المؤمن والتوكل تطبيق عمليّ لحقيقة هذا الإيمان . ولمّا كان التوكل ممارسةً عملية للإيمان ؛ فإنه يكون أشدّ وضوحاً في مواقف الشدة حين يستشعر الإنسان المؤمن عجزه وحاجته إلى من يعينه . ومواقف الشدة متجددة ، فلزم أن يكون مع كل موقف شدة توكل . وفي هذا إشارة إلى حقيقة التوكل الصحيح المقبول الذي لا يتنافى مع حقيقة الإيمان ألا وهو التوكل المتجدد بتجدد مواقف الشدة ، فلا يكفي أن يتوكل الإنسان على الله في موقف أو موقفين ثم يتوكل على غيره في مواقف أخرى ،بل لا يجوز التوكل على غير الله ولو في موقف شدة واحد ؛ لذلك جاء العدول إلى صيغة المضارع (يتوكلون) دالاً على ضرورة الاتصاف بهذه الصفة على جهة التلبس والاستمرار .

٦- (ارتابوا ، يخافون) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ **ارْتَابُوا** أَمْ **يَخَافُونَ** أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[١].

تأتي هذه الآية في سياق الحديث عن المنافقين الذين أبطنوا الكفر وأظهروا الإيمان. وتكشف الآيات السابقة لهذه الآية عن مظاهر التناقض الواضح في شخصيات هؤلاء بين ما يدعونه من إيمان وما يمارسونه من سلوك التمرد والعصيان ورفض الاحتكام لأمر الله ورسوله حين يشعرون أنّ هذا الحكم لا يسير على وفق أهوائهم. يقول تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ . وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ

١ النور : ٥٠.

بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ . وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْـــهِ مُــذْعِنِينَ . أَفِـــي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ... الآية﴾[1] .

وفي سياق تفسير هذا التناقض الواضح في شخصيات هؤلاء تقدم الآية ثلاثة احتمالات مفترضة هي : مرض القلوب ، أو الريبة ، أو الخوف مـــن جـــور الله ورسوله . وعن ماهية المرض تشير بعض كتب التفسير إلى دلالـــة : الكفـــر أو الرغبة في اغتيال حقوق الناس[2]. أما الريبـــة فتتعلـــق بـــدين الإســـلام أو بنبـــوة المصطفى صلى الله عليه وسلم[3].

ويلاحظ أن الاحتمال الأول جاء بلفظ الجملة الاسمية (أفي قلـــوبهم مـــرضٌ) وجاء الاحتمال الثاني بصيغة الماضي (أم ارتابوا) والاحتمـــال الثالـــث بصـــيغة المضارع (أم يخافون) . كما يلاحظ أن هذه الاحتمالات قد وقعـــت فـــي ســـياق الاستفهام الإنكاري التعجبي ؛ لبيان أنّ حالة التناقض العجيبة هذه لا تخلو مـــن أن تكون مسببةً عن أحد الأسباب الثلاثة . وتشكل هذه الاحتمالات الثلاثة صـــورتين متداخلتين يمكن تمثيلهما بالمخططين الآتيين :

الصورة الأولى :

أفي قلوبهم مرض ــــ ارتابوا

جملة اسمية ــــ فعل ماضٍ

معدول عنه ــــ معدول إليه

الصورة الثانية :

ارتابوا ــ يخافون

ماضٍ ــ مضارع

معدول عنه ــ معدول إليه

---

١ النور : ٤٧-٥٠.

٢ ينظر : تفسير الجلالين : ٤٧١، ومفاتيح الغيب : ٤١٤/٢٤.

٣ ينظر : تفسير القرآن العظيم : ٦٧/٦.

ويلاحظ أن الفعل الماضي (ارتابوا) الذي مثّل المعدول إليه في الصورة العدولية الأولى ، أصبح هو نفسه معدولاً عنه في الصورة العدولية الثانية .

إن ترتيب الاحتمالات الكاشفة عن سرّ هذا التناقض الحادّ على هذه الصورة هو ترتيب مقصود يسعى - من خلاله- السياق إلى ترتيب هذه الاحتمالات ترتيباً تنازليا ابتداءً بالاحتمال الأقوى وانتهاءً بالاحتمال الأضعف . وفي ضوء ذلك نستطيع أن نفسِّر علّة اختيار الجملة الاسمية لتمثل مفتتحاً لبنية العدول في الآية ، فتقديم الجملة الاسمية – بما ينضوي عليه الاسم من دلالة الثبات والرسوخ – يأتي على طريقة الترشيح الأسلوبي للاحتمال الأول ليكون أقوى هذه الاحتمالات وأكثرها انطباقاً على حقيقة هؤلاء المنافقين . فقد ظلّت بذرة الكفر راسخة في قلوبهم متمكنة منها وإن تظاهروا بالإسلام . ويأتي حرف الجر (في) الدالِّ على الظرفية والاستيعاب ليؤكد هذا الرسوخ والتمكن ، كما أنّ تقديم الجار والمجرور يشير إلى الاهتمام بالمقدّم ؛ لأن القلوب هي مظنّة الاعتقاد وموطن الكفر والإيمان.

ويقدِّم السياق احتمالاً آخر لهذا التناقض ، ولكن هذه المرة بصيغة الماضي (ارتابوا)، وهذا العدول عن الجملة الاسمية إلى صيغة الماضي تدرُّج تنازلي عن الاحتمال الأقوى إلى الاحتمال الأقل قوةً ؛ فإن الماضي – وإن كان ينفتح على دلالة التحقق والثبات - فإنه لا يصل إلى درجة الاسم في دلالته على الثبات والرسوخ ؛ لأن الاسم مجرد من الدلالة على الزمن في حين أن الفعل الماضي يدل على الزمنية الماضوية ، والصيغة التي تحتوي على الدلالة الزمنية تظل حاملة لخصيصة التحوّل والتغيُّر مع تفاوت في درجات هذه الخصيصة من صيغة إلى أخرى. فصيغة المضارع مثلا أكثر استجابة لمعطيات هذه الخصيصة من صيغة الماضي .

والمتأمِّل في أحوال هؤلاء المنافقين يدرك أنهم ما شكوا ولا ارتابوا في حقيقة الدين الإسلامي أو في نبوة المصطفى صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه قد قدّم بين يدي دعوته كل الآيات والبراهين الدالة على صدق نبوته وعلى عظمة هذا الدين . وإذا

كان صدر عن هؤلاء المنافقين ما يوحي بشكهم وارتيابهم في صدق نبوته صلى الله عليه وسلم أو في حقيقة الدين الذي يدعو إليه ، فإنما هي أشياء ظاهرية لا تدل على اعتقاد ويقين حقيقيين ، وقد بيّن الله هذه الحقيقة بقوله : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[1] .

وإذا سلَّمنا بهذه الحقيقة ، أدركنا اعتبار قضية الشكّ في صدق النبوة أو حقيقة الدين الإسلامي احتمالاً أقل قوةً من الاحتمال الأول ، وأدركنا في الوقت ذاته سرّ العدول عن الجملة الاسمية الدالّة على الثبات المطلق إلى صيغة الماضي الدال على ثبات نسبيّ . ويأتي العدول إلى صيغة المضارع (يخافون أن يحيف ...) ليعرض الاحتمال الثالث الأضعف في تفسير قضية التناقض عند هؤلاء المنافقين . فصيغة المضارع تحمل دلالة الشك وعدم اليقين في حقيقة وقوع الحدث خاصةً عندما يكون الحدث أمراً مستقبلياً كما في هذه الآية ، فإن رفضهم الاحتكام إلى الله ورسوله ، إنما هو بسبب خوفهم من الظلم الذي سيقع عليهم بعد الاحتكام فهو خوف مستقبلي بالقياس إلى الاحتكام . ولمّا كان الحدث المستقبلي غير محقق الوقوع ، فهو مشكوك في حدوثه ؛ لذلك عُدل إلى صيغة المضارع مع حدث الخوف ؛ لدلالة المضارع على الشك في حقيقة وقوع الحدث . وكأنّ السياق القرآني يرمي إلى نسف قضية خوف المنافقين من جور الله ورسوله من أساسها من خلال توظيف هذه الصيغة . ويعزز حرف الإضراب (بل) هذه الدلالة من خلال وظيفته السياقية في إبطال الحكم السابق عليه (جور الله ورسوله في الحكم) ، وإثبات الحكم الذي يليه (ظلم هؤلاء المنافقين) .

هذا التوظيف الأسلوبيّ لصيغة المضارع معدولةً عن صيغة الماضي ، ولحرف الإضراب (بل) في إبطال قضية الجور في الحكم المنسوبة إلى الله ورسوله ، يأتي متوافقاً وقناعة هؤلاء المنافقين ببراءة الله ورسوله من هذه التهمة، أما براءة الله فلا تحتاج إلى تدليل ، وأما براءة المصطفى – صلّى الله عليه وسلّم

---

١ النمل : ١٤ .

- فقد تأكدت لديهم بما لمسوه واقعياً من عدالته – صلّى الله عليه وسلّم - وصدقه وأمانته بحيث لا يمكن أن يكون – بحال - مظنّة الجور والحيف في الحكم .

٧- **(خلقه ، قال ، فيكون)** :

وذلك في قوله تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ **خَلَقَهُ** مِن تُرَابٍ ثِمَّ **قَالَ** لَهُ كُن **فَيَكُونُ**﴾[١] .

إن الزمن الذي يهيمن على بنية العدول في الآية هو الزمن الماضي ؛ لأنه يرسم ملامح قصة خلق سيدنا آدم عليه السلام ، وهي قصة تقع في حيِّز الزمن الماضي ؛ لأنها وقعت وانقضت . وهذه الحقيقة – فضلاً عن قانون الجوار – تجعل من المفترض أن تسير حركة الأفعال كلها باتجاه الزمن الماضي وعلى النحو الآتي : (خلقه من تراب ثم قال له : كن ، فكان) . فلِمَ آثر السياق العدول إلى صيغة المضارع مع فعل الكينونة ؟ .

يكاد المفسرون يجمعون على علة واحدة هي حكاية الحال الماضية [٢]. والغرض من حكاية الحال الماضية استحضار الصورة أمام المتلقي وكأنه حاضر في تلك اللحظة يشاهدها ويتابع مجريات الأحداث فيها ؛ وذلك إمّا لغرابة تلك الصورة ، أو لفظاعتها وهولها ، أولأنَّها ترسم منظراً حيوياً يفيض بالإثارة والحيوية ، أولاستخلاص العظة والعبرة من معطيات هذه الصورة .

والصورة التي تعرضها علينا بنية العدول هي صورة خلق أبينا آدم عليه السلام . وهي – في تقديري - صورة تنضوي على معظم الدلالات السابقة ، فهي من الفرادة والإدهاش بما يجعلها تستحق الوقوف عليها واستجلاء بواطنها وتقرِّي مواطن العبرة فيها .

---

١ آل عمران : ٥٩.

٢ ينظر : الكشاف : ١ / ٣٦٨ . ، الجامع لأحكام القرآن : ٤/ ١٠٢.، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل : ١ / ٢٤٣، وأنوار التنزيل : ٤٦/٢، زاد المسير : ١٩٩، إعراب القرآن للنحاس : ٣٨٢/١ ، التحرير والتنوير : ٣ / ١١٢.

وردت بنية هذه الصورة عقيب قصة ميلاد عيسى عليه السلام . ولما كانت هذه القصة من الأحداث الغريبة والأمور الخارقة للعادة ؛ لأنها تصور ميلاد إنسان من غير أبٍ ، فقد كانت محل شكٍّ وارتياب في صدق وقوعها حتى إن قوم مـريم عليها السلام – لاستبعادهم وقوع هذه القصة – اتهموها في عفتها . ويتكرر هـذا الشك والارتياب مع وفد نجران الذين وفدوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فقـد روي أن سيدَي نجران " لقيا نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم فسألاه عن عيسى فقالا : كل آدمي له أبٌ فما شأن عيسى لا أب له ؟ فأنزل عز وجلّ فيه هذه الآية (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون)"[١] .

ووجه الشبه بين قصة ميلاد عيسى وقصة خلق آدم عليهما السلام أنهما وجدا من غير أبٍ ، ولكنّ آدم عليه السلام – فضلاً عن ذلك – وجد من غير أمٍّ أيضاً . لذا تكون صورةُ خلق آدم عليه السلام أعجب وأغرب من صورة خلق عيسـى . وإذا كانت الخلائق مجمعةً ـــ بما فيها النصارى ـــ على أن آدم خلق من غير أبٍ ولا أمٍ ، فلا معنى ـــ إذاً ـــ لاستغرابهم خلق عيسى من غير أبٍ ؛ لوجود صورة خلْقية أغرب منها وأعجب . وخطاب الإقناع هذا يتكـئ علـى مسـلمات التفكير المنطقي والاحتجاجي العقلي .

من كل ما سبق ندرك القيمة البلاغية لحكايـة الحـال الماضـية بصـيغة المضارع . فإن حكاية خلق آدم عليه السلام بصيغة المضارع نقلت لنـا صـورة الخلق الغريبة العجيبة هذه ، وكأنها تحدث أمامنا في هذه اللحظة ولا يخفى ما في ذلك من بيان قدرة الله سبحانه على خلق إنسان من غير أبٍ ومن غير أم ، وخلقه رجلاً مكتملاً لم يمر بما مرَّ به أبناء جنسه من أطوار ومراحل تكوينية تطورية . وفي هذا رد على من شك أو ارتاب في صورة خلق عيسى من غيـر أب ، فقـد وجدت صورة خلْقية أغرب وأعجب هي صورة خلق آدم عليه السلام .

وهناك دلالة أخرى لهذا العدول غير دلالة حكاية الحال الماضية ، وقبـل أن نعرض لها يحسن بنا أن نلاحظ – أولاً – أن الفعل المعدول إليه (فيكون) وقع فعل

---

١ الجامع لأحكام القرآن : ٣/ ٢٠٨.

استجابة لفعل أمرٍ سبقه (كنْ) . هذه الملاحظة تساعدنا علـــى أو إدراك الغــرض البلاغي من العدول إلى صيغة المضارع مع فعل الاستجابة .

إن السياق يرمي من خلال هذا العــدول إلـــى التأكيــد علـــى أن اســتجابة المأمورات لأوامر الله تعالى مطردة متكررة لا تشذ عنها حالة استجابة واحـــدة . هذه الدلالة لا تتحقق إلا مع صيغة المضارع الذي ينفتح علـــى دلالـــة التكـــرار والتجدد والاستمرار .

ولو أنّ السياق سار على نسق واحد بصيغة المضي (فكانَ) لما تحققت هـــذه الدلالة ؛ ذلك لأنّ الأمر – حينئذٍ – سيقتصر على استجابة واحدة فحسب تحققــت من قبل سيدنا آدم لأمر واحد فقط من قبل الله ، وهذه الدلالة لا تحقّق مـــا يســـعى السياق إلى تحقيقه من بيان قدرة الله العظيمـــة المتمثلـــة فـــي اطّـــراد اســـتجابة المأمورات لأوامره تعالى في كل الأزمنة وفي كل الحالات .

ويلاحظ دخول (الفاء) الدالة على الترتيب والتعقيب على فعل الاســـتجابة . وهذا له دلالته أيضاً ، ففعل الاستجابة لأوامر الله من قبل المخلوقات – فضلاً عن حتمية وقوعه وتكراره واطّراده في كل الحالات – هو حتمي الوقوع عقب الأمـــر مباشرةً دون تراخٍ أو تطاول في الزمن بين الأمر وفعل الاستجابة ، وكأنّ الـــزمن بينهما يكاد ينعدم .

وأخيراً ، يحقِّق هذا العدول قيمة صوتيةً هي الحفاظ على توافـــق فواصـــل الآي.

٨ - (عبدتم ، أعبد):

وذلك في قوله تعالى : **(**وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا **عَبَدتُّمْ** وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا **أَعْبُدُ)**[١] .

يعرض سياق الآيتين الكريمتين قضية العبادة : عبادة النبيّ (صلّى الله عليـــه وسلّم) وأصحابه من جهة وعبادة الكافرين من جهةٍ أخرى . ومـــن خـــلال هـــذا العرض يسعى السياق إلى تأكيد نفي تحول أحد الطرفين إلى عبادة معبود الطرف

---

١ الكافرون : ٤، ٥.

الآخر . ومن مظاهر هذا التأكيد ووسائله الأسلوبية توظيف الجملة الاسمية في سياق النفي (ولا أنا عابدٌ ، ولا أنتم عابدون) ، واختيار اسم الفاعل للإخبار به في الجملتين . ولولا هذا الاختيار لما كان للجملة الاسمية أي دلالة على الثبوت ، ولهذا فإنَّها تكون مفرغةً من دلالة التأكيد . وفي ذلك يقول أبو البقاء : " والجملة الاسمية موضوعة للإخبار بثبوت المسند للمسند إليه بلا دلالة على تجددٍ أواستمرار ، وإذا كان خبرها اسماً فقد يُقصد به الدوام والاستمرار الثبوتي " [1].

وهذا يعني أن الجملة الاسمية التي يكون الخبر / المسند فيها اسماً حين تقع في سياق النفي ، تدلّ على ثبوت نفي الخبر / المسند عن المبتدأ / المسند إليه . فيكون معنى الآيتين : ثبوت نفي عبادة النبي معبودَ الكافرين وثبوت نفي عبادة الكافرين معبودَ النبي صلى الله عليه وسلم .

ويلاحظ تغاير فعل العبادة المسند إلى الكافرين مع نظيره المسند إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فقد أتى هذا الفعل – ابتداءً – مع الكافرين بصيغة الماضي (عبدتم) ، ثم عُدل إلى صيغة المضارع في الفعل المسند إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم (أعبدُ) . ونفترض اتحاد الصيغتين في بنية العمق بصورة الماضي (عبدتم ، عبدتُ) وهذا الافتراض يستند إلى قانون الجوار أولاً ، ثم يستند إلى مقتضيات وضروريات قانون التقابل ثانياً ، فإن الآيتين تمثلان بنيتين لغويتين متقابلتين :

إيمان	كفر
توحيد	شرك
ألوهية	وثنية
ثبات على الإيمان	ثبات على الكفر

هذا التقابل يقتضي اتفاق البنيتين المتقابلتين في العناصر اللغوية الموازنية إثباتاً ونفياً . وقد اتفقت البنيتان اللغويتان في معظم عناصر الموازنة بينهما ، فاتفقتا في حرف العطف والنفي : (ولا ، ولا) ، وفي أن المسند إليه ضمير (أنا ،

١ الكليات : ٣٤١ .

أنتم) وفي أن المسند اسم فاعل (عابدٌ ، عابدون) وفي أن المفعــول بــه اســم موصول (ما) .

إن الاتّفاق على مستوى هذه العناصر الثلاثة كان يفترض أن يحدث اتفــاق على مستوى العنصر الأخير (عبدتم ، عبدت) ، لكن المشــاهَد أن فعــل العبــادة المسند إلى الكافرين جاء ماضياً (عبدتم) في حين عُدل إلى صيغة المضارع مــع فعل العبادة المسند إلى الرسول صلى الله عليه وسلم (أعبد) ، فما دلالة ذلك ؟ .

يقول الزمخشري : " فإن قلت : فهلاّ قيل : (ما عبدت) كمــا قيــل : (مــا عبدتم)؟ ، قلت : لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل البعث ، وهو لم يكن يعبــد الله تعالى في ذلك الوقت "[1] .

ولئن كان الزمخشري قد وفِّق في التعليل لاختيار صيغة الماضي مع الفعــل المسند إلى الكافرين (عبدتم) ، فقد جانبه الصواب في التعليل للعدول إلى صــيغة المضارع مع الفعل المسند إلى الرسول صلى الله عليه وسلم (أعبد) ، فإن القصد إلى نفي عبادة الله عن النبي صلى الله عليه وسلم في الزمن الماضي مما لا يصدق ولا يصح ، فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعتزل قومه في غار حراء يتعبد الله تعالى[2] .

وكعادته في تتبع زلات الزمخشري ، يقفُ أبو حيّان عند هذا القول ويفنِّــده جملةً وتفصيلاً فيقول : " وأما قوله : وهو لم يكن ... إلى آخره ، فسوء أدب منه على منصب النبوة ، وهو أيضاً غير صحيح ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يــزل موحِّداً لله عز وجل منزهاً له عن كل ما لا يليق بجلاله ، مجتنباً لأصنامهم يحــج بيت الله ، ويقف بمشاعر إبراهيم عليه السلام . وهذه عبادة لله تعالى ، وأي عبادة أعظم من توحيد الله تعالى ، ونبذ أصنامهم . والمعرفةُ بالله تعــالى مــن أعظــم

١ الكشاف : ٤ / ٨٠٩ .

٢ يُنظر زاد المعاد في هدي خير العباد : ٤٥ ، مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلّم : ٨٥/١.

العبادات ، قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]. قال المفسرون : معناه : ليعرفون ، فسمّى الله تعالى المعرفة عبادةً "[2] .

وأبو حيّان ــ رغم وجاهة رأيه هذا ــ لا يُقدِّم تفسيراً لظاهرة العدول بقدر ما يبين خطأ الزمخشري في تفسير هذا العدول .

ويُقدِّم النووي الحاوي تفسيراً لطيفاً لظاهرة العدول في الآية فيقول : " وإنّما قال : (ما أعبد) في الرابعة ، ولم يقلْ : ما عبدت ؛ ليوافق (ما عبدتم) في الثالثة؛ لأن عبادته صلى الله عليه وسلم قبل البعثة لم تظهر لأحد بخلافها بعــدها ، أمــا عبادة الكافر قبل البعثة وبعدها فظاهرة عند الناس"[3].

ويرى القرطبي أن الغرض من هذا العدول هو الإشارة إلى أنّ ما عُبد فــي الماضي هو الذي سيُعبد في المستقبل "[4].

وفضلاً عما سبق ترفدنا بنيةُ العدول في الآية بدلالة إضافية هي الإلماع إلى أن عبادة الكفار الأصنامَ ماضية ذاهبة منقطعة ، وأن عبادة الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين اللهَ باقيةٌ مستمرةٌ دائمةٌ ، لذلك أُوثرت صيغة الماضي مــع تلــك وعدل إلى صيغة المضارع مع هذه . ومما يؤكِّد هذه الدلالة تحقق فحواهــا فــي الواقع فلم يبقَ في جزيرة العرب عابد صنم ، وظلّت عبادة الله دائمةً باقيةً .

٩ - (أصبناهم ، ونطبع) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّــوْ نَشَاء **أَصَبْنَاهُم** بِذُنُوبِهِمْ وَ**نَطْبَعُ** عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾[5].

يرجِّح قانون العطف تماثل الصيغتين في بنية العمق على النحو الآتي :

أصبناهم ــ طبعنا

---

١ الذاريات : ٥٦ .

٢ البحر المحيط : ٨ / ٥٢٣ .

٣ مراح لبيد (التفسير المنير) : ٢ / ٤٦٩ .

٤ الجامع لأحكام القرآن : ٢٢٥/٢٠.

٥ الأعراف : ١٠٠ .

ويسعى السياق من خلال العدول إلى صيغة المضارع (نطبع) لتحقيق الدلالات الآتية :

١- الإشارة إلى أن العذاب بالإصابة سابقٌ على العذاب بالطبع ، وقد أشير إلى هذه الدلالة بعدة مؤشرات : فعلى مستوى النظم قُدِّم فعل الإصابة على فعل الطبع ، وعلى مستوى بنية الزمن جيء بفعل الإصابة ماضياً وبفعل الطبع مضارعاً (وهو موضوع بحثنا) ، والماضي سابق على المضارع زمنياً . وعلى مستوى الواقع نجد أن العذاب بالإصابة عذاب دنيوي بداهةً وأن العذاب بالطبع على القلوب يترتب عليه عذاب أخروي استنتاجاً ؛ لأن الطبع على القلوب يعني ثباتها على الكفر حتى الموت ومن ثم تكون مستحقة لدخول النار وهذا لا يحدث إلا في الآخرة . ولا شك أن العذاب الدنيوي سابق على العذاب الأخروي .

٢- الإشارة إلى أن العذاب بالإصابة أخف من العذاب بالطبع ، وذلك مرتبط بمدة كل من العذابين فمدة العذاب الدنيوي قصيرة ؛ لذلك عبر عنها بصيغة الماضي الدالة على انقطاع الحدث وانصرامه ، ومدة العذاب الأخروي طويلة إلى ما لا نهاية ؛ لذلك عبر عنها بصيغة المضارع الدالة على الدوام والاستمرار . ثم إن العذاب بالإصابة مصحوب باحتمال التوبة والهداية ؛ لسلامته من الطبع المانع من الهداية فجيء معه بصيغة الماضي المفرغة من دلالة الاستمرار ، أما العذاب بالطبع فهو مصحوب بالتيئيس من الهداية لانقطاع أسبابها بفعل الطبع الإلهي ؛ لذلك آثر السياق صيغة المضارع الدالّة على الاستمرار في التعبير عنها .

٣- الإشارة إلى أنّ العذاب بالإصابة منقطع منتهٍ مهما طال ؛لأنه مرتبط بمدة بقاء الكافرين في الدنيا ، أما العذاب بالطبع على القلوب فهو دائم مستمر ؛ لأنَّ نتيجتَه خلودٌ في النار ؛ لذلك جيء معه بصيغة المضارع الدالّ على الاستمرار والتجدُّد ومع العذاب بالإصابة بالفعل الماضي الدالِّ على الانقطاع والزوال .

٤- ومن دلالات العدول إلى صيغة المضارع مع فعل الطبع استحضار صورة الطبع على القلوب إلى ذهن المتلقي وكأنه حاضرٌ يشاهد تكون ملامح هذه

الصورة بكل ما تفيض به من دلالات السخط الجامح والغضب المريع للذات الإلهيَّة حين يصدر الأمر الإلهي بالختم على قلوب الكافرين الذين تمادوا في غيّهم وثبتوا على كفرهم فاستحقوا هذا الحكم المؤيس من التوبة وقبول الهداية ويأتي قوله تعالى: " فهم لا يسمعون " ليؤكد هذه الدلالة وكأنّ هذه الصورة قد اكتملت أجزاؤها وتحددت ملامحها وأصبحت صورةً ماثلة للعيان .

وأخيراً يُكسب هذا العدول السّياقَ قيمةً جماليَّةً إيقاعيةً هي تجانس الفعل (نطبع) في هذا السّياق مع ذات الفعل الوارد في سياق الآية التالية ﴿...كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾[1] على مستوى الصيغة والمادة المعجمية .

١٠ - (ظلمهم ، يظلمون) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هِذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا **ظَلَمَهُمُ** اللّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ **يَظْلِمُونَ**﴾[2] .

من الدلالات التي ينفتح عليها الفعل المضارع دلالته على التكرار والتجدد يقول عبد القاهر : " وأمّا الفعل فموضوعه على أنّه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء "[3] . ويقول السامرائي : " ... في حين أنّ يحفظ أو يخطب أو يكرم أو يجود تدلُّ على التجدد والحدوث "[4] وهذه الدلالة ينهض بها الفعل المضارع ذاتيا من خلال صيغته فحسب . فإذا ما وجدت – في السياق – قرائن لفظية أخرى تدعم وظيفة صيغة المضارع في أداء هذه الدلالة ، فيكون ذلك على سبيل التوكيد ليس غير. فحين نقول مثلاً : يسافر محمد إلى صنعاء ، فإن صيغة المضارع (يسافر) تحيل إلى دلالة تكرار حدث السفر وتجدّده ، أما حين نضيف إلى العبارة السابقة إحدى الكلمات الآتية (دائماً ، أسبوعياً ، باستمرار ... إلخ) فإن

---

١ الأعراف : ١٠١ .

٢ آل عمران : ١١٧ .

٣ دلائل الإعجاز : ١٣٣، ١٣٤.

٤ معاني الأبنية : ٩

هذه الإضافة قرينة لفظية أريد بها التأكيد على تكرار حدث السفر وتجدده . وتبقى دلالة صيغة المضارع على التكرار والتجدد قائمةً دون الحاجة إلى مثل هذه القرائن الإضافية .

أمّا صيغة الماضي فلا تعطي دلالةً حاسمة على عدد مرات ممارسة الحدث، ففي نحو قولنا : سافر محمد إلى صنعاء ، تظل صيغة الماضي منفتحةً على احتمال وقوع الحدث في الماضي مرةً واحدةً أو مرات متعدِّدة . ويصبح حضور القرينة اللفظية في السياق ضرورةً ملحّةً لحسم هذه القضية ، فعند سماعنا لعبارة مثل : سافر محمد إلى صنعاء في الأسبوع الماضي / أو أمسِ ، نفهم أن السفر حدث مرةً واحدةً (هذا في حيّز العبارة المنطوقة) ، ولكن ذلك لا يمنع من أنه قد سافر قبلُ عدةَ مرات . وقد قامت عبارة (في الأسبوع الماضي) أو كلمة (أمسِ) مقام القرينة اللفظية الضابطة لعدد مرات السفر بمرة واحدة . أما حين نسمع عبارةً مثلَ : سافر محمد إلى صنعاء باستمرار ، فإن الكلمة الأخيرة (باستمرار) تؤدي دوراً فاعلاً في الدلالة على تكرر مرات السفر في حيّز الزمن الماضي .

هذه الديباجة النظرية كان لا بُدَّ منها ونحن بصدد مقاربة بنية العدول في الآية الكريمة ؛ حتى يتسنى لنا فهم المعطيات اللغوية التي نتكئ عليها في مقاربة هذه البنية .

نلاحظ – ابتداءً – أنّ بنية العدول في الآية وردت في سياق أسلوب تشبيهي شُبِّهت فيه حال الكافرين الذين بذلوا أموالهم وأنفقوها في أبواب الشرّ ، فعاقبهم الله بإحباط أجر هذه النفقة ؛ لأنها لم تكن لله ، بحال الزراع الذين بالغوا في العناية بزرعهم وأمَّلوا الخير والكسب العميم من ورائه ، ولكنهم لم يؤدوا حق الله فيه فعاقبهم الله بإرسال ريحٍ فيها برد شديد أهلكته. ثم تأتي بنية العدول لتؤكد على أن هذا العقاب لم يكن بظلم من الله – تعالى الله عن ذلك- وإنما هو بسبب ظلم هؤلاء أنفسهم : (وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون) .

ويلاحظ أن بنية العدول في الآية تقوم على نفي وإثبات : نفي الظلم عن الله وإثباته لهؤلاء الزُّراع ، ويلاحظ كذلك أن نفي الظلم عن الله وقع بصيغة الماضي

(وما ظلمهم الله) وأنّ إثباته لهؤلاء الزراع وقع بصيغة المضارع (ولكن أنفسهم يظلمون) . وكان مقتضى قانون الجوار أن يثبت فعل الظلم المسند إلى هؤلاء بصيغة الماضي (ولكن أنفسهم ظلموا) ، فما سر هذا العدول ؟ .

إن اختيار صيغة الماضي –ابتداءً – لنفي الظلم عن الله سبحانه ، أبلغ من اختيار صيغة أُخرى كالمضارع مثلاً ؛ لأن اختيار الماضي – هُنا- يدل على نفي صدور الظلم عن الله لمرة واحدة ، وهذا أبلغ من نفي استمرار صدور الظلم عن الله تعالى ؛ لأن نفي الأقل يقتضي نفي الأكثر ولا عكس . وأما القرينة اللفظية التي منحتنا الحق في الحكم بدلالة صيغة الماضي (ظلمناهم) على وقوع حدث الظلم مرة واحدة ، فهي السياق اللغوي المتضمن لبنية المشبه به (كمثل ريحٍ فيها صرٌّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته) . فبحضور هذه القرينة يصبح المعنى أن الله ما ظلمهم في هذه الحادثة التي أهلكت فيها الريح الباردة حرثهم ، وهي حادثة وقعت لمرة واحدة فيكون فعل الظلم الماضي المنفي دالاً على انتفاء وقوع حدث الظلم لمرة واحدة .

هذا في جانب الله سبحانه وأما في جانب هؤلاء الزراع فإن العدول إلى صيغة المضارع في نسبة الظلم إليهم وإثباته لهم ، هو أبلغ من استعمال الماضي ، لماذا ؟ لأن هذا العدول يحمل دلالات عدة منها :

١- بيان الفارق بين الخالق والمخلوق ، فالخالق الذي هو قادرٌ عزيز غالب يترفع عن الظلم ويستحيل صدوره عنه ولو مرةً واحدةً . وهذا المخلوق العاجز الضعيف الذي لا يملك من أمره شيئاً يمارس الظلم ويكرره .. هذا مع نفسه ، فكيف مع غيره ؟!!

٢- الإشارة إلى أن الإنسان مجبول على نسيان عقوبة الذنب مهيأ لتكراره ، فالسياق القرآني من خلال هذا العدول يؤكد أنهم لم يتعظوا بما أصابهم من عقوبة جراء هذا الظلم ، بل إنهم مهيأون لتكرار هذا الظلم مستعدون لممارسته في المستقبل.

٣- أن ظلم الإنسان لنفسه لمّا كان مظنة الاستبعاد ؛ لاستحالة وقوعه – ظاهرياً – ولو مرة واحدة ، فقد أراد السياق التأكيد على حضور هذا الشيئ المستبعد في الواقع بجعل هذا الفعل من سلوكيات الإنسان وصفاته المستمرة ، فاختار السياق صيغة المضارع لتحقيق هذه الدلالة .

١١- (خلق ، يخلق) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿**خَلَقَ** السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ . **خَلَقَ** الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ . وَالأَنْعَامَ **خَلَقَهَا** لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ . وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ . وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَ**يَخْلُقُ** مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[١] .

تعرض الآية الكريمة قضية من أهم القضايا الدالة على عظمة الله سبحانه وتعالى وقدرته ، التي تعد معياراً فاصلاً وحاسماً بين الألوهية الحقيقية والألوهية الزائفة . إنها قضية الخلق بكل ما تبعثه هذه الكلمة من مشاعر الرهبة والجلال والعظمة إزاء هذا الإله العظيم القادر على إيجاد أشياء من العدم . هذه الظاهرة المحيرة – بمقاييس البشر – لها من الحضور المشاهد المحسوس في صفحات الكون ما يغني عن الاستشهاد له . وما ورد في هذه الآيات من وصف لخلق السماوات والأرض وخلق الإنسان وخلق الأنعام والدوابّ إنما هو على سبيل التذكير وتأكيد الحضور ليس إلاّ ؛ لأن مثول الظاهرة أمام الإنسان وتكرر حدوثها يفقدها جدّتها وفرادتها فيُحرم الإنسان فضيلة الاتعاظ والاعتبار ومزيَّة التأمل والتدبُّر .

وفي سياق التمثيل لظواهر الخلق المشاهدة المحسوسة المعروضة في الآيات السابقة ، تهيمن صيغة الماضي على الموقف بما تنفتح عليه من الدلالة على التحقق وانقطاع الحدث . والحقيقة أن هذه الظواهر – باستثناء ظاهرة خلق السماوات والأرض – هي من الظواهر المتكررة المتجددة التي حدثت في الماضي

---

١ النحل : ٣-٨.

وتحدث في الحاضر والمستقبل ، وكان يمكن لصيغة المضارع أن تـنهض بهـذه الدلالة . فلم اختيرت صيغة الماضي – في هذا المقام – دون صيغة المضارع ؟ .

إن ظاهرتي خلق الإنسان وخلق الأنعام من الظواهر المسلَّمة التي لا تتـاكر حولها ، فاطّراد وقوعهما وتكرُّره مما لا يختلف فيه اثنان . ولما كان ذلك كذلك لم يحتج السياق إلى إيراد صيغة المضارع (يخلق) مع هاتين الظاهرتين ؛ لأن السياق القرآني لا يوظف كلمةً أو صيغةً معينةً إلا لتحقيق غرض معين ، ولما كان هـذا الغرض ظاهراً والمعنى مسلماً به لم يؤتَ بصيغة المضارع الدالة على تأكيد تجدد الحدث وتكرره ؛ لأن تأكيد المعنى مع المسلمات مما يتنـافى وحقيقـة البلاغـة والفصاحة عند البلغاء الفصحاء من الناس فكيف مع القرآن الكريم ؟! لذلك جـيء بفعل الخلق مع هاتين الظاهرتين ماضيا للإشارة إلى تسليم المتلقي بتحقق وقوعه .

وإذا كان السياق القرآني آثر صيغة الماضي في التعبير عن قضـية خلـق المحسوسات المشاهدات (خلق) ، فإنه يعدل عنها إلى صـيغة المضـارع حـين يصبح الحديث عن قضية خلق الغيبيات غير المرئية (ويخلق مـا لا تعلمـون) . فهل لهذا العدول علة معتبرة تقف وراءه ، أو إنَّها العلة التقليدية ، علّـة التنويـع والترويح عن السامعين ؟

إنَّ التأمُّل الدقيق في بنية المعدول إليه يكشف عن قيم دلالية تحققها ظـاهرة العدول إلى صيغة المضارع . من هذه الدلالات :

١- حكاية الحال الماضية[١]؛ لاستحضار صورتها في الأذهان . وفائدة ذلك ، التنبيه على تزامن حدوث عمليات خلق غير مشاهدة وغير معروفة مع عمليـات خلق المحسوسات المشاهدة التي ذكرتها الآيات الكريمة بغرض بيـان قـدرة الله الظاهرة والخفية.

٢- الدلالة على الاستمرار والتجدد [٢].

[١] يُنظر في الدلالتين السابقتين : روح المعاني : ٧/ ٣٤٥، التحرير والتنوير : ١٣/ ٨٨ .
٢ المصدران السابقان بصفحتيهما.

فإذا كانت حكاية الحال الماضية تصف قدرة الله – في ما مضى – على خلق أشياء لا يعلمها الإنسان ولا يراها ، فإنّ هذه الدلالة تشير إلى عمليات خلقٍ متجددة ومتكررة تحصل في الزمنين الحاضر والمستقبل دون أن يراها الناس ولا يعلموا عنها شيئاً ، سواءٌ كانت هذه المخلوقات من أنواع الحشرات والهوام مما يوجد في باطن الأرض أو قعر البحر[1]. أم كانت مما أعده الله في الجنة للمؤمنين وفي النار للكافرين[2].

٣- وأخيراً ، فإن صيغة المضارع (يخلق) تأتي منسجمةً مع سياق منهمر من الأفعال المضارعة المبثوثة في السياق القريب منها مما يحقق نوعاً من التجانس والتوافق الصيغي بين هذه الأفعال وهي : تأكلون ، تُريحون ، تسرحون ، تحمل ، تكونوا ، لتركبوها ، تعلمون .

١٢- (أنزل ، فسلكه ، يخرج ، يهيج ، يجعله) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ **أَنزَلَ** مِنَ السَّمَاء مَاء **فَسَلَكَهُ** يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ **يُخْرِجُ** بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ **يَهِيجُ** فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ **يَجْعَلُهُ** حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾[3].

يرسم سياق الآية مشهداً حيوياً لظاهرة من الظواهر الطبيعية التي تكاد الألفة تذهب بجدتها وإثارتها لولا خاطرة من تأمل وسانحة من تدبر . إنها ظاهرة نزول المطر وخروج الزرع بكل ما تبشر به هذه الظاهرة من خصب ونماء ثم ما يعقب ذلك من جدب وذبول . وهي من الظواهر التي تحدث تدريجياً عبر مراحل وأطوار زمنية تبدأ بنزول المطر فغوره في الأرض ثم خروج الزرع ثم هيجانه فاصفراره فصيرورته هشيماً وحطاماً .

وبملحظٍ منْ أنّ السياق يرسم ملامح هذه الظاهرة الحيوية من خلال توظيف خمسة أفعال أساسية هي (أنزل ، فسلكه ، يخرج ، يهيج ، يجعله) وأنّ الفعلين

---

١ الجامع لأحكام القرآن : ١٠/ ٧٣.

٢ جامع البيان عن تأويل القرآن : ١٤/ ٥٨.

٣ الزمر : ٢١.

الأولين جاءا بصيغة الماضي في حين جاءت الأفعـال الثلاثـة الباقيـة بصـيغة المضارع ، فإن السؤال الذي يفرض نفسه هو : لِـمَ استهل السـياق بنيـة هـذه الصورة بصيغتي الماضي ؟ ولِـمَ عدل عنهما إلى صيغ المضارع لاحقاً ؟ .

إن علاقة حدث نزول المطر بما بعده من أحداث هي علاقة السبب بالمسبب أو العلة بالمعلول ، ومن بديهيات الأمور أن السبب سابق على المسبب ، وأن العلة مقدمة على المعلول . ومن هُنا ندرك سرَّ اختيار صيغة الماضي مع فعل نـزول المطر ، ثم العدول إلى صيغة المضارع مع الأحداث أو الأفعال التالية . فصـيغة الماضي تشير إلى زمن ماض منصرم وصيغة المضارع تشير إلى زمن لاحـق تالٍ للزمن الماضي .

فترتيب الأفعال –إذاً – ناشئٌ عن ترتيب الأحداث . وليس هذا – فحسـب – كل ما تحفل به بنية العدول من دلالات ، إذ لو كان الغرض هـو الإشـارة إلـى تراتب الأحداث فحسب لنهضت صيغة الماضي بهذه الوظيفة خاصةً مـع وجـود حرف العطف (ثمَّ) الذي يشير إلى أن المعطـوف عليـه سـابقٌ زمنيـاً علـى المعطوف. فلا شك – إذاً – أن اختيار صيغة المضارع في هذا السياق مؤسـس على نوع خصوصية وتفرد لهذه الصيغة في أداء وظيفةٍ ما تتعثّر صيغة الماضي في أدائها . إنها دلالة الامتداد النسبي للزمن . ألسنا أمام مشهد متحـرك ينـبض بالحياة في بنية الأحداث المصوّرة تصويراً إبداعياً فريداً يعرض عظمـة القـدرة الإلهية في أسمى تجلياتها ؟! أوليس المقام مقام عظة واعتبار ؟! أوليسـت هـذه الصورة انعكاساً لصورة أخرى مسرح الأحداث فيها هو الإنسان ذاته ؟!.

من هنا تكتسب هذه الصورة أهميتها . وتفرض على الرائي التأمل بعمـق وتمهّل ... فالأمر عجيب والحدث مدهش .

وهكذا تتضافر دلالة صيغة المضارع على استحضـار الصـورة ورسـم ملامحها بدقة مع دلالته على الامتداد النسبي للزمن والاستمرار المحدود له فـي إعطاء الإنسان مهلةً للتأمل وتقرّي مواطن العظة والعبرة فيما يـرى ، ويـؤدي حرف العطف (ثمَّ) دوراً فاعلاً في تعزيز هذه الدلالة ، فهو حيثما وجد في السياق

يُعطي " هذه (المهلة) للعين والنفس ؛ لتحكي المشهد المعروض قبل طيّه وعرض المشهد التالي"[١].

وفي ضوء هذه الملاحظة الأخيرة ندرك علّة مجيء فعل السَّلك (فسلكه) ماضياً ، وخروجه عن سياق المضارعة الذي ينتظم كل الأفعال التالية له ، واستئثاره بحرف العطف(الفاء) دونها .

إن فعل السَّلك وإن كان جزءاً من هذه الظاهرة الطبيعية هو حدث لا يمكن إخضاعه للرقابة والتأمل لحدوثه تحت سطح الأرض حيث تقف حاسة البصر عاجزةً عن ملاحظة ما يجري وعن تتبع حركة الماء في رحلة السلك هذه في أغوار الأرض ، فآثر السياق صيغة الماضي الدالة على انقطاع الحدث وعدم استمراره للإشارة إلى انقطاع الامتداد الزمني لهذه الصورة وغياب المشاهد المتحركة خلف الستار الترابي .

ومن جهة أخرى تسير صيغة الماضي (فسلكه) إلى قرب زمن سَلْكِ الماء في الأرض من زمن نزول المطر فبمجرد نزول المطر نجده يغور في الأرض فالزمن بين الحدثين يكاد يتلاشى ، لقرب ما بين زمن نزول المطر وزمن سلكه في الأرض ثم جيء بالفاء العاطفة الدالَّة على الترتيب والتعقيب لتعزيز هذه الدلالة. وهكذا ندرك أن هذه المغايرة بين فعل السلك وما يليه من أفعال على مستوى الزمن أولاً ثم على مستوى نوع حرف العطف المصاحب ثانياً مقصودة وذات قيمة دلالية مدهشة.

وتكتنز بنية المعدول (المضارع) دلالة أخرى ، هي الإلماع إلى تكرار عملية خروج الزرع ثم هيجانه واصفراره ثم صيرورته حطاماً أكثر من مرّة ، والماء النازل من السماء واحد ، فقد يؤدي نزول المطر إلى تشبع الأرض به فيخرج الزرع ثم يمر ببقية المراحل ، ثم تتفجر الأرض عيوناً وينابيع وتبذر البذور وتسقى من هذا الماء فيخرج الزرع ثم تتكرر هذه العملية والماء واحد . ولا مجال للقول بأن المراد في الآية الإشارة إلى تكرار عملية خروج الزرع وما يتبعها من

---

١ التصوير الفني في القرآن : ٦٩.

مراحل لتكرار نزول المطر ؛ لأن هذا التأويل يصح فيما لو جاء فعل النـزول بصيغة المضارع ، أمّا وقد جاء بناء الزمن مع فعل نزول المطر ماضياً فتترجّح الدلالة الأولى .

١٣ - (سخَّر ، يمسك) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ **سَخَّرَ** لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ **وَيُمْسِكُ** السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1] .

يقول الفخر الرازي في قوله تعالى : "ويمسك السماء ..." " واعلم أن النعم المتقدمة لا تكمل إلا بهذه ؛ لأن السماء مسكن الملائكة فوجب أن يكون صلباً ووجب أن يكون ثقيلاً ، وما كان كذلك فلا بُدَّ من الهوي لولا مانع يمنع منه"[2].

ويقول الآلوسي : "والتعبير بالمضارع ؛ لإفادة الاستمرار التجددي ، أي : يمسكها آناً فآناً من الوقوع"[3].

ويقول ابن عاشور : "ومناسبة عطف إمساك السماوات على تسخير الأرض وتسخير الفلك ، أنّ إمساك السماء عن أن تقع على الأرض ضربٌ من التسخير لما في عظمة المخلوقات السماوية من مقتضيات تغلّبها على المخلوقات الأرضية وحطْمِها لولا ما قدَّر الله تعالى لكل نوعٍ منها من سنن ونظم تمنع من تسلط بعضها على بعضٍ"[4].

يشير الفخر الرازي في قوله السابق إلى قانون من قوانين الطبيعة الثابتة ، إنه قانون السقوط أو (الهَوْي) على حدِّ تعبيره ، وهو من خصائص العلويات أو الفوقيات ، فكل عنصر عالٍ من عناصر الطبيعة محكومٌ بمعطيات هذا القانون ، فإذا ما انضاف إلى خصيصة العلوّ خصيصتا الصلابة والثقل أصبح هذا القانون

---

١ الحج : ٦٥.

٢ مفاتيح الغيب : مج ١٢ ، ج ٢٣ / ٦٤ .

٣ روح المعاني : ٩ / ١٨٤ .

٤ التحرير والتنوير : ١٧ / ٢٣٢ .

حتميَّ الاطراد . والسماء أحد هذه العناصر العلوية ، بل إنها أبرزهـا وأجـدرها بالاستجابة لمقتضيات هذا القانون ؛ لأنها الأعلى والأصلب والأثقل .

ولما كانت كل المخلوقات خاضعةً لقانون عامٍّ يطغى علـى كـل القـوانين الخاصة ويهيمن عليها هو (قانون التسخير) ، فـإن تجـاوز القـوانين الخاصـة وخرقها يصبح أمرا طبيعياً ومألوفاً . وتمثل بنية المعدول إليه (ويمسـك) أحـد الخروقات الواضحة لقانون الهوي ، فالسماء لا تقع على الأرض ؛ لأنها محكومة بقانون التسخير الإلهي .

وإذا كان إمساك السماء ضرباً من التسخير – كما يرى ابن عاشور – فلِـمَ انفرد هذا الضرب من التسخير بصيغة مغايرة (المضـارع) لصـيغة الماضـي (سخَّر) الظاهرة مع (ما في الأرض) والمقدرة مع (الفلك) ؟ .

يحيل نصُّ الآلوسي السابق - في تفسير ظاهرة العدول إلى صيغة المضارع في الآية- على دلالة الاستمرار التجددي . ودلالة الاستمرار في حيّز المضـارع يقصد بها استغراق هذه الصيغة للزمنين الحاضر والمستقبل في تأطير الحدث الذي تعبر عنه .

والحقيقة أنّ صيغة المضارع في بنية المعدول إليه في هذه الآية (يمسـك) تكتسب دلالةً سياقيةً خاصة ، إذْ أصبحت في هذا السياق دالَّةً على استيعاب الزمن المطلق بأقسامه الثلاثة (الماضي والحاضر والمستقبل). أي إنَّ صيغة المضارع – هُنا - أُفرغت من الدلالة على زمنٍ معين حتى تكون صالحةً لاسـتيعاب جميـع أقسام الزمن وأجزائه .

هذا التفرُّد الدلاليُّ لصيغة المضارع في هذا السياق إنما اكتسبته هذه الصيغة من أمرين :

- **الأول** : طبيعة المسند إليه في علاقة الإسناد . فالمسند إليه هو الله تعـالى إذ هو فاعل الإمساك ومع هذا الفاعل العظيم تصبح دلالة الفعل علـى اسـتغراق الحدث (الإمساك) لأقسام الزمن المطلق منطقيةً وممكنةً .

- **الثاني** : طبيعة الفعل المسند (يمسك) . إنّه فعل استثنائيّ متفرّد بحجم جميع الأفعال الأخرى التي استوعبت أنواع النعم المسخّرة ؛ لأن النعم الأخرى " لا تكمل إلا بهذه " على حد تعبير الرازي .

إن كل النعم التي نتفيأ ظلالها ونتقلب في أكنافها صباح مساء مرهونة أو هي مشروطة ببقاء نعمة إمساك السماء . ففي لحظة واحدة ترفع فيها المشيئة الإلهية عنايتها وإمساكها للسماء.. حينئذٍ تستجيب هذه السماء لقانون السقوط أو الهَوْي فتقع على الأرض ليصبح كل من عليها وما عليها كأن لم يكونوا . هذا الحفظ الإلهي والإمساك الرباني للسماء من أن تقع على الأرض يمتدُّ – من خلال صيغة المضارع – ليستغرقَ الزمن الماضي إلى جذوره البعيدة الضاربة في القدم وإلا لما كان لنا وللكائنات الموجودة في الزمن الحاضر والتي ستوجد في الزمن الآتي وجود أصلاً .

هذا التفرد الوظيفي وهذه الخصوصية الأسلوبية وهذا الثراء الدلالي الذي تكتنزه صيغة المضارع في هذا السياق ، كل ذلك يقدم مبرِّرات مقنعة وتفسيرات مقبولة لظاهرة العدول في الآية .

وجانبٌ آخر من جوانب الكفاية الوظيفية لصيغة المضارع . إنها كفاية التصوير وتأطير الأحداث ، فالدلالة الآنية لهذه الصيغة تجعل الحدث حاضراً أمام المتلقي يتفاعل معه وينفعل به . وأيّ صورة هي أغرب من هذه الصورة ؟ وأي منظر هو أقدر على إثارة مشاعر الرهبة والروعة من هذا المنظر ؟. أي قُوّة هائلة تمسك هذا المخلوق المعلَّق في الفضاء بكل ما فيه من سمات الضخامة والسعة والامتداد ؟ وماذا لو أطلق لهذا ا لمخلوق العنان ومُنح حرية الحركة والسقوط ؟! .

كل هذه التساؤلات تنثال على ذهن المتلقي وهو يقف مشدوهاً أمام هذه الصورة الحاضرة المروِّعة التي أبدع السياق القرآني رسمها من خلال توظيف صيغة المضارع (يمسك) بكل ما تفيض به هذه الصيغة من دلالات الترقب والتوجّس والانبهار.

١٤ - (اتخذوا ، يحسبون) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ **اتَّخَذُوا** الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ وَ**يَحْسَبُونَ** أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[١] .

يمنح السياق الخارجي للآية (سبب النزول) الدارس حق الجزم باتحاد الأفعال في بنية العمق على صيغة الماضي . فإن الإخبار هنا عن كفار مكة الذين خاطبهم الله سبحانه وتعالى في الآية السابقة لهذه الآية بقوله : ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[٢]. وقد جاء هذا الخطاب عقيب الاستنكار عليهم قيامهم بالطواف عُراةً حول البيت الحرام [٣].

فالإخبار –إذنْ – عن قومٍ مضوا وذهبوا وزمن الإخبار عنهم هو الزمن الماضي ؛ لذلك يُصبحُ ورود أفعال ماضية في سياق الإخبار عن هؤلاء (هَدَى ، حقَّ ، اتخذوا) مما يتّسق ومقتضى هذا السياق التاريخي . ويصبح ورود فعل مضارع (يحسبون) في هذا السياق مظهرا من مظاهر كسر الاتِّساق والعدول عن النَّسق . هذا على مستوى السياق الخارجيّ ، وهو كذلك على مستوى السياق اللغوي الداخلي ، فإن قانوني الجوار والعطف يؤكدان ضرورة هذا الاتَّساق ، لكن التشكيل اللغويّ الإبداعي والبناء الفني المتفرد يكسران كل القواعد ويتمرَّدان على كل القوانين وما العدول إلى صيغة المضارع في هذا السياق إلا مظهرٌ من مظاهر هذا التشكيل وصورةٌ من صور هذا البناء على المستويين المعنوي والإيقاعي .

فعلى مستوى المعنى تصبح هذه الصيغة مؤشراً " إلى استمراريتهم في حسبانهم أنهم مهتدون ظناً منهم أنهم ليسوا على ضلال " [٤].

---

١ الأعراف : ٣٠.

٢ الأعراف : ٢٩.

٣ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٥/ ٤٦٥ ، تفسير القرآن العظيم : ٢/ ٢٧٩، الجامع لأحكام القرآن : ٧/ ١٦٧ .

٤ تأويل اللفظة باللفظة ذواتي الجذر الواحد في القرآن الكريم – دراسة نحوية دلالية :٢٣.

وأمّا على مستوى الإيقاع ، فإنها – وإن تجاوزت قانون الجـوار والتناسـق الصيغي مع الأفعال الماضية – فإنها تتجاوب إيقاعياً مع صيغة أخـرى رابطـة الجوار معها أقوى وآكد هي صيغة (مهتدون) في فاصلة الآية.[١]

إنّ هذه الصيغة الأخيرة وإن كانت تتنافر مـع صـيغة المضـارع صـيغياً (فالأولى فعل والثانية اسم) وزنةً (فالأولى على وزن "يَفْعَلُون" والثانية على وزن " مُفْتَعِلُون" ، فإنها تتجذب إليها صوتياً ومقطعياً ،فكلتاهما مكون من : مقطع طويل مغلق + مقطع قصير مفتوح + مقطع مديد مغلق بصامت ، على النحو الآتي :

يَحسَبون	مُهتَدون
يَحـ + سَ + بون	مُهـ + تَ + دون
يـ ـَ ح + س ـَ + بـ ـُ ن	مـ ـُ هـ + ت ـَ + د ـُ ن
ص حق ص+ ص حق+ص حط ص	ص حق ص+ص حق+ص حط ص

وتجدر الإشارة إلى أنَّ المقطع المديد المغلق بصامت في الآية (بُوْنْ ، دُوْنْ) إنما يكون في حال الوقف ، أمَّا في حال الوصل فإنّ المقطع المديد ينفصل إلى مقطعين : مقطع طويل مفتوح (بُوْ ، دُوْ) + مقطع قصير مفتوح (نَ ، نَ).

ولعلَّ في هذا الانسجام الصوتي والائتلاف المقطعي بين هاتين الصيغتين ما يبرِّر تجاوز صيغة المضارع لسلطة القوانين الثلاثة (قانون السياق التاريخي ، قانون الجوار مع الصيغ الماضية السابقة ، قانون العطف).

١٥ - ومن الصور العدولية التي تحمل فكرةً مشابهةً لفكرة الصورة السابقة قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ **عَاهَدتَّ** مِنْهُمْ ثُمَّ **يَنقُضُونَ** عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ﴾[٢].

---

١ إنما قلنا : إن رابطة الجوار بين هاتين الصيغتين أقوى وآكد لقرب ما بينهما إذ لا يفصل الأولى عن الثانية سوى كلمة واحدة (أنهم) في حين أن الفاصل بين صيغة المضارع وأقرب صيغة من صيغ الماضي السابق عليها (اتخذوا) خمس كلمات (الشياطين ، أولياء ، من ، دون ، الله) .

٢ الأنفال : ٥٦ .

فإنّ العدول إلى صيغة المضارع (ينقضون) يشير إلى استمرار نقضهم للعهد في كل حال[1]. ومن الدوالّ الدّاعمة لهذه الدّلالة قوله تعالى : " في كل مرة " .

ويضيف ابن شهاب دلالةً آخرى لهذا العدول هي تصوير عملية نقض العهد:" لاستحضار صورته في النفس وتصويره في القلب ؛ لأن نقض العهد من الصفات الدنيئة التي لا ينبغي أن يتصف بها إنسان "[2]. ومن الدوالّ الداعمة لهذه الفكرة قوله تعالى : "عهدهم " فإن إضافة العهد إليهم مما يزيد صورة النقض بشاعةً وغرابةً إذ كيف ينقض الإنسان ما هو له . وفي هذه الإضافة أيضاً إشارة إلى أنّ عائد هذا العهد وفائدته آيلٌ إليهم ففيه حقن لدمائهم وموجبٌ لنصرة المسلمين لهم . ومن هذه الدوالّ – أيضاً – قوله تعالى:" وهم لا يتقون" فإنّ نقضهم العهد متلبسٌ بانعدام التقوى لدى هؤلاء فهم لا يقدرون تَبِعَات هذا الجُرم البشع ولا يتقون عواقبه الوخيمة .

ويحقِّق هذا العدول غرضاً إيقاعياً هو الاتّساق الصيغيّ المقطعيّ مع صيغة الفاصلة(يتّقون) فكلتاهما على صيغة واحدة (المضارع) ومُكوّنة من المقاطع الصوتيّة ذاتها: مقطع طويل مغلق + مقطع قصير مفتوح + مقطع مديد مغلق بصامت على النحو الآتي

يَنقُضُون	يَتَّقون ــ يتتَقون
ينـــ + قُ + ضُون	يَتـــ + تـَــ + قون
يـــ ـــَ ن + ق ـــُ + ض ـــٌ ن	يـــ ـــَ تـــ + تـــ ـــَ + قـــ ـــٌ ن
ص حق ص+ ص حق+ص حط ص	ص حق ص+ ص حق+ص حط ص

وأخيراً تتجاوز صيغةُ المعدول إليه (ينقضون) قانونَ الجوار وما يقتضيه هذا القانون من تجنيس هذه الصيغة مع صيغة الماضي المجاورة (عاهدت) ؛ لتتجاوبَ إيقاعياً مع صيغة أخرى رابطة

١ يُنظر فتح القدير : ٢ / ٤٥٨، تأويل اللفظة باللفظة : ٢١.

٢ تأويل اللفظة باللفظة ذواتي الجذر الواحد في القرآن الكريم _ دراسة نحوية دلالية : ٢١.

الجــــــــوار التركيبيّ معـــــــها أضعف هي صيغة الفاصـــلة (يتَّقـــون) إذْ يفصلها عن صيغة المعدول إليه ستٌّ كلمات (عهدهم ، في ، كل ، مرة ، وهم ، لا) في حين إنّ الفاصل بين صيغة المعدول إليه وصيغة الماضي كلمتـــان فحســـب (منهم ، ثمَّ) . والذي جعل الصيغة المعدول إليها (ينقضون) تتجاوز الصـــيغة القريبة (عاهدت) لتتجانس ــ إيقاعياً ــ مع الصيغة البعيدة (يتَّقون) ، كونهما – أي الصيغة المعدول إليها والصيغة البعيدة – متقاربتين في زمن الحدث إلى حد التطابق ؛ لأنَّ جملةَ (وهم لا يتّقون) واقعةٌ موقعَ الحال من فاعل جملة (ينقضون). وزمن الحال يتطابق مع زمن الحدث الذي يمارسه صاحب الحال . وفي الوقـــت ذاته نلاحظ أنَّ الزمن بين الفعل الماضي المعـــدول عنـــه (عاهـــدتَ) والفعـــل المضارع المعدول إليه (ينقضون) هو زمن متراخٍ ممتدٌّ بتأكيـــد الـــدالِّ (ثـــمَّ) . فالجوار المعتبر في هذه الصورة العدولية ليس جوارَ التركيب والنظم ، بـــلْ هـــو جوار زمن الحدث وتطابقه في الفعلين المتّسقين إيقاعياً .

١٦ - (أُنزل ، يلقى ، تكون) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِـــي فِـــي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا **أُنزِلَ** إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا. أَوْ **يُلْقَى** إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ **تَكُونُ** لَهُ جَنَّـــةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾[١] .

تقع بنية العدول في سياق أسلوب التحضيض بـــ (لولا) . ويمثل طرفا هـــذه البنية عنصرين أساسيين في تشكيل مطلوبات التحضيض (إنزال مَلَك منذر ، إلقاء كنز ، كينونة / وجود جَنَّة مأكولٍ منها) . وهذه المطلوبات المحضـــوض عليهـــا تعكس عمق عاطفة الاستهزاء ومرارة التهكم والسخرية من قبل هؤلاء المشركين في تفاعلهم السلبي مع دعوة النبي صلى الله عليه وسلم . ويلاحظ إيثـــار صـــيغة الماضي (أُنزِل) في رسم ملامح المطلوب الأول ، في حين عدل السياق إلى صيغة المضارع (يُلقى ، تكون) في تشكيل المطلوبين الآخرين .

---

١ الفرقان : ٧ ، ٨ .

يذهب بعض المفسرين إلى أن صيغة الماضي المعدول عنها (أُنزِل) أصلها المضارع (يُنَزَل) يقول الآلوسي : " ولعلَّ التعبير – أولاً – بالماضي مع أن الأصل في (لولا) التي للتحضيض أو العرض دخولها على المضارع ... " [1] . ويقول الشوكاني : " لأن المراد به (أي الماضي) المستقبل "[2].

إنّ هذا الرأي يستند إلى القاعدة المعيارية التي تؤكد على أنّ (لولا) التحضيضية تدخل على المضارع . وعلى وفق هذه القاعدة يصبح العدول في الآية عن المضارع إلى الماضي لا عن الماضي إلى المضارع .

وهذا الرأي لا يتعارض مع ما يذهب إليه الباحث من أنَّ في الآية – أيضاً –عدولاً عن الماضي (الذي يمثِّل القاعدة السياقيَّة لا المعيارية على مستوى بنية السطح) إلى المضارع . فإن من الإمكانات الأسلوبية للتعبير القرآني تداخلَ الصور العدولية وتتابعَها بحيث يصبح المعدول إليه في الصورة الأولى معدولاً عنه في الصورة الثانية . والفارق الجوهري بين الرأيين أنّ الرأي السابق يعوّل – كما سلف – على القاعدة اللغوية فيجعلها معياراً أساسياً لقياس الخروقات والتجاوزات الأسلوبية ، في حين أن هذه الدراسة تعوّل – وهو منهجها العام – على القاعدة السياقية التي يفترضها السياق من خلال توظيف صيغة معينة تصبح مؤشراً أسلوبياً لبناء نسق متتابع من هذه الصيغ . فيأتي التحول عن هذا النَّسق المتوقع إلى صيغة أخرى ليمثل خرقاً أو عدولاً عن هذه القاعدة السياقيّة المفترضة .

إن توظيف صيغتي المضارع (يلقى ، تكون) بعد صيغة الماضي (أُنزل) ، يصبح توظيفاً منطقياً غير لافت للنظر حين ينظر إليه في ضوء القاعدة المعيارية التي تحتم ضرورة بناء الفعل في سياق التحضيض بناءً مضارعياً ، بل إنه يُعدُّ – في ضوء هذه القاعدة أيضاً – مسلكاً أسلوبياً لإعادة الصياغة إلى وضعها الأصلي وتجاوز الخرق الأسلوبي الذي شكله توظيف صيغة الماضي (أُنزل) في هذا

---

١ روح المعاني : ٩ / ٤٢٨ .

٢ فتح القدير : ٤ / ٨٥ .

السياق لكن الوضع يختلف حين نعُدّ توظيف صيغة الماضي (أُنزل) مؤسِساً لقاعدة سياقية جديدة يصبح العدول عنها إلى صيغة المضارع (يُلقى ، تكون) لافتاً للنظر وحاثّاً –بإلحاح – على التساؤل عن دلالة هذا العدول .

عن دلالة إيثار صيغة الماضي يقول الآلوسي : " ولعلَّ التعبير –أولاً – بالماضي مع أنّ الأصل في (لولا) التي للتحضيض أو العرض دخولها على المضارع ؛ لأنَّ إنزال الملك مع قطع النظر عن أن يكون معه عليه الصلاة والسلام نذيراً أمرٌ متحقق لم يزل مدعياً له صلى الله عليه وسلم ، فأخرجوا الكلام حسبما يدعيه عليه الصلاة والسلام وإن لم يكن مسلَّماً عندهم ، وفيه نوع تهكُم منهم قاتلهم الله تعالى بخلاف الإلقاء وحصول الجنة " [١].

فاختيار صيغة الماضي –هاهنا- يشير إلى القطع بتحقق حدث إنزال الملك وتأكيده ولكنَّ هذا القطع والتأكيد يخرج عن دلالته الحقيقية إلى دلالة مجازية هي التهكم والسخرية ؛ لأن مصدر هذا الحكم (وهم المشركون) لا يؤمنون بصحته ، ولكنهم جاءوا به على سبيل التهكم والسخرية من ادعاء النبي صلى الله عليه وسلم المتواصل نزول الملك عليه ، فأخرجوا الكلام على هيئة المسلِّم بصحته إمعاناً في السخرية منه صلى الله عليه وسلم .

أما العدول إلى صيغة المضارع (يُلقى ، تكون) ، فيشير إلى طلبهم استمرار وتجدد إلقاء الكنز وكينونة الجنة على جهة التعجيز والإمعان في الاستهزاء ، يقول الآلوسي : " ولعلَّ في التعبير بالمضارع فيها – وإن كان هو الأصل – إشارة إلى الاستمرار التجددي كأنهم طلبوا شيئاً لا ينفد "[٢].

وهناك دلالة أخرى لهذا العدول هي تحقيق التجانس الصيغي بين هاتين الصيغتين و صيغة المضارع السابق عليهما (فيكونَ) ، فإن ورود هذا الفعل في جواب التحضيض بصيغة المضارع ، يسوِّغ العدول إلى صيغة المضارع في الفعلين التاليين استجابةً لتأثير قانون الجوار .

---

١ روح المعاني : ٩ / ٤٢٨ .

٢ السابق : ٩ / ٤٢٨ .

١٧ - **(آمنوا ، تطمئن)** :

وذلك في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ **آمَنُواْ** وَ**تَطْمَئِنُّ** قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[١].

يعرض سياق الآية الكريمة شرطاً أساسياً وجوهرياً في قضية الإيمان ، إنه نعمة الطمأنينة التي حُرمها كثيرٌ من أدعياء الإيمان من الذين آمنت ألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم . وللطمأنينة وسائل ولها أسباب علمها من علم وجهلها من جهل . والناس بإزائها بين موفق للأخذ بها سعيد وغافل عنها محروم .

وتقدِّم الآية الكريمة إحدى هذه الوسائل ، بل وأهمها . إنها وسيلة الاتصال بالله حين تشتد الأزمات وتتعاظم النكبات وتتكدر النفوس وتضيق القلوب . حينئذٍ يقطع الإنسان كل خطوط الاتصال مع الوجود البشري ليفتح خط اتصال مباشر مع الوجود الإلهيّ مفعمٍ بالذكر الكريم : تسبيحاً وتحميداً وتهليلاً وتكبيراً فتتنزل السكينة وتتسرب الطمأنينة إلى حنايا الروح الظامئ والقلب الكسير . وإذا كانت طمأنينة الذِّكر علامةً مميزة وشرطاً واجباً للإيمان الصحيح ، فأيَّ طمأنينة نريد؟

يُلمع السياق القرآني من خلال العدول إلى صيغة المضارع (تطمئن) إلى طمأنينة خاصة، إنها طمأنينة التلبس والاستصحاب . الطمأنينة الدائمة المتلبثة ، فلا اعتبار في ميزان الإيمان الصحيح للطمأنينة العارضة والسكينة العابرة ، يقول أبو السعود : " والعدول إلى صيغة المضارع ؛ لإفادة دوام الاطمئنان وتجدده حسب تجدد الآيات وتعدُّدها"[٢].

ويرى ابن شهاب أنه إنما عدل إلى صيغة المضارع " للدلالة على أنّ الطمأنينة تكون مستمرةً غير منقطعة لمن استوعب الذكر استيعاباً ، عارفاً

١ الرعد /٢٨.

٢ إرشاد العقل السليم ٢١/٥، وينظر روح المعاني للآلوسي : ١٣/ ١٥٩.

مكنوناته وأسراره ، فإذا حصل هذا حصلت الطمأنينة ووصف المؤمن حينها بأنه مؤمن مطمئن "[1].

ونلمح في بنية الصيغة المعدول إليها دلالةً إيقاعيةً تكاد تُعرب عـن نفسـها وتستلفت الأسماع قبل الأنظار إليها ، إنها دلالـة التجـانس الصـوتي والتفاعـل الإيقاعي مع الصيغة ذاتها التي تكررت لاحقاً قبل كلمة الفاصلة مباشـرةً ، هـذا التجانس إنما هو تجانس إضافي إلى جملة تجانسات أخرى بين هاتين الصيغتين ، فهما تتجانسان على مستوى المادة المعجمية (الاطمئنان) ، وعلى مستوى الموقـع التركيبي فكلاهما مسند ، وعلى مستوى المسند إليه (القلوب) .

إن التجانس على هذه المستويات الثلاثة يقتضي تجانساً على مستوى الإيقاع يحقِّق نسق التجانس التام . ويأتي العدول إلى صيغة المضارع (تطمـئن) محقِّقـاً التجانس المنشود على مستوى الإيقاع .

وتستشهد باحثة معاصرة لظاهرة العدول عن الماضي إلى المضـارع بقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ **كَفَرُواْ** يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ **لِيَصُدُّواْ** عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَـيُنفِقُونَهَا ثُـمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[2]. إذْ زعمـت أن السياق عدل عن صيغة الماضي (كفروا) إلى صيغة المضارع (ليصدوا)[3] .

والحقيقة أنه ليس في الآية عدول أصلا ؛ لأن من شروط العدول في الزمن - كما ذكرت الباحثة نفسها في المدخل النظري للالتفات في الزمن في رسـالتها- أن الفعلين المتغايرين على مستوى بنية السطح يمكن إعادة توحيدهما فـي بنيـة العمق[4]. ولو سلَّمنا جدلاً مع الباحثة بوجود عدول في الآية لكـان تقـدير البنيـة العميقة للآية على النحو الآتي : إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، فيكـون الإخبار في الآية عن حدثين مارسهما الكفار في الزمن الماضـي همـا : الكفـر والصد عن سبيل الله وليس هذا هو المعنى المراد من الآيـة ؛ لأن سـياق الآيـة

---

١ تأويل اللفظة باللفظة /٣.

٢ الأنفال : ٣٦.

٣ الالتفات في القرآن الكريم دراسة دلالية : ١٢٠.

٤السابق : ١١٣.

يسعى لبيان الغاية والعلة من إنفاق الكافرين أموالهم ، وهي دلالة مرتبطة بالزمن المستقبل بدليل دخول لام التعليل على الفعل (ليصدوا) .

العدول عن صيغة المضارع إلى صيغة الماضي

١ - (يُمسِّكون ، أقاموا) :

وذلك في قولـــه تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّـــلاةَ إِنَّـــا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾[١] .

نلاحظ ابتداءً أنّ سياق الآية يحدد صفتين من صـــفات المصـــلحين الـــذين يستحقون ثواب الله تعالى هما : التمسك بالكتاب ، وإقامة الصلاة ، فلِمَ قرن السياق بين هاتين الصفتين – بالذات- دون غيرهما وماذا يعني ذلك ؟ .

إن الجمع بين هاتين الصفتين بالذات " يعني تحكيم هذا الكتـــاب فـــي حيـــاة الناس؛ لإصلاح هذه الحياة ، مع إقامة شعائر العبادة لإصلاح قلوب الناس "[٢].

ومن المسلّم به أن التمسك بالكتاب من القضايا التي يعود نفعها على المجتمع بأسره؛ لأنه – أي التمسك بالكتاب – بما يتضمنه من تحكيم شـــرع الله وتطبيـــق الحدود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة الجريمة بكـــل صـــورها ، والدعوة إلى التعاون والسلام ...! كل ذلك يصب في المصلحة العامـــة للمجتمـــع المسلم ، وهذه الصفة بالذات هي التي جعلت هؤلاء الموصوفين بهاتين الصـــفتين يستحقون صفة (المصلحين) التي وردت في نهاية الآية ، أمـــا بالنســـبة لإقامـــة الصلاة فهي على أهميتها ومكانتها من الدين ، من الشعائر التي يعود نفعها علـــى الفرد فحسب من جهة أنّ الإنسان إذا أقام الصلاة على وجهها الأمثل عاد نفع ذلك عليه ووصف حينئذٍ بأنه صالح في نفسه ولكنه لا يوصف بأنه مصلح حتى يتعدى خيرُه نفسَه إلى غيره.

---

١ الأعراف : ١٧٠.

٢ الظلال : في ظلال القرآن الكريم : ١٣٨٨.

وإذا سلمنا بأن التمسك بالكتاب هو إصلاحٌ للحياة ، أدركنا السر في اختيار صيغة المضارع مع فعل التمسك (يمسِّكون) ، فإصلاح الحياة دائمٌ مستمر انطلاقاً من حتمية الصراع بين الخير والشر ، فالشر دائم السعي لإفساد الحياة ، وتدمير القيم وزعزعة العقيدة فكان لزاماً أن تقابله قوةٌ مضادةٌ مكافئةٌ له في الوسائل واستغراق الزمن تحقيقاً لمبدأ التدافع بين قوى الخير والشر ؛ لذا فقد جاء اختيار الفعل المضارع – بما ينفتح عليه من دلالة الاستمرار والتجدد- محققاً لهذه الدلالة.

ولقائل أن يقول : إنّ إقامة الصلاة من الشعائر المستمرة المتجددة في حياة الناس ، فلِمَ لم يؤتَ معها بصيغة المضارع (يقيمون) كما جيء بصيغة المضارع مع التمسك؟.

من الإمكانات المتاحة في بنية العدول في الآية إمكانية الإتيان بصيغة المضارع مع فعل إقامة الصلاة فتتحقق حينئذٍ دلالة التجدد والاستمرار ويتحقق معها قانون الجوار وتناسق الصيغ . ولكن سياق الآية يرمي إلى تحقيق دلالة أخرى لا يمكن تحقيقها مع صيغة المضارع ، هذه الدلالة هي الإشارة إلى السبق الزمني لإقامة الصلاة على التمسك بالكتاب ، كيف ذلك؟.

أشرنا سابقاً إلى أن إقامة الصلاة إصلاح للنفس ، وأن التمسك بالكتاب إصلاحٌ للحياة والمجتمع ، ولا شك أن الإنسان لا يمكن أن يصلح المجتمع قبل أن يصلح نفسه ؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه، فإصلاح النفس يأتي أولاً ثم يأتي بعده إصلاح المجتمع ؛ لذلك فقد جيء مع إقامة الصلاة /إصلاح النفس بصيغة الماضي، وجيء مع التمسك بالكتاب / إصلاح المجتمع بصيغة المضارع ؛ لأن الماضي سابقٌ – زمنياً – على المضارع .

والسؤال المنطقي الوجيه في هذا المقام هو : إذا كان السياق القرآني عدل عن صيغة المضارع إلى صيغة الماضي للدلالة على السبق الزمني لإقامة الصلاة على التمسك بالكتاب ، فلِمَ لَمْ تتقدم صيغة الماضي على صيغة المضارع في البنية التركيبية فيكون التركيب على النحو الآتي :" (والذين أقاموا الصلاة ويمسكون

بالكتاب ....) فتتحقق أسبقية الماضي على المضارع علـــى مســـتوى الزمـــــن والتركيب ؟.

والذي يظهر لي – والله أعلم – أن تقديم المضارع على الماضي إنما جـــاء استجابة لبديهية تقديم الأهم على المهم ، فإن التمسك بالكتاب يصبّ فـــي مصـــبّ المصلحة العامة (مصلحة المجتمع) وإنّ إقامة الصلاة مصلحة خاصـــة (مصـــلحة الفرد) ، ولا شك أن مصلحة المجتمع مقدمة على مصلحة الفـــرد ؛ لـــذلك قُـــدِّم المضارع وأخِّر الماضي.

وخلاصة القول في بنية العدول في الآية أنّ العدول إلى صيغة الماضي قصد به إعادةُ ترتيب الأفعال زمنياً ليتوافق وترتيـــب الأحـــداث منطقيـــاً ، وأن تقـــديم المضارع على الماضي بني على أساس تقديم الأهم من الأمور على المهم .

٢ - (تملكهم ، أوتيتْ) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً **تَمْلِكُهُمْ** وَ**أُوتِيَتْ** مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾[١].

تأتي بنية العدول في الآية في سياق خطاب الهدهد سيِّدَنا سليمان عليه السلام وهو يقدم له مبررات تأخره وتغيبه عن معسكر الطيور التي احتشـــدت لاســـتقبال النبي القائد في زيارته التفقدية لهذا المعسكر : **(** وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَـــا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ **)**[٢]. ولما كانت عقوبة التخلف والتغيب عن المعســـكر جادةً وصارمةً : ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾[٣] ، وليس للمتخلف أي وســـيلة للنجاة من هذه العقوبة إلا بأن يقدم عذراً مقبولاً وتبريراً منطقياً مقنعاً: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾[٤] ، فقد كان من حسن حظ الهدهد أن وجد هذا المبرر : ﴿أَحَطـــتُ

١ النمل / ٢٣.

٢ النمل : ٢٠.

٣ النمل : ٢١.

٤ النمل : ٢١.

بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[1] . ثم أخذ يفصّل هــذا الكــلام المجمــل فأخبره عن ملكة سبأ وعظمة ملكها ومظاهر أُبَّهتها ... إلخ .

ومن المعلومات المثيرة التي قدمها الهدهد في سياق اعتذاره أن الذي يحكــم مملكة سبأ امرأة ، وأنّ هذه المرأة قد أوتيت من كل شيء ، ووجه الغرابة والإثارة في المعلومة الأولى – في مقاييس ذلك الزمان - أن يوجد قوم يملِّكــون علــيهم امرأة ، وفي الثانية أن تؤتى هذه المرأة من كل شيء.

ويلاحظ أنّ السياق يعبر عن قضية التملك بصيغة المضارع (تملكهم) وعــن قضية الإتيان من كل شيء بصيغة الماضي (وأوتيت من كل شيء) فهل لهــذا المنحى الأسلوبي ما يبرره ؟ .

لم أجد فيما اطَّلعت عليه من مصادر – من أشار إلى هذه القضية أو بحثهــا إلا ما كان من أمر أحد الباحثين المعاصرين الذي يرى أن العدول إلــى صــيغة الماضي إنما كان " للدلالة على تمام فعلية الإيتاء من حيث تثبيته وقطعيته وتأكيده . أما الفعل المضارع (تملكهم) فقد اختير – سياقياً – لدلالة اســتدعاء الصــورة واستحضارها في عملية تملك المرأة وهي قوية ذات بأس شديد"[2].

ويُمدّنا السياق بدلالات أخرى لتوظيف هاتين الصيغتين في بنية العدول في الآية ، ولا نتفق مع الرأي السابق في ما ذهب إليه الباحث من دلالة الفعل الماضي على التأكيد والتثبيت ؛ فهذه الدلالة غير مقصودة في بنية العدول هــذه وإن كــان الفعل الماضي ينفتح عليها في سياقات أخرى ؛ لأن التأكيد والتثبيت إنما يكونــان للأمر المستبعد الذي هو مظنة الإنكار ، ولو كان المقام مقام تأكيد وتثبيت لكــان فعل (تملُّك) المرأة أجدر ببنائه على صيغة الماضي ؛ لأن تملك المرأة فــي ذلــك الزمن ممّا لم تَجْرِ بِهِ العادة فهو أمر منكر مستغرب ، أما قضية إيتائها مــن كــل

---

١ النمل : ٢٢.

٢ تأويل اللفظة باللفظة : ٤٢.

شيء فليس بأمر غريب مستنكر بخاصةٍ حين ندرك أن المقصود بقوله : (وأوتيت من كل شيء) أي مما " يحتاج إليه الملوك من الآلة والعدة"[1].

ولا شكّ في أنّ الآلة والعدة وغيرها من الأشياء المهمة هـي مـن الأمـور المشتركة بين سائر الملوك في كل الأزمنة على تفاوت فيما بينهم كثـرةً وقلـةً ، وهذا يعني أن هذا الأمر من الأمور المتعارف عليها والمسلم بها وليس من الغرابة بحيث يحتاج إلى تأكيد وقوعه .

وكان يمكن أن يكون هذا الرأي وجيها ومقبولاً فيما لو كان المقصود بقوله : (وأوتيت من كل شيء) أنها أوتيت من كل خير أو نعمة من نعم الدنيا ، ولكنّ هذا المعنى غير وارد ويُعترض عليه باعتراضين :

- الاعتراض الأول : أن هـذا المعنى يتعـارض وقولـه تعالى على لسـان سيدنا سليمان : ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[2] ، فإذا تيسر لملكٍ أن يؤتي من كل شيء في الدنيا فسيكون هذا الملك سليمان عليه السلام لا غيره.
- الاعتراض الثاني : أن هذا المعنى يُفهم منه أن الهدهد كذب فـي كلامـه وهـذا محال؛ لأنه - ولا شك - يعلم أن أحداً لم يؤت مثل ملك سليمان ، وهو – هُنـا - في مقام الاعتذار عن ذنب اقترفه ، ولا يمكن أن يعتذر عن ذنبٍ بارتكاب ذنـبٍ آخر.

وعليه يكون القولُ بدلالة صيغة الماضي المعدول إليها على التأكيد والتثبيت، مما لا يتفق والمراد من سياق الآية الكريمة ، وإذا كان ذلك كذلك يظل السـؤال عن سرِّ هذا العدول حاضراً وملحاً .

والذي يظهر لي – في هذا المقام – أن السياق إنما عدل عن صيـغة المضارع (تملكهم) إلى صيغة الماضي (وأوتيت) ؛ لغـرض إعـادة ترتيـب الأحداث زمنياً ؛ لأن فعل الإتيان سابقٌ على فعل التملك . فالهدهد لمّا اعتذر عن

---

١ الجلالين : ٣٧٩، روح المعاني : ١٠ / ١٨٥ .

٢ ص : ٣٥.

غيابه بالإخبار عن وجدانه مملكةً تملكها امرأة ، وكان ذلك مدعاةً لشك سيدنا سليمان في حقيقة هذا الخبر ؛ كون تملّك المرأة أمراً غريباً وشاذاً عن قوانين الملك والحكم في ذلك الزمان ، لمّا كان ذلك كذلك ، أراد الهدهد أن يؤكد على حقيقة ما أخبر به وأن يزيل شك سيدنا سليمان من خلال التأكيد على أن تملُّك هذه المرأة لم يكن طفرةً ، بل إن هناك مؤهلات ومسوغات أهّلت هذه المرأة لتسلُّم زمام الملك ، فجاء العدول إلى صيغة الماضي مؤشراً إلى أن امتلاك الملكة هذه المؤهلات كان سابقاً زمنياً على توليها الملك ؛ وهذا يعني أن أهلية هذه المرأة للتملك كانت مبنيةً على أسس وقواعد ومؤهلات . وترفدنا كتب التفسير بإشارة إلى أحد هذه المؤهلات فالملكة هي ابنة ملك سبأ[١]. ولعل ذلك هو ما هيأ لها أن تؤتى من كل شيء وتكون ملكةً عليهم.

وقد يقال : إذا كان امتلاكها من كل شيء سبباً في صيرورتها ملكةً عليهم فلِمَ لَمْ يقدّم الفعل الماضي على المضارع ؟!!

والجواب أنه إنما قَدِّم أهم الأمرين وأغربهما وهو وجود امرأةٍ تملك قوماً ، وهو أعجب وأغرب في المعقول من امتلاكها من كل شيء ؛ لأنها قد تمتلك من كل شيء وليست ملكة ؛ لأنها ابنة ملك وملك أبيها ملكٌ لها ، ولكن كونها ملكةً هو الأمر الغريب لمخالفته للمألوف المعتاد في شئون الحكم والملك ، فقدم المضارع على الماضي لأنه أشد غرابةً منه .

وتنفتح صيغة المضارع – فضلا عن دلالتها على حكاية الحال – على دلالةٍ أخرى هي دلالة التلبس بالفعل في حال الإخبار عنه ؛ وذلك بغرض التأكيد على صحة الخبر إذْ يمكن لسيدنا سليمان عليه السلام التأكّد من صحّة هذا الخبر في الوقت نفسه ؛ لأن الملكة لا تزال متلبسة بفعل التملك ممارسةً له ، ومن جانب آخر يكشف هذا التوظيف لصيغة المضارع عن رغبة جامحة من قبل الهدهد في استفزاز سيِّدنا سليمان واستثارة بواعث الغيرة والحميّة في نفسه من خلال التأكيد على أنّ تملُّك هذه المرأة واقع في نفس الفترة التي تملّك سيّدنا سليمان فيها وكأنّها

١ ، روح المعاني : ١٩٥/١٩ ، الدر المنثور : ٦ / ٣٤٧ .

تنافسه ، وليس المقصود استفزازه بقضية وجود من ينافسه الملك في حد ذاتها وإنما وجود من يتملّك على قوم تحت مظلة الوثنية والشرك ﴿يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[1] في الفترة الزمنية نفسها التي يتملك فيها سليمان تحت مظلة النبوّة والتوحيد ، وكأنّها استغلّت تملّكها على هؤلاء القوم لنشر عقيدة الوثنية ، وذلك هو الباعث على الاستفزاز والغيرة .

٣- **(ننزّل ، فظلَّتْ) :**

وذلك في قوله تعالى : ﴿إِن نَّشَأْ **نُنَزِّلْ** عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً **فَظَلَّتْ** أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[2].

في هذه الآية نجد ثلاث صيغ فعلية ، اثنتان منهما بصيغة المضارع (نشأ، ننزّل) والثالثة بصيغة الماضي (فظلَّتْ) ، ومن حقنا أن نؤوّل صيغة الماضي (فظلتْ) بصيغة المضارع (فتظل) ، على اعتبار أن هناك ظاهرةً عدوليةً وقعت في الآية تم معها التحول عن صيغة المضارع (فتظل) إلى صيغة الماضي (فظلت) . وهذا التأويل لا يأتي اعتباطاً ، بل إنه يستند إلى قانونين لغويين معتبرين لهما حضور فاعل في بنية العدول في الآية هما قانونا الشرط والعطف .

فالأفعال الثلاثة تقع في حيّز أسلوب الشرط ممّا يجعلها تنفتح على دلالة الاستقبال . ثمّ إنّ بين فعلي الظاهرة العدولية (ننزّل ، فظلّت) تعالقاً تركيبيّاً أسُّه التعاطف. وقد عرفنا سابقا أن العطف من القوانين اللغوية التي ترجح تماثل المتعاطفين صيغياً ، وبالاستناد إلى ما سبق نؤكِّد على أن الزمن الذي يوحِّد هذه الأفعال في بنية العمق هو الزمن المستقبل (نشأ ، ننزّل ، فتظلّ) .

وقد تنبّه بعض المفسرين إلى وقوع تحول أو عدول في بنية الفعل الثالث (فظلَّت) عن صيغة المضارع (فتظلّ) ، يقول القرطبي : "(فظلت أعناقهم) أي : فتظل أعناقهم "[3].

---

[1] النمل : ٢٤.

٢ الشعراء : ٤.

٣ الجامع لأحكام القرآن : ١٣/ ٨٧.

وفي تفسير الجلالين (إن نشأ ننزّل عليهم آيةً فظلت) بمعنى المضارع : أي فتظل: أي تدوم"[1] ، وورد الفعل في قراءة بصيغة المضارع (فتظلُّ أعناقهم)[2].

ونحن في غنىً عن محاولة تفسير مجيء الفعلين الأولين بصيغة المضارع (نشأ ، ننزّل) ؛ لأنهما جاءا على الأصل واستجابا لتأثير قانوني الجوار والشرط ؛ فهما لذلك لا يمثلان ظاهرة أسلوبية لافتة للنظر ، والذي يستحق الوقوف عليه ومقاربته هو الفعل الثالث(فظلّت) ؛ لأنه يمثل خروجاً على الأصل وتجاوزا لسلطة قانوني الشرط والعطف.

ومن التفسيرات التي قُدِّمَتْ لظاهرة العدول إلى صيغة الماضي ما يأتي :

١- التفنُّن بتنويع الصيغ .[3]

٢-الدلالة على سرعة حدوث الخضوع ، وكأنه مضى وانقضى ، وتقريب زمنه من زمن حدوث جواب الشرط (ننزّل) وكأنهما قد حدثا في وقت واحد لذلك جيء بالفاء العاطفة الدالّة على التعقيب وقرب الزمن بين المتعاطفين[4].

ويرفدنا السياق بدلالة أخرى لهذا العدول هي أنّ فعل الخضوع ــــ على الرغم من كونه دالّاً على الاستقبال بفعل استجابته – سياقياً – لتأثير قانوني الشرط والعطف ــــ ينفتحُ على دلالة حتمية التحقُّق والوقوع لانضوائه تحت مظلّة المشيئة الإلهية التي يصبح الحدث المستقبلي تحت سلطة قهرها وغلبتها محقَّق الوقوع حتميّ الحدوث كالحدث الماضي المنقطع تماماً ، فالماضي والمستقبل في معيار القدرة الإلهية سواء .

---

١ الجلالين : ٤٨٥.

[2] يُنظر : القراءات الشاذّة : ١٠٦ ، إعراب القراءات الشواذّ : مج ٢/ ٢٠٩ ، ٢١٠.

٣ التحرير والتنوير : ١٩ / ١١٢ .

٤ ينظر : السابق : ١٩ / ١١٢ .

٤ - **(يشكر ، كفر) :**

وذلك في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن **يَشْكُرْ** فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن **كَفَرَ** فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[١] .

يحتلُّ الفعلان المؤسسان لبنية العدول في الآية موقع فعل الشرط . هذا الموقع يحتم ضرورة اتّحاد هذين الفعلين على صيغة المضارع في بنية العمق استجابةً لمقتضيات قانون التماثل الموقعي / الإعرابي على النحو الآتي : (ومن يشكرْ ... ومن يكفرْ) ؛ لأنّ الفعل – معيارياً – في حيز الشرط يتمحض للدلالة على الاستقبال وهذه الوظيفة لا ينهض بأدائها غير الفعل المضارع الذي ينحسر عن دلالة الاستقبال ؛ لذا يظلُّ توظيف صيغة الماضي في حيِّز الشرط منبِّهاً أسلوبياً حاثاً – بإلحاح- على التساؤل عن دلالة هذا التوظيف ، أو هكذا ينبغي أن يكون . ولا ينبغي أن نتجاوز هذه الظاهرة اعتماداً على كفاءة أداة الشرط (مَنْ) في استيعاب صيغة الماضي وصهرها وإعادة تشكيلها دلالياً باتجاه المستقبل ؛ لأن اللغة غنية بالصيغ التي يؤدي كلٌّ منها دوره في الدّلالة على زمن معيّن ، ولو أن السياق يسعى للدلالة على الاستقبال لاستعاض عن صيغة الماضي (ومن كفر) بصيغة المضارع (ومن يكفر) وانتهى الأمر . ومن هنا نعُدّ العدول إلى صيغة الماضي (ومن كفر) مقصوداً وذا مغزى ويصبح من حقنا أن نتساءل عن دلالة هذا العدول .

يشير الرازي إلى دلالة اختيار صيغة المضارع مع فعل الشكر ثُم العدول إلى صيغة الماضي مع فعل الكُفر فيرى أنّ " الشكر ينبغي أن يتكرر في كل وقت لتكرار النعمة . فمن شكر ينبغي أن يكرر . والكفر ينبغي أن ينقطع فمن كفر ينبغي أن يترك الكفران ، ولأن الشكر من الشاكر لا يقع بكماله ، بل أبداً يكون منه شيء في العدم يريد الشاكر إدخاله في الوجود كما قال تعالى : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي

---

١ لقمان /١٢.

أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾[1]، وكما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2]، فأشار إليه بصيغة الماضي"[3] .

ويقول الآلوسي عن عِلّة العدول إلى صيغة الماضي مع فعل الكفر : "وفي اختيار صيغة المضيّ في هذا الشق قيل : إشارةٌ إلى قبح الكفران ، وأنه لا ينبغي إلا أن يُعدّ في خبر كان ، وقيل : إشارةٌ إلى أنه كثير متحقق بخلاف الشكر﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[4] "[5].

إذن فبنية العدول ترفدنا بالدلالتين الآتيتين :

١) أن اختيار صيغة المضارع الدالة على التكرار مع فعل الشكر يوحي بضرورة تكرار الشكر ؛ لأن الشكر تعبير وجداني عن امتنان الإنسان لمن تسبب في تحقيق منفعة له ، ولما كانت نعم الله على الإنسان منافع دائمة ومصالح متكررة وجب أن يقابلها الإنسان بشكر متكرر مستمر ، ولأن الفعل الماضي يشير في إحدى دلالاته إلى انقطاع الحدث وتمام الفعلية فقد عدل إليه السياق مع فعل الكفر للإلماع إلى ضرورة انقطاع الكفر وعدم تكراره لانتفاء موجباته وتحقق موجبات نفيه .

٢) لما كان الإنسان غير قادر على أن يشكر الله حق شكره ؛ لأن نعم الله عليه كثيرة لا تحصى ، اختار السياق صيغة المستقبل (المضارع) مع فعل الشكر ؛ لأن الفعل المستقبل فعل احتمال مشكوك فيه غير محقق الوقوع فتوافقت هذه الدلالة مع حقيقة عجز الإنسان عن تحقيق شكر الله . وأمّا الكفر فهو محقّق الوقوع مقطوع بثبوته لكثرته كما قال الآلوسيّ فجيء معه بصيغة الماضي الدالّ على تحقّق الوقوع .

---

١ النمل :١٩.

٢ النحل :١٨.

٣ مفاتيح الغيب :١٢٠/٢٥.

٤ سبأ :١٣.

٥ روح المعاني : ١١ / ٨٣ .

٥ - **(ترجُف ، كانت)** :

وذلك في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ **تَرْجُفُ** الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَ**كَانَتِ** الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾[١] .

من السمات الغالبة على أسلوب الخطاب القرآني في السياقات التي تؤطّر مشاهد يوم القيامة ، توظيف صيغة الماضي التي تنحسر عن دلالة التحقق والتأكيد خاصةّ حين تتسم الصورة المرسومة بقدر كبير من الغرابة والإدهاش والخروج عن المألوف مما يجعلها مظنّة الإنكار والاستبعاد ، وفي هذا المقام لا تكتسب صيغة المضارع فاعلية لغوية وكفاءةً أسلوبية في الدلالة على حتمية تحقق الحدث وتجسيد الصورة ، بل على العكس من ذلك فقد يؤدي توظيف صيغة المضارع في هذا المقام إلى توسيع مدى الإنكار وتعميق الشعور بالاستبعاد حين تجتمع في الصورة المرسومة ضبابية الحضور المستقبلي ودلالة الشك واحتمال الوقوع القارّة في بنية الصيغة المضارعية ، فيكون اختيار صيغة الماضي في مثل هذه السياقات هو الإجراء الأسلوبي الأمثل الذي يمنح الصورة الغريبة المستبعدة سمة الزمنية الماضوية ويقين التحقق والوقوع .

تؤطِّر بنية العدول في الآية مشهدين من مشاهد يوم القيامة ، وتنهض صيغة المضارع (ترجف) بوظيفة رسم ملامح المشهد الأول الذي تظهر فيه الأرض والجبال وقد اضطربتا اضطراباً شديداً وزُلزلتا زلزالاً عنيفاً ، وهذه الصورة على هولها وروعتها تكتسب حضوراً بارزاً في الذاكرة الإنسانية والتصوُّر البشري لتكرر مثيلاتها واطّراد أشباهها في الحياة الدنيا ، مع فرق ما بينهما في القوّة والضعف فأوثرت صيغة المستقبل (ترجف) في هذا السياق ؛ لأن المقام ليس مقام إنكار واستبعاد فالصورة حاضرة والأذهان موطّنة على تصورها .

ويختلف الأمر كليةً حين تتجلى الصورة الثانية عن منظر فريد ومشهد غير مألوف ، فالذاكرة الإنسانية لم تختزن - في تاريخها الطويل - صورةً لجبال صخرية صلبة تتحول في لمحة بصر إلى كوم من التراب الرخو والرمل الناعم .

---

١ المزمّل / ١٤.

إن صورةً كهذه لهي جديرة بأن تستوحشَها الأذهانُ وتُنافرَها التصـــورات ، فكـــل غريب عن التصور خليقٌ بالاستيحاش والإنكار ، وليس هذا هو الملمـــح الوحيـــد الذي يمنح هذه الصورة غرابتها وفرادتها ، فهناك ملمح آخر لا يقلُّ فرادةً وإدهاشاً عن الملمح السابق إن لم يتفوّق عليه . هذا الملمح هو الذي يتبلور من خلال كسر السياق لمعيارية التطابق العددي بين المسند والمسند إليه (الخبر والمبتدأ) . إن هذه المعياريّة تشير إلى حتميّة مطابقة الخبر (كثيباً) للمبتدأ (الجبال) عددياً فـــي بنيـــة العمق على النحو الآتي : (وكانت الجبال كثباناً مهيلةً) ، لكن الســـياق - بمنحـــىً أسلوبيٍ متفرد – يسعى إلى تعميق بؤرة الغرابة ومدّ جذور المفارقـــة فـــي بنيـــة الصورة من خلال تصوير جبال الرمل المتحوّلة وقد زحفت على بعضها وتجمعت في مكان واحد لتشكل (كثيباً) واحداً يعجز الذهن عن تصور ضخامته وكثافتـــه . هذان الملمحان التصويريان يُعدَّان وسيلتين أسلوبيتين يسعى السياق من خلالهمـــا إلى بناء الصورة بناءً غرائبياً مدهشاً يكشف عن القدرة العظيمة للذات الإلهية التي تتجاوز كل مألوف .

إن هذه الصورة الحافلة بهذا القدر الكبير من الغرابة والروعة ، تظلّ - في معايير التصور الإنساني القاصر الذي يجنح إلى التسليم بالمُشاهَد الحاضـــر مـــن الأحداث - محض غيب غير مسلّم بوقوعه ، أو في الأقلِّ لا يصل مستوى التسليم بوقوعه إلى درجة التسليم بالصور المألوفة والأحداث المجرَّبة ، ومن هنا نـــدرك سر التحول إلى صيغة الماضي (وكانت) في بنية هذه الصورة ، فمن خلال دلالة هذه الصيغة على الثبوت وتحقق الوقوع يسعى السياق القرآنـــي إلـــى الارتقـــاء بالتصور الإنساني المؤسس على عقيدة الإيمان ليمتلك كفاءة تصورية فذّة تحقّـــق مماثلة المتوقَّع من الصور والأحداث للواقع ومماثلة الآتي منها للماضي .

٦- ومن الصور العدولية التي تحمل فكرة مماثلة قوله تعالى : ﴿يَوْمَ **يُـــنْفَخُ** فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً . وَ**فُتِحَتِ** السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً﴾[١].

---

١ النبأ : ١٨، ١٩.

تظلُّ صورة النفخ في الصور – على هولها وفظاعتها – خاضعةً لسلطة التصور البشري داخلةً في حيِّز المألوف ، فالإطار العام لهذه الصورة شائعٌ في واقع الناس ، والسِّمة الفارقة بين هذه الصورة القرآنية والصور الدنيوية المماثلة ، هي سمة التضخُّم في عناصر الصورة القرآنية ، فالنافخ غير النافخ ، والمنفوخ غير المنفوخ ، والنفخة غير النفخة ، فهو فارق في النِّسَب لا فارق في الهيئة .

إنّ الوعي بهذه المعطيات يقدِّم تفسيراً دلالياً لاختيار صيغة المضارع لتشكيل بنية هذه الصورة ، فهي صورة مستقبلية مألوفة والمخاطب معها خالي الذهن من أي شكٍّ أو ارتياب في تحققها ، فأوثرت صيغة المضارع – هُنا- لتتوافق دلالة هذه الصيغة على الاستقبال مع الزمن المستقبليّ لهذه الصورة .

ثم يرسم السياق القرآني صورةً مدهشةً غريبةً على مجال التصور البشريّ ، إنها صورة السماء وقد تشققت على هيئة أبواب مفتّحة لنزول الملائكة كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً﴾[1] .

إنّ الذهن ليعيا وهو يقلب الصور المخزونة في سجلّاته بحثاً عن صورة مطابقة أو مقاربة فلا يجد بغيته ، فهي صورةٌ فريدةٌ لا نسق ينتظمها ، ولا اطّراد يستوعبها ، ومن هذه الزاوية بالذات تصبح هذه الصورة مظنة الإنكار والاستبعاد، ومن هنا ندرك دلالة العدول إلى صيغة الماضي في تأسيس حركة هذه الصورة باتجاه الخلف فهي صورة ماضوية تحقُّقاً وإن كانت مستقبلية حقيقيةً.

٧- **(يكونوا ، يبسطوا ، وودوا) :**

وذلك في قوله تعالى : ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ **يَكُونُوا** لَكُمْ أَعْدَاءً وَ**يَبْسُطُوا** إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَ**وَدُّوا** لَوْ تَكْفُرُونَ﴾[2] .

أثار الموقع الإعرابي لبنية المعدول إليه (وودوا) في الآية جدلاً واسعاً بين المفسرين حول طبيعة هذا الموقع ، وتباينت وجهات نظرهم في حقيقته على النحو الآتي :

---

١ الفرقان : ٢٥.

٢ الممتحنة : ٢.

١ - أن الفعل (ودّوا) معطوف على جواب الشرط المضارع (يكونــوا) ، يقــول الزمخشري : " فإن قلت: كيف أورد جواب الشرط مضـــارعاً مثلـــه ثـــم قـــال : (وودوا) بلفظ الماضي ؟ قلت : الماضي – وإن كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب ، فإن فيه نكتةً كأنه قيل : وودوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم ، يعني : أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعاً من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض وردّكم كفاراً . وردُّكم كفاراً أسبق المضـــار عنـــدهم وأولها ؛ لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم ؛ لأنكم بـــذالون لهـــا دونـــه . والعدوّ أهم شيء عنده أن يقصد أعزّ شيء عند صاحبه "[١].

٢ -ويعترض أبو حيان على رأي الزمخشري ويرى أنّ هذا الفعل معطوف علـــى جملة الشرط والجزاء فيقول : "والذي يظهر أنّ قوله : (وودُّوا) ليس معطوفاً على جواب الشرط ؛ لأن ودادتهم كفرهم ليست مترتبةً على الظفر بهم والتسلط عليهم ، بل هم وادُّون كفرهم على كل حال ، سواءٌ أظفروا بهم أم لم يظفروا . وإنما هـــو معطوف على جملة الشرط والجزاء . أخبر تعالى بخبـــرين : أحـــدهما اتضـــاح عداوتهم والبسط إليهم ما ذكر على تقدير الظفـــر بهم . والآخر ودادتهم كفرهم لا على تقدير الظفر بهم" [٢]. ويذهب أبو السعود مذهباً قريباً من مذهب أبي حيان[٣].

٣ -ويؤيد ابن عاشور رأي أبي حيان في عدم جواز القول بعطف الفعل الماضـــي (ودوا) على جواب الشرط (يكونوا) ، ولكنه يخالفه في موقع هذا الفعل ، فقد ذهب إلى أن جملة (ودوا لو تكفرون) حال من الضمير في (يكونوا)[٤]. وهذا الرأي من الوجاهة بمكان .

والحقيقة أن الخلاف بين الزمخشري وأبي حيان خلاف شكلي أكثر من كونه خلافاً حقيقياً ، ولا يترتب عليه نفي الظاهرة العدولية فـــي الآيـــة فعلـــى رأي الزمخشري يصبح العدول عن جواب الشرط فحسب ، وعلى رأي أبي حيان هـــو

---

١ الكشاف : ٤ / ٥١٣ .

٢ البحر المحيط : ٨ / ٢٥١ ، ٢٥٢ .

٣ يُنظر : إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : ٢٣٦/٨.

٤ التحرير والتنوير : ٢٨ / ١٢٥ .

عدول عن جملة الشرط والجواب ، والحاصل أنه عدول عن المضارع على كـلا التقديرين . وأما بالنسبة لمسألة ودادة المشركين كفر المؤمنين هل هي داخلةٌ فـي حيز الشرط مترتبةٌ على الظفر بهم كما يُفهم من قول الزمخشري ، أو إنَّها متحققةٌ على كل حال قبل الظفر بهم وبعده كما يرى أبو حيان ، فالذي أميل إليه في هذا المقام هو رأي أبي حيان ؛ لأن صيغة الماضي (وودوا) تكتنز زمنين : الـزمن الممتد قبل الظفر بالمؤمنين ، وهو زمن يقع خارج بنية الشرط ، فتكون الإشـارة هنا إلى نوع من الودادة هي الودادة العاجزة المشلولة (إن صح التعبير) ؛ لأنهـا ودادة الضعيف غير المتمكن ، ثم الزمن التالي لزمن الظفر والتمكن وهـو زمـن داخل في بنية الشرط يشير إلى ودادة متسلطة مهيمنة .

تخضع صيغة الماضي (ودّوا) لتأثير ثلاثة مـن القـوانين اللغويّـة تحـتّم ضرورةَ اتّساقها صيغياً مع بنية الأفعال الثلاثـة السـابقة (يثقفـوكم ، يكونـوا ، يبسطوا) في بنية العمق ، وتسوّغ تأويلها بصيغة المضـارع (ويـودّوا) ، هـذه القوانين هي : قانون الجوار والإتباع وقانون العطف وقـانون الشـرط . ومـن مقتضيات هذه القوانين تجانس الصيغ الواقعة في حيِّزها على نسقٍ واحد . فيكون القول بوجود ظاهرة عدولية في الآية مستنداً إلى قوانين لغوية وقواعـد أسـلوبية معتبرة ، وليس رجماً بالغيب أو ترجيحاً من غير مرجّح . ويبقى بعـد ذلـك أن نبحث عن دلالة هذا العدول وقيمته التعبيرية.

إنّ توظيف صيغة الماضي في سياق مفتتح بنسق متتابع من صيغ المستقبل ، يعد مؤشراً أسلوبياً إلى ضرورة إعادة ترتيب هذه الصيغ و الأحداث الدالّة عليها زمنياً بطريقة مغايرة لطريقة ترتيبها سياقياً بحيث تؤسِّس حركة صيغة الماضـي باتِّجاه الخلفِ حدثاً سابقاً على مستوى الزمن للأحـداث السـابقة علـى مسـتوى التركيب .

فصيغة الماضي (ودّوا) ـــ من وجهة نظر أبي حيان ـــ تمتدّ امتداداً واسعاً باتجاه الخلف وتتجاوز بنية الشرط بكل ما تتضمنه من صيغ زمنية وأحداث لتؤكد على حدث سابق زمنياً على كل هذه الأحداث هو حدث تمني (ودادة) المشـركين

كفر المؤمنين فهو حدث قديم وإن كان سلبياً غير مؤثر ؛ لأنه يظل حبيس الصدور غير قابل للتفعيل الإيجابي والطفو على السطح لافتقار أصحابه إلى التمكن والسيطرة .

ومن وجهة نظر الزمخشري تكون حركةُ الفعل الماضي (ودّوا) باتجاه الخلف ، حركةً محدودة الاتساع فهي في امتدادها تتجاوز صيغة جواب الشرط (يكونوا) والصيغة المعطوفة عليها (ويبسطوا) ولكنها تظل في حيز أسلوب الشرط ويظل الحدث المدلول عليه بها (ودادة المشركين كفر المؤمنين) سابقاً على الحدثين المدلول عليهما بصيغة الجواب والصيغة المعطوفة عليهما ، وما حدثُ العداء وبسط الأيدي والألسنة بالسوء من قبل هذه الفئة للمؤمنين إلا من تجليات هذه الودادة ومن وسائل إشباعها وتحقيقها .

إنَّ اختلاف الزمخشري وأبي حيان في قضية امتداد صيغة الماضي المعدول إليها زمنياً باتجاه الخلف إلى خارج نطاق بنية الشرط أو انضوائها تحت هذه البنية ، يقابله اتفاق تام على دلالة هذا العدول على أسبقية الودادة على العداء وبسط الأيدي والألسنة بالسوء زمنياً .

٨ - **(أُصيبُ ، وسعت)** :

وذلك في قوله تعالى : ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي **أُصِيبُ** بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي **وَسِعَتْ** كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[١] .

من الظواهر الأسلوبية اللافتة للنظر في الآية إيثار السياق صيغة المضارع مع فعل الإصابة بالعذاب ثم العدول إلى صيغة الماضي مع فعل سعة الرحمة . ومن غير المقبول أنّ نعُدَّ هذه الظاهرة ظاهرةً عادية مفرغةً من أيِّ دلالات أو إيحاءات أو أن نتكئ على مقولة (التنويع) في الأساليب وقد ثبت أنها عقيمة وغير ذات جدوى في الأقل في نطاق مقاربة النصِّ القرآنيِّ لما يترتب عليها من تناقض حادٍّ بين هدف النقد ونتائجه . إن الناقدَ يسعى – وهو يقارب النص القرآني – إلى

---

١ الأعراف : ١٥٦.

إثبات أنه تشكيل لغويّ متفوِّق يتجاوز كلَّ إبداع فيكون التعويل على علة التنويع في الأساليب ناقضاً لهذا الهدف من أساسه وداعياً إلى نقيضه إذ إنَّ هذه العلَّةَ تُبنى على أساس أن النصَّ القرآنيَّ حافلٌ بعوامل الإضجار والرتابة فيأتي التنويع في الأساليب للتخفيف من حدّة هذا الضجر والسأم وهذا ادِّعاءٌ خطير على افتراض حسن الظن ومُغرِقٌ في الخطورة حين تسوء الظنون .

تنفتح بنية العدول على دلالات قارّة هي :

١- الإلماع إلى سبق رحمته تعالى على عذابه ، فالسياق القرآني يستثمر دلالة الماضي على حدث سابق ودلالة المضارع على حدث حاضر أو مستقبل لتحقيق هذه الدلالة ، فرحمة الله تعالى تسبق عذابه ؛ لأن الرحمة فعل امتنان ، والعذاب فعل جزاء وعقاب ، والعقاب لا يقع ابتداءً بل هو ردّ فعل المنعِم على جحود النعمة (الرحمة) من قبل المنعَم عليه والفعل سابقٌ لردّ الفعل بداهةً . والسؤال الذي يلح في هذا السياق هو : إذا كان الغرض من هذا العدول الإشارة إلى سبق رحمة الله على عذابه ، فلمَ لمْ يُقدّم فعل الرحمة على فعل العذاب في الآية فتتحقق هذه الأسبقية على مستويي الزمن والتركيب معاً ؟.

إن افتتاح بنية العدول بصيغة المضارع (أصيب) وتقديمها على صيغة الماضي(وسعت) له ما يبرره أسلوبياً ، فإن السياق الذي وردت فيه هذه الآية هو سياق غضب إلهي على بني إسرائيل بسبب اتخاذهم العجل إلهاً يعبدونه من دون الله[1]. فجاء تقديم فعل العذاب على فعل الرحمة متناسباً ومتَّسِقاً مع سياق الآيات السابقة عليه ، ولو تقدم فعل الرحمة على فعل العذاب لشكل فاصلاً لغوياً بين آيات الغضب الإلهي وفعل العذاب .

٢- الإشارة إلى أن رحمة الله عامةٌ ثابتةٌ متحققةً على كل حال وأن عذابه خاص نادرٌ محتمل الوقوع ، فعذاب الله خاص بالعاصين من عباده وليس عامّاً لكلِّ العباد فجاء اختيارُ صيغة المضارع الدالَّة على الندرة والقِلَّة واحتمال الوقوع متوافقاً مع خصوصية العذاب وقلّته ، في حين جاء العدول إلى صيغة الماضي

---

١ تنظر الآيات : ١٤٨. ١٥٥من سورة الأعراف .

الدالّ على الثبات والتحقق متناسباً مع دلالة فعل الرحمة على العموم وتحقق الوقوع ؛ لأن رحمة الله لا تخصُّ الطائعين من عباده فحسب ، بل إنها تمتدُّ لتشمل حتى العاصين حين تشاء الذات الإلهيَّة ذلك ، فالله سبحانه – حين يشاء الرحمة – تشيع رحمته لتشمل مَنْ يستحقها ومن لا يستحقها ، ولكنه لا يعاقب إلا من يستحق العقوبة ، يقول أبو السعود : " وفي نسبة الإصابة إلى العذاب بصيغة المضارع ونسبة السعة إلى الرحمة بصيغة الماضي إيذانٌ بأنّ الرحمة مقتضى الذات وأما العذاب فمقتضى معاصي العباد"[١].

٩ - (يتلون ، أقاموا) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ **يَتْلُونَ** كِتَابَ اللَّهِ وَ**أَقَامُوا** الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾[٢].

تتحدد بنية العدول على مستوى بنية السطح بالمخطط الآتي :

يتلون ـــــ أقاموا

مضارع ـــــ ماضٍ

ونفترض اتحاد الفعلين على صيغة المضارع في البنية العميقة على النحو الآتي:

يتلون ـــــ يقيمون

مضارع ـــــ مضارع

وهذا الافتراض يتكئ على قانوني الجوار والعطف اللذين يرجحان اطّراد الصيغ – في سياق ما – على نسق واحد . لكنّ رجحانَ التماثل الصيغي بين الدوالِّ اللغوية - في ظلّ هذين القانونين- يصبح مرناً وقابلاً للخرق حين يتوافر المبرر الأسلوبي المقنع . ولنا أن نتساءل – هُنا- عن المبرر الأسلوبي الذي سوّغ لصيغة الماضي أن تخرق جمالية الاتساق الصيغي وأن تتجاوز النسق الذي أسّس له سياق الآية من خلال انتخاب صيغة المضارع (يتلون) لتمثل مفتتحاً لنسقٍ

---

١ إرشاد العقل السليم ... : ٢٧٨/٣.

٢ فاطر / ٢٩.

متتابعٍ من صيغ المضارع ، فهل جاء هذا الخرق عفواً دون مبـــررٍ أســـلوبي ؟. وهل كان يمكن لصيغة المضارع المفترضة في بنية العمق أن تؤدي الوظيفة ذاتها التي تؤديها صيغة الماضي في بنية السطح ؟.

ينتمي طرفا الظاهرة العدولية في الآية إلى حقل العبادات والشعائر الدينية ، فتلاوة القرآن وإقامة الصلاة من العبادات وأعمال البِرِّ التي يتقرب بها المسلم إلى الله سبحانه وتعالى . ومعلومٌ أن العبادات ليست على درجة واحـــدة مـــن حيـــث المشروعية ، بل إنها متفاوتة : فمنها المستحب ومنها المسنون ومنهـــا الواجـــب ومنها الفرض والركن .

إن الوعي بهذا التوصيف الفقهيّ للعبادات يقدِّم لنا إضاءات كاشفة عن القيم الدلالية والتعبيرية لظاهرة العدول إلى صيغة الماضي في الآية الكريمـــة ، فمـــن المعلوم أن الصلاة فرض من فروض الدين وركن من أركان الإسلام . أما تلاوة القرآن فمع كونها من أفضل القربات وأسمى الطاعات فإنها سنة من سنن الإسلام وليست بفريضة واجبة . يقول القطان : " وقراءة القرآن سنة من سنن الإســـلام ، والإكثار منها مستحب حتى يكون المسلم حيَّ القلب مستنير الفؤاد بما يقـــرأ مـــن كتاب الله "[١].

إن الفارق بين العبادتين (تلاوة القرآن ، إقامة الصلاة) في الحكم الشـــرعي يقدِّم التفسير الأول (الدلالة الأولى) لاختيار صيغة المضارع مع تلاوة القرآن ثم العدول إلى صيغة الماضي مع إقامة الصلاة ، إن صيغة المضارع فـــي إحـــدى دلالاتها تشير إلى عدم ثبوت الفعل وعدم القطع بتحققه ، ولعل في هذه الدلالة ما يشير إلى عدم ثبوت حكم التلاوة وعدم القطع بتحقق وجوبه ، فتلاوة القرآن كمـــا أسلفنا سنة مستحبة وليست بواجبة ، ثم يأتي العدول إلى صيغة الماضـــي الـــدال على القطع بتحقق الفعل وثبوته ليشير – في إلماعة خفيِّة- إلـــى وجـــوب إقامـــة الصلاة باعتبارها ركناً من أركان الإسلام .

---

١ مباحث في علوم القرآن: ١٧٠.

ويحقق العدول إلى صيغة الماضي قيمة دلالية إضافية هي إعـادة ترتيـب العبادات ترتيبا مغايرا لترتيبها السياقيّ التركيبيّ على أساس الحكم الشرعيّ أيضا فالصلاة ركن وقراءة القرآن سنة ولما كان السياق قدّم تلاوة القرآن فـي البنيـة التركيبية فقد آثر العدول إلى صيغة الماضي مع الصلاة لدفع توهّم أن تقديم تلاوة القرآن تركيبيا يوحي بأنها أوجب من الصلاة في الحكم الشرعي فجاء هذا العدول مؤشرا أسلوبيا إلى سبق الصلاة على تلاوة القرآن في سلم الواجبات الدينية اتكاء على سبق الماضي على المضارع زمنيا .

العدول عن صيغة الماضي إلى صيغة الأمر

الشاهد الوحيد الذي يذكره الدارسون لهذه الصورة العدولية من القرآن الكريم هو قوله تعالى : ﴿قُلْ **أَمَرَ** رَبِّي بِالْقِسْطِ وَ**أَقِيمُواْ** وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُـوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[1] .

عن دلالة هذا العدول يقول ابن الأثير : "وكان تقدير الكـلام : أمـر ربـي بالقسط وبإقامة وجوهكم عند كل مسجد . فعدل عن ذلك إلى فعل الأمـر للعنايـة بتوكيده في نفوسهم ، فإن الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده"[2].

ويقول باحث معاصر : " وبعد أن يقرر السياق تأكيد أمر الله بالقسط الـذي اختار له صيغة الماضي بإلماحة موجزة إلى أن هذا الأمر لم تتنزل بـه شـريعة دون أخرى ، بل هو أمر رباني أزلي ، ثم عقب بوجوب إقامة الشـعائر بصـيغة الأمر ، حيث إن الصيغة تفيأت ظلالها ومنحت السياق دلالات الإلزام والوجوب ، بحيث لم يعد هناك مناص من الإفلات من هذا التكليف " [3].

ونؤكِّد على أن الآية مفرغة من ظاهرة العدول عن الماضي إلى الأمـر وأن هذه الصورة العدولية لا تتحقق على مستوى النص القرآني . فهذا الشاهد الـذي

---

١ الأعراف : ٢٩.

٢ المثل السائر : ٢ / ١٨٠ .

٣ الالتفات في القرآن الكريم دراسة أسلوبية : ١٤٤.

ذكره ابن الأثير وتابعه عليه غير واحد من الدارسين [1] ، لا يستجيب – دلاليا - لإمكانية إعادة توحيد الفعلين في البنية العميقة للآية ؛ ذلك لأن الآية أمر من الله لرسوله (قل) بتوجيه الخطاب للكافرين الذين تحدث عنهم سياق الآية السابقة : ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[2]. وهو خطاب يتضمن إعلامهم أن الله يأمرهم بالقسط فحسب . والتسليم بوجود ظاهرة عدول في الآية يقتضي أن الرسول أُمر بإخبارهم بخبرين : الأول أمر الله لهم بالقسط (أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ) ، والثاني الإخبار عنهم بأنهم أقاموا وجوههم عند كل مسجد(وأقمتم وجوهكم عند كل مسجد) . وهذا الاقتضاء باطل مع الخبر الثاني ، إذ كيف يتسنى أن يؤمر الرسول بالإخبار عن هؤلاء المشركين أنهم أقاموا وجوههم عند كل مسجد(فريضة الصلاة) على ما تقتضيه البنية العميقة للآية ، أو أن يأمرهم بإقامة وجوههم عند كل مسجد كما هو ظاهر من بنية السطح على افتراض ثبوت وجود ظاهرة عدول في الآية ؟!!.

ويُلاحظ حسن طبل بروز تناقض واضح في كلام ابن الأثير بين استشهاده بالآية وبين تقديره للعدول فيها . فهو يعرض الآية شاهداً على صورة العدول عن الماضي (أمر) إلى الأمر(أقيموا) ولكن تقديره للعدول في بنية العمق يدرج هذا الشاهد ضمن صورة العدول عن المصدر(القسط) إلى الأمر(أقيموا) ، يتضح ذلك من قول ابن الأثير : "كان تقدير الكلام : أمر ربي بالقسط وبإقامة وجوهكم عند كل مسجد" . فهو يقدِّر فعل الأمر(أقيموا) بالمصدر (إقامة) ثم يقدر عطفه على المصدر (القسط) وذلك يقتضي أن فعل الأمر (أقيموا) معطوف على المصدر (القِسط) فيكون العدول عن المصدر إلى الأمر لاعن الماضي إلى الأمر.[3]

---

١ ينظر : الطراز : ٢/ ١٣٧، تحولات البنية في البلاغة العربية : ٣٢٤، الالتفات في القرآن الكريم دراسة أسلوبية : ١٤٤.

٢ الأعراف : ٢٨.

٣ أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية : ٨٤.

ويؤيد الباحثُ حسن طبل فيما ذهب إليه من أن الفعل (أقيموا) معطوف على فعل الأمر (قُلْ) ، فيكون الرسول أُمر بأمرين : الأول إخبار المشــركين بــأن الله أمر بالقسط . والثاني : التزامه مع المؤمنين بإقامة شعيرة الصلاة[1] . وعلى ذلك لا يكون هناك ظاهرة عدول في الآية .

العدول عن صيغة المضارع إلى صيغة الأمر

(أُشهد، اشهدوا) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَــالَ إِنِّــي **أُشْهِدُ** اللَّهَ وَ**اشْهَدُوا** أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[2] .

ركّزت مقاربات الدارسين لبنية العدول في الآية علــى الوظيفــة المجازيــة لصيغة فعل الأمر المعدول إليها / اشْهَدُواْ . وتنطلق هذه المقاربات في تحديد هذه الوظيفة من ملاحظة ما يترتب على التسليم بمعيارية التوظيف الحقيقــي لصــيغة الأمر في بنية الآية من تناقضٍ حادٍّ بين استجابة المأمورين / قوم لوط – حقيقةً - لأمر الإشهاد ببراءة سيدنا هود ــ عليه السلام ــ من تهمة الشرك بالله وبين عقيدة هؤلاء المؤسسة على الشرك بالله . إذ كيف يتسنّى لهم أن يشهدوا لمصــلحة مــن يتبرأ من عقيدتهم ومعبوداتهم ؟ !!.

ويشير الزمخشري إلى الوظيفة المجازية لصيغة الأمر وهي الاستهزاء بهــم والاستهانة بعقيدتهم الباطلة فيقول : "لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشدّ معاقده ، وأما إشــهادهم فمــا هــو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب... كما يقول الرجل لمــن يــبس الثرى بينه وبينه : اشهد على أني لا أحبك تهكما به واستهانة بحاله "[3].

---

[1] المصدر السابق : ٨٥.

٢ هود : ٣٦.

٣ الكشاف : ٤٠٤,٤٠٣/٢.

ويلمح باحث معاصر دلالة أخرى لهذا العدول هي إمعان سيدنا هود " في التحدي والمواجهة وعدم الاهتمام برد فعلهم "[1]. فإشهاد العدو في مقام المواجهة بنقله من موقف المعارضة والصراع إلى مقام الشهادة بما يقوي موقف الطرف الآخر ، فيه سخرية مرة واستخفاف مهين لأنه يسلبه كفاءة التحدي الإيجابية ليمنحه موقف المشاهد السلبي الذي لا يؤدي دورا فاعلا في موقف التحدي والصراع ، بل يمنحه سمةً مغرقة في السلبية واهتزاز الموقف بتوجيه جهوده من النقيض إلى النقيض ليصبح شاهد نفي لثبات التهمة عن عدوه بعد أن كان صاحب الدعوى ومصدر قرار الاتهام .

العدول عن صيغة الأمر إلى صيغة الماضي

يذكر السيوطي – في باب ما يقرب من الالتفات – شاهدا قرآنيا لهذه الصورة العدولية هي قوله تعالى : ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً **وَاتَّخِذُواْ** مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَ**عَهِدْنَا** إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[2]. ويتابع أسامة البحيري السيوطيَّ في التمثيل لهذه الصورة العدولية بهذا الشاهد[3].

ولقد كنت كلَّما مررت بهذه الآية لفت انتباهي ورودُ صيغة الأمر (اتخِذوا) في هذا السياق القصصي الذي يستوعب أحداثاً وقعت في الزمن الماضي ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ[4]... وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً... وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ[5]... وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾[6]. ولم أكن أشك لحظةً أنَّ صيغة الأمر (اتخِذوا) تمثِّل قطعا مفاجئا لوتيرة الحكي بصيغة الماضي لتصبح - أسلوبيا – عنصراً عدوليّاً في هذه البنية القصصية الماضوية.

---

١ الالتفات في القرآن الكريم دراسة أسلوبية : ١٤٦.

٢ البقرة : ١٢٥.

٣ تحولات البنية في البلاغة العربية : ٣٢٧ ، ٣٢٨.

٤ البقرة : ١٢٤.

٥ البقرة : ١٢٥.

٦ البقرة : ١٢٦.

ويقدِّم الزمخشريّ رؤية تصوريّة للبنية العميقة للآية في محاولة منه لإعادة التجانس بين الأفعال في بنية الحكي والتخفيف من حدة المفارقة الزمنية التي أحدثها اعتراض صيغة الأمر بين صيغ الماضي . ففي تقدير الزمخشري أن البنية العميقة للآية شهدت إقصاءً لفعل ماض كان لصيقا بفعل الأمر (وقلنا اتخِذوا) . هذا الإقصاء هو الذي أبرز فعل الأمر (اتخِذوا) عنصراً عدوليّا وشكّل هذه المفارقة الزمنية بين الأفعال ، يقول الزمخشري : " (واتخِذوا) على إرادة القول ، أي : وقلنا اتخذوا منه موضع صلاة تصلون فيه "[1].

فظاهرة العدول - على افتراض تحققها في الآية - إنما وقعت عن الماضي إلى الأمر لا عن الأمر إلى الماضي . وأمّا ما ذهب إليه السيوطي من أنّ العدول في الآية وقع عن الأمر(اتخِذوا) إلى الماضي (عهدنا) فهو – في تقديري- وهم منه ؛ ذلك لأن العدول على شرط السيوطي نفسه : " أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائدا في نفس الأمر إلى المنتقل عنه "[2]. وهذا الشرط غير ممكن التحقق في الآية ؛ لاختلاف المرجع في الفعلين " فالأمر في (اتخِذوا) لعموم المسلمين، في حين نجد أنّ صيغة الماضي يُقصد بها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . ومن هنا لم يرجع الفعلان لمقصود واحد ، ولو أردنا وحدة المرجع لاختلّ المعنى المراد "[3] . فعلى رأي السيوطيّ نتصور بنية العمق على النحو الآتي :

اتخِذوا ـــــ اعهدوا

ويكون المأمور بكلا الأمرين واحد وهم عموم المسلمين ، وهذا باطل لأن الخطاب بالعهد إنما توجه لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

نخلص مما سبق إلى أن الآية التي استشهد بها السيوطي ليس فيها عدول عن الأمر إلى الماضي. وأن هذه الصورة العدولية ليست متحققةً في بنية الخطاب القرآني.

١ الكشاف : ١/١٨٥.

٢ الإتقان : ٢ / ٨٦ .

٣ الالتفات في القرآن الكريم دراسة أسلوبية : ١٤٧.

العدول عن صيغة الأمر إلى صيغة المضارع

هذه صورة أخرى من صور العدول في الأفعال التي انفرد بذكرها السيوطي وتابعه فيها أسامة البحيري . وشاهد السيوطي عليها، قوله تعالى : ﴿وَأَنْ **أَقِيمُـواْ** الصَّلاَةَ وَ**اتَّقُوهُ** وَهُوَ الَّذِيَ إِلَيْهِ **تُحْشَرُونَ**﴾[1].

ولئن كان السيوطي اكتفى بذكر صورة العدول هـذه والتمثيـل لهـا بهـذا الشاهد[2]، فقد أغرب أسامة البحيري في مقاربة هذا الشاهد ووقع في تناقض حـاد بين الاستشهاد لهذه الصورة العدولية بهذه الآية وبين التحليـل الإجرائـي لبنيـة العدول فيها ، إذْ أورد الآية ليمثِّلَ بها لصورة العدول عن صيغة الأمر إلى صيغة المضارع ثم فاجأنا – وهو يقدِّم مخططاً بيانياً لظاهرة العدول في بنيتيها السطحية والعميقة – بأن عدّ العدولَ إنَّما وقع عن صيغة المضارع إلى صيغة الأمر ، وهذا نصُّه : "

المستوى السطحي : أقيموا واتقوه ـــــ تحشرون

أمـــر ـــــ مضارع

المستوى العميق : لنسلم وأن نقيم ونتقيه ـــــ نُحشر(لأنه الذي إليه نحشر)

مضارع ــــــــ مضارع "[3].

نلاحظ على هذا المخطط أن بنية العدول في مستواها العميــق – فــي رأي البحيري – تعيد صيغتي الأمر (أقيموا ، اتقوه) إلــى الصــيغة الأصــلية لهمــا (الصيغة المضارعية). وهذا يعني أن العدول وقع عن صيغة المضارع في بنيــة العمق(وأن نقيم ، ونتقيه) إلى صيغة الأمر في بنية السطح (أقيمــوا ، اتقــوه) . وكان يفترض بالبحيري – لكي ينسجم تحليله لبنية العدول مــع استشــهاده لهــذه

---

١ الأنعام :٧٢.

٢ الإتقان : ٢ / ٨٧ .

٣ تحولات البنية في البلاغة العربية : ٣٢٨.

الصورة العدولية بهذه الآية – أن يتصور بنية العدول في مستواها العميق على النحو الآتي :

المستوى العميق : أقيموا واتقوه ـــ احشروا .

وحتى هذا التصور الأخير لبنية العدول في مستواها العميق لا يجعلنا نسلّم بوجود ظاهرة عدول في الآية ؛ وذلك لسببين :

- **الأول** : أنّ المرجع في الصيغ الثلاث (وهو ضمير المخاطب الواو) – وإن كان واحداً– تختلف وظيفتُهُ في البنية التركيبية لهذه الصيغ فهوعلى مستوى بنية السطح فاعل في الصيغتين الأوليين (اقيموا ، اتقوه) وهو في الصيغة الثالثة نائب عن الفاعل (تُحشرون) . ولو أردنا إعادة تجنيس الصيغة الثالثة (تُحشرون) مع الصيغتين السابقتين (احشروا) لاختل معنى الآية حيث يصبح المخاطب في هذه الحالة فاعلاً للحشر ، وليس هذا مضمون الآية . وعليه فلا يصح القول بوجود ظاهرة عدول عن صيغة الأمر إلى صيغة المضارع في الآية الكريمة .
- **السبب الثاني** : أن صيغة المضارع (تُحشرون) لا تستجيب لتأثير أي قانون من القوانين اللغوية التي توجب أو ترجح تجنيسها مع صيغتي الأمر (أقيموا واتقوه). فصيغة المضارع لا تخضع مع صيغتي الأمر لتأثير قانون السياق التاريخي فالأمر بإقامة الصلاة والتقوى واقع في الدنيا وزمن الحشر في الآخرة . كما أنّ الأفعال الثلاثة لا يضمها قانون الشرط ولا قانون العطف ولا قانون الجوار ولا غيرها من القوانين أو الأسس اللغوية التي ارتضيناها مسوغات لصحة دعوى وجود ظاهرة عدولية في بنية النص اللغوي . وتأسيسا على ما سبق نؤكد أن صورة العدول عن صيغة الأمر إلى صيغة المضارع غير متحقّقة في بنية الخطاب القرآني

الفصل الرابع

العدول في صيغ الأسماء

العدول بين صيغتي المصدر(الصريح ، المؤوّل)

(الإثم ، البغي ـــــ أن تشركوا ، أن تقولوا):

وذلك في قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَ**الإِثْمَ** وَ**الْبَغْيَ** بِغَيْرِ الْحَقِّ **وَأَن تُشْرِكُواْ** بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَ**أَن تَقُولُواْ** عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1].

من الناحية التركيبية تتماز بنية المصدر المؤول عن بنية المصدر الصريح بوضوح العلاقة الإسنادية ؛ ذلك أن العنصر الإسنادي دائم الحضور في البنية التركيبية للمصدر المؤول بخلاف المصدر الصريح الذي يكون العنصر الإسنادي فيه دائمَ الغياب عن بنيته التركيبية .

ومن ناحية أخرى ، فإنّ المسند إليه يكاد يكون دائم الحضور في البنية التركيبية للمصدر المؤول ولا يكاد يغيب عن هذه البنية إلا في حالات ثلاث : الأولى : كونُه ضميراً للمفرد الغائب نحو : ذاكَرَ وذَاكَرَتْ ، وهو غياب اختياري إذ يجوز للمنشئ إحضاره في بنية الخطاب كما جاز له تغييبه . والحالة الثانية : كونه ضميرَ متكلم مفرداً أو مجموعاً مسندا إليه فعل مضارع نحو : أُذاكِر ونُذاكر . والحالة الثالثة : كونُه ضميرَ خطابٍ للمفرد المذكر مسنداً إليه فعلٌ مضارع .

ويختلف الأمر بالنسبة للمصدر الصريح الذي ينماز بغياب المسند إليه عن بنيته التركيبية غياباً يكاد يكون مطَّرِداً باستثناء حالتين اثنتين :

- الأولى : أن يُضاف المصدر إلى فاعله : وقد يُذكر المفعول به بعده كقوله تعالى : **(** وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ... الآية **)**[2] ، وقوله تعالى : **(**لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْأِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ... الآية**)**[3] ، وكقول الشاعر :

فَحَمْدُكَ الْمَرْءَ مَالَمْ تَبْلُهُ سَرَفٌ وَذَمُّكَ الْمَرْءَ بَعْدَ الْحَمْدِ تَكْذِيْبُ[4]

---

١ الأعراف / ٣٣.

[2] البقرة : ٢٥١.

[3] المائدة : ٦٣.

[4] البيت لأبي الأسود الدؤلي وهو في ملاحق الديوان ضمن الشعر المشكوك في نسبته إليه : ٣٨٧.

وقد لا يُذكر ، كقوله تعالى : **(... وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ...)**[١] .

- الثانية : أن يُضافَ المصدرُ إلى المفعول به ، ويظهر بعده الفاعل مرفوعاً ، كقول الأُقيشر الأسدي :

أَفْنَى تِلَادِي وَمَا جَمَّعْتُ مِنْ نَشَبٍ قَرْعُ الْقَوَاقِيْزِ أَفْوَاهُ الْأَبَارِيْقِ[٢]

وقول الفرزدق :

تَنْفِيْ يَدَاهَا الْحَصَى فِي كُلِّ هَاجِرَةٍ نَفْيَ الْدَّرَاهِيْمِ تَنْقَادُ الصَّيَارِيْفِ[٣]

ونلاحظ على بنية العدول في الآية غياب المسند إليه عن البنية التركيبية للمصدرين الصريحين المعدول عنهما (الإثم ، البغي) حيث اكتفى السياق بإيراد الحدث دون إسناده إلى مسند إليه ، في الوقت الذي يمتلك فيه المسند والمسند إليه حضوراً بارزاً في البنية التركيبية للمصدرين المؤولين المعدول إليهما (أن تشركوا، أن تقولوا) .

في ضوء هذه الملاحظة وفي ضوء الحقائق اللغوية السابقة ، نسعى للكشف عن دلالة العدول عن المصدر الصريح إلى المصدر المؤول في الآية الكريمة ، ويصبح سعينا هذا مشروعاً حين نفترض إمكانية حلول المصدر الصريح محل المصدر المؤول في الآية (الإشراك بالله ، والقول على الله) بما يحقق جمالية الاتساق بين الصيغ . ولكن هل حقاً يمكن أن يحُلّ المصدر الصريح محل المصدر المؤول فيتحقّق إلى جانب الاتّساق الصيغيّ الغرض الدلالي الجماليّ الذي يسعى السياق لتحقيقه من خلال ظاهرة العدول إلى المصدر المؤول ؟؟ هذا ما سيتضح لنا من خلال مقاربة دلالة العدول في الآية .

يقول الزمخشري :"(وأن تقولوا على الله) : وأن تتقولوا عليه وتفتروا الكذب من التحريم وغيره"[٤] .

---

[١] الروم : ٤ ، ٥.

[٢] ينظر : المقتضب : ٢١/١، مغني اللبيب : ٢/ ٦١٥.

[٣] سبق تخريج الشاهد في الصفحة : ٤١.

٤ الكشاف : ٢ / ١٠١.

ويقول الواحدي : "وأن تشركوا بالله) تعدلوا به في العبادة...(وأن تقولـــوا على الله ما لا تعلمون) . من أنه حرَّم الحرث والأنعام،وأن الملائكة بنات الله"[1].

من البديهيات العقلية والشرعية أنّ المعاصي ليست على درجة واحدة مـــن الحرمة وعظم الذنب . ويأتي العدول إلى المصدر المؤول مؤكداً هذه الحقيقـــة . فالشرك بالله المتمثل في عبادة غيره معه ، والقول على الله بغير علم المتمثل في : الادعاء بأنه حرّم الحرث والأنعام ، أو ادعاء أن الملائكة بنات الله والقول عليه بغير علم هو تعدٍّ على الذات الإلهية ، بينما الإثم والبغي تعدٍّ على الذات البشـــرية خاصةً حين ندرك أن الإثم في إحدى دلالاته يُطلَق - مجـــازاً - علـــى الخمـــرة باعتبارها داعيةً إلى الإثم [2]. وأن البغي هـــو : "أن تبغـــي علـــى النـــاس بغيـــر الحق"[3].أو هو : " الظلم والاستطالة على الناس"[4].

ولا شك أنَّ التعدي على الذات الإلهية أعظم وأبشع من التعدي على الـــذات البشرية ، ويمتلك المصدر المؤول كفاءةً عاليةً في تضخيم ذنـــب الشـــرك بـــالله والقول عليه بغير علم وفي إبراز بشاعة هذا الذنب مـــن خـــلال جعـــل العلاقـــة الإسنادية بطرفيها (المسند والمسند إليه) طافيةً على بنية السطح بعد تغييب المسند إليه ــ تماماً ــ عن السياق في بنية المصدر الصريح (الإثم والبغـــي) . وكأنمـــا يسعى السياق من خلال تقنية العدول إلى المصدر المؤول لرسم صـــورة بشـــعة بإبراز عناصرها الأساسية : الفاعل / المسند إليه والحدث / المسند .

ومن وجهة نظر جنائية فإن المصدر المؤول يعرض الجريمـــة فـــي حالـــة التلبس ، فالحدث الإجرامي ماثل للعيان (الإشراك بالله والقول عليه بغيـــر علـــم) والفاعل حاضر متلبس بالجريمة ممّا يكسب الجريمة صفة البشـــاعة والفداحـــة ، بخلاف الجريمة التي يصور فيها الحدث الإجرامي دون إسناد هذا الحدث لفاعـــل معين ، فإنها تظل أخف وطأة وأقلّ بشاعةً (الإثم والبغي) .

---

١ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : ١ / ٣٩٢ .

٢ ينظر : معالم التنزيل : ٢٢٦/٣ ، البحر المحيط : ٤ / ٢٩٤ .

٣ تفسير القرآن العظيم : ٤٠٨/٣.

٤ روح المعاني : ٤ / ٣٥٣ .

العدول بين صيغتي المبالغة (فَعُول ، فَعَّال)

يسعى المنشئ – في بعض سياقات الخطاب – إلى إكساب خطابه طابع المبالغة ؛ لتحقيق قيمة جمالية معينة أو غرض بلاغي دلالي ما . ويشيع أسلوب المبالغة بصورة خاصة في مقامات المدح والهجاء والفخر والرثاء والغزل والوعيد ... إلخ .

وتحفل اللغة العربية بصيغ كثيرة من صيغ المبالغة التي يتوسّل بها المنشئ ، لتشكيل البنية المبالغاتية ، ومن هذه الصيغ : فَعّال ، مِفعال ، فِعّيل ، فَعّالة ، مِفعيل، وفَعول ، فَعيل ، فَعِل ، فُعّال ، فُعُّول ، فيعول ، ... إلخ .

وصيغ المبالغة على ضربين :

الأول : يتفق في الدلالة على المبالغة ، ولكنه يختلف في نوع هذه الدلالة ، فالضَّحّاك والضُّحَكة صيغتان تدلّان على معنى المبالغة ، لكنّ الضحّاك مدحٌ والضُّحْكة ذمٌّ ، والنُّومة : خامل الذكر ، والنؤوم : كثير النوم . وكلتا الصيغتين للمبالغة .

الثاني : يتفق في الدلالة على المبالغة ويختلف في درجة هذه المبالغة : فـ(فَعّال) يختلف عن (فَعول) في درجة المبالغة ، وهما معاً يختلفان عن مِفْعال[١] .

١ - (لظلَوم ، كفّار) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ **لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**﴾[٢] .

ينتمي طرفا الظاهرة العدولية إلى حقل صيغ المبالغة ، وتُؤسَّس البنية السطحية لظاهرة العدول على صيغتين متغايرتين من هذه الصيغ :

ظَلوم ـــــ كفّار

فَعول ـــــ فَعّال

١ ينظر معاني الأبنية : ٩٣ ، ٩٤.

٢ إبراهيم : ٣٤.

ونحدس تماثل الصيغتين في بنية العمق على النحو الآتي :

ظلوم ـــــ كفور

فعول ـــــ فعول

وهو حدس علميّ يستند إلى قانوني الجوار والتماثل الموقعي اللذين يقتضيان تجانس العناصر المتجاورة والمتماثلة موقعياً تجانساً صيغياً على جهة الاستحسان لا الوجوب ، وذلك على المستوى الإخباري النفعي للكلام الذي ـــــ يُبنى في الغالب – بناءً منطقياً عقلانياً مؤسساً على ضم المتآلفات والاستيحاش من المتنافرات . أما على المستوى الفني الإبداعي فإن المفارقة وضمّ المتناقضات يصبحان عنصرين أساسيين في التشكيل اللغوي الإبداعي حين ينضويان على قيم جمالية وطاقات دلالية تعوِّض السياق عما فقده من جمالية التماثل والاتساق ومنطقية النظم والتأليف في المستوى الإخباري النفعي له .

وإذا كانت الظاهرة العدولية إحدى أبرز تمظهرات المفارقة الأسلوبية ، فلنا أن نتساءل في هذا المقام عن القيم الدلالية لظاهرة العدول عن صيغة : (فعول / لظلوم) إلى صيغة (فعَّال / كفّار) في الآية ، ونتوسّل في سبيل تحقيق هذه الغاية بما تُمدِّنا به كتب التراث النحوي من معلومات عن دلالات كل من الصيغتين (فعول ، فعَّال) .

يرى ابن طلحة أن (فَعولاً) لمن كثر منه الفعل ، وأن (فَعّالاً) لمن صار له الفعل كالصناعة[١]. ويذهب الفارابي إلى أنّ (فَعولاً) لمن دام منه الفعل [٢].

ويؤيد فاضل السامرائي الرأي القائل إن (فَعولاً) في المبالغة " منقول من أسماء الذوات ، فإنّ اسم الشيء الذي يُفعل به يكون على (فَعول) غالباً : كالوَضوء والوَقود والسَّحور والغَسول والبَخور ، فالوَضوء هو الماء الذي يُتوضأ به ، والوَقود هو ما توقد به النار ... ، ومن هنا استُعير البناء إلى المبالغة فعندما تقول : (هو صَبور) كان المعنى أنه كأنه مادة تستنفد في الصبر وتفنى فيه كالوَقود

---

١ ينظر : همع الهوامع : ٥٩/٣.

٢ ينظر : ديوان الأدب : ٨٥/١.

الذي يُستهلك في الاتقاد ويفنى فيه وكالوَضوء الذي يُستنفد في الوُضوء ... وحين نقول (هو جَزوع) كان المعنى أنه ذاتٌ تُستهلك في الجزع وكذا الغَفور أي : كله مغفرةٌ وهكذا..." [1] .

وعن صيغة (فَعّال) يقول ابن سيده : " والباب فيما كان صنعةً ومعالجةً أن يجيء على (فَعّال) ؛ لأن فَعّالاً لتكثير الفعل ، وصاحب الصنعة مداوم لصنعته فجُعل له البناء الدالّ على التكثير كالبزّاز والعطّار وغير ذلك مما لا يحصى كثرةً"[2].

ويذكر الرضيّ في شرحه على الشافية أنّ بناء (فعّال) : " لا يجيء إلا في صاحب شيء يزاول ذلك الشيء ويعالجه ويلازمه بوجه من الوجوه " [3].

ويقول العسكريّ : " وإذا فعل الفعل وقتاً بعد وقت قيل (فعّال) مثل : علاّم وصبّار " [4].

من جملة النصوص السابقة نستنتج التوصيف الزمني والتوصيف النسبي (نسبة المبالغة) لكل من صيغتي المبالغة (فعول ، فعّال) :

فعلى مستوى التوصيف الزمني : تشير صيغة (فَعول) إلى المبالغة في وصف الموصوف بالحدث على جهة الدوام والملازمة حتى لا يكاد هذا الوصف ينفك عنه بحالٍ . وتتحقق دلالتا الدوام والملازمة من خلال صيغة المبالغة (فَعول) بجعل الموصوف مادةً مستهلكةً في الحدث ، وهي دلالة منقولة من حقل أسماء الذوات الدالة على مادة الحدث كالوَضوء والبَخُور والسَّحُور والغَسُول والوَقود ... إلخ .

---

١ معاني الأبنية : ١٠٠.

٢ المخصص : ٣٩٩/٤.

٣ شرح الرضي على الشافية : ٨٤/٢ ، ٨٥ .

٤ الفروق اللغوية : ١٩.

أمّا صيغة (فَعَّال) في المبالغة فتحيل إلى دلالة اتّصاف الموصوف بممارسة الحدث على جهة التكرار والتجدد ، بحيث يصبح اتّصاف الموصوف بممارسة الحدث كاتّصاف صاحب المهنة بمهنته وصاحب الصنعة بصنعته .

والفرق الأساسيّ الجوهريّ بين الصيغتين في الدلالة الزمنية أن صيغة (فَعول) تدلّ على أنّ اتصاف الموصوف بالحدث يكاد يستغرق كل أجزاء الزمن ، ومن هنا جاءت دلالة الدوام والملازمة في حين أنّ اتصاف الموصوف بالحدث مع صيغة (فَعّال) يستغرق بعض أجزاء الزمن المتكرِّرة المتجدِّدة فإن مزاولة الصانع لصنعته والمهنيّ لمهنته لا يستغرق كل الوقت بداهةً وإن كانت هذه المزاولة تتجدّد وتتكرّر.

أما على مستوى التوصيف النسبي (نسبة المبالغة في الصيغة ، فنؤكد على أن صيغة (فعَّال) أبلغ من صيغة (فَعول) في درجة / نسبة المبالغة في اتصاف الموصوف بالحدث . ونتّكِئ في حكمنا هذا على القاعدة اللغوية المعروفة (الزيادة في المبنى زيادة في المعنى) . ولا يخفى ما في تضعيف العين من الدَّلالة على الشدة والتكثير .

نستنتج ممّا سبق : أنّ صيغة (فَعول) أبلغ من صيغة (فَعَّال) في الدّلالة على مدة اتصاف الموصوف بالحدث (الدّلالة الزمنيّة) ، وأنّ صيغة (فَعّال) أبلغ من صيغة (فَعُول) في الدلالة على شدة المبالغة وارتفاع نسبتها . وفي ضوء هذه النتيجة نقارب ظاهرة العدول في الآية .

وردت بنية العدول في سياق آيات كريمات تناولت قضيتين أساسيتين : الأولى: قضية الشرك بالله والثانية : قضية جحد الإنسان نعم الله العظيمة عليه التي لا تعد ولا تحصى ، يقول تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ . وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ . قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ . اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ

الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ . وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْأِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[١] .

وتمثِّل بنية العدول في فاصلة الآية خاتمةً مناسبةً لما تضمنته الآيات السابقة من قضيتي الشرك بالله وجحد نعمه العظيمة ، فصيغة (فَعول / لظَلوم) تناسب قضية جحد النعمة ونكرانها ، وصيغة (فَعّال / كَفّار) تناسب قضية الشرك بالله . يقول الطبريّ : " إنّ الإنسان الذي بدل نعمة الله كفراً (لظلومٌ) : يقول : لشاكر غير من أنعم عليه فهو بذلك من فعله واضعٌ الشكر في غير موضعه "[٢]. وفي تفسير الجزائري : " (لظلومٌ كفّار) : كثير الظلم لنفسه ولغيره. كفّار عظيم الكفر "[٣].

ولا شك أنّ الظلم سواءٌ أكان بمعنى جحد نعم الله وشكر غيره أم كان بمعنى ظلم الإنسان نفسه أو غيره هو من الذنوب العظيمة والأفعال القبيحة التي لا تليق بالإنسان ، ولكنه يَظل في مراتب الذنوب أقل وأدنى من مرتبة الشرك بالله والكفر به . وإذا جاز لنا أن نعد الشرك بالله نوعاً من أنواع الظلم ، فإنَّ السياقَ القرآنيَّ يعطيه طابعاً خاصاً : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٤]. فمنحه- أولاً - صفة الظلم ومنحه - ثانياً – صفة العظمة مبالغةً في التقبيح والتشنيع . ومن هنا ندرك سرَّ المغايرة بين صيغتي المبالغة في بنية العدول ، فالظلم ذنب عظيم فجيء معه بصيغة المبالغة (فَعول / لظلوم) والشرك ذنب أعظم وأفظع فآثر السياق العدول إلى صيغة (فعَّال /كفّار) في التعبير عنه، لما في هذه الصيغة من الدلالة على شدة الحدث وعظمه .

---

١ إبراهيم : ٢٨ــ ٣٤.

٢ جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ١٤/١٧.

٣ أيسر التفاسير : ٣ / ٥٨ .

٤ لقمان : ١٣.

ويحقّق العدول إلى صيغة المبالغة (فعّال / كفّار) قيمة جمالية إيقاعيـــة هـــي التجانس الصوتي مع فواصل الآي السابقة (البوار ، القرار ، النهار ، الأنهـــار ، النهار)

العدول عن صيغة اسم فاعل إلى صيغة المبالغة

١ - (شاكراً ، كفورا) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿إنا هديناه السبيل إمّا **شاكراً** وإما **كفورا**﴾[١].

تهيّمن في بنية العدول ثلاثة قوانين لغوية نعدّها مسوّغات أســـلوبيّة لتقـــديم فرضيّة تصوّريّة لبنية عميقة مغايرة للبنية التحويلية المتشكلة والطافية على السطح . هذه القوانين هي : قانون العطف وقانون الجوار وقانون التفصيل (إما التفصيلية) الذي يقتضي تماثل عناصر التفصيل صيغياً على غرار تماثلها إعرابياً (النصـــب في الآية) وعددياً (الإفراد فيها) وتنكيرياً (كلتاهما نكرة) .

تتخذ بنية العدول على مستوى بنية السطح الشكل التخطيطي الآتي :-

شاكراً ــــــــ كفوراً

اسم فاعل ــــــــ صيغة مبالغة

وفي ضوء القوانين اللغوية الثلاثة السابقة ، نتصور بنية العدول على مستوى بنية العمق على الشكل التالي :

شاكراً ــــــــ كافراً

اسم فاعل ــــــــ اسم فاعل

إن العدول عن صيغة اسم الفاعل (شاكراً) إلى صيغة المبالغة (كفوراً) يعد منبِّهاً أسلوبيًّا حاثّاً – بإلحاح – على مقاربة هذه الظاهرة الأسلوبية التـــي ضـــحّى السياق – وهو يؤسس لها – بثلاثة من القوانين اللغوية المعتبرة .

تنفتح بنية العدول في الآية على الدلالات والقيم الجمالية الآتية :

---

١ الإنسان /٣.

١) الإشارة إلى أن شكر العباد لله – مهما كثر – قليل بالقياس إلى كثرة نعم الله عليهم ؛ لذلك آثر السياق – مع الشكر – صيغة اسم الفاعل المجردة من المبالغة للنهوض بهذه الوظيفة ، في حين عدل إلى صيغة المبالغة (كفوراً) مع الكفر ؛ لأن الكفران – مهما قلَّ – كثيرٌ بالقياس إلى هذه النعم . يقول القرطبي : " وجمع بين الشاكر والكفور ، ولم يجمع بين الشكور والكفور مع اجتماعهما في معنى المبالغة ؛ نفياً للمبالغة في الشكر وإثباتاً لها في الكفر ؛ لأن شكر الله تعالى لا يؤدى ، فانتفت عنه المبالغة، ولم تنتفِ عن الكفر المبالغة ، فقلَّ شكره لكثرة النعم عليه وكثر كفره وإن قلَّ مع الإحسان إليه "[١].

٢) الإلماع إلى قلَّة المتصفين بالشكر وكثرة المتصفين بالكفر . فجاء بالصيغة المجردة من معنى المبالغة /اسم الفاعل مع القليل وجاء بالصيغة الدالة على المبالغة مع الكثير . وهذه الدلالة تعضدها سياقات قرآنية أخرى ، منها قوله تعالى : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[٢]. وقوله : ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾[٣]. وقوله :﴿وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾[٤] ، وقوله : ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[٥].

يقول القاسمي : "لطيفة : قال في (النهر) لمّا كان الشكر قل من يتصف به ، قال : (شاكراً). ولمّا كان الكفر كثيراً من يتصف به ويكثر وقوعه من الإنسان بخلاف الشكر ، قال (كفوراً) بصيغة المبالغة"[٦].

٣) أنّ الشكر أول ما يُتوقع من الإنسان عقيب الهداية فلم يحتج الأمر إلى مبالغة ، فجيء باسم الفاعل ، وأما الكفران وجحود نعمة الهداية ، فهو من الأمور الشنيعة

---

١ الجامع لأحكام القرآن : ١٢٢/١٩.

٢ سبأ : ١٣.

٣ الأنعام : ١١٦.

٤ الأعراف : ١٠٢.

٥ يوسف : ١٠٣.

٦ محاسن التأويل : ٢٣٠/٧.

المستبعدة في ميزان الاعتراف بالفضل ؛ لذلك عُبِّر عنه بصيغة المبالغة (كفوراً) . وفي هذا السياق يقول سيد قطب : " وعبّر عن الهدى بالشكر ؛ لأن الشكر أقرب خاطر يرد على قلب المهتدي؛ بعد إذ يعلم أنه لم يكن شيئاً مذكوراً ، فأراد ربه له أن يكون شيئاً مذكوراً، ووهب له السمع والبصر وزوّده بالقدرة على المعرفة ثم هداه السبيل وتركه يختار ... الشكر هو الخاطر الأول الذي يرد على قلب المؤمن في هذه المناسبة ، فإذا لم يشكر فهو الكفور – بهذه الصيغة الموغلة في الدلالة على الكفران"[1] .

٤) وفي العدول إلى صيغة المبالغة (كفورا) ، إشارة لطيفة إلى أن الإنسان لا يخلو من الأخذ بحظ من الكفران ولو قليل . ولكنّ المحاسبة والعقاب إنما يكونان على المبالغة والإفراط في الكفر ، وكأن الكفران القليل لا يلتفت إليه الله ولا يعده ولا يحاسب الإنسان عليه ولا يؤاخذه به .

٥) إنَّ هذا العدولَ يُكسب بنية الآية الكريمة قيمةً جماليةً إيقاعيَّةً متولدةً عن التجانس الصوتيِّ بين صيغة (كفوراً) في الفاصلة ، وبين مثيلاتها في فواصل الآي السابقة واللاحقة .

٢- (ساحر ، سحّار) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿قَالَ لِلْمَلأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ . قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾[2] .

من الظواهر الأسلوبية اللافتة للنظر في بنية الآيات السابقة توظيف مادة (سحر) بصيغتين متغايرتين : الأولى : صيغة اسم الفاعل (لساحر) والثانية صيغة المبالغة (سحّار) .

١ في ظلال القرآن الكريم : ٣٧٨٠/٦.

٢ الشعراء / ٣٤، ٣٧.

ولا نعُدُّ هذا التوظيف مفرغاً من أيّ قيم دلالية إيحائية خلافاً لابن عاشور الـــذي يذهب إلى أنّ : " السحّار) مرادف للساحر في الاستعمال ؛ لأنّ صيغة (فعّال) – هُنا – للنسبة دلالةً على الصناعة مثل النجّار والقصّار "[1].

ولا خلاف حول دلالة صيغة (فعّال) على الصناعة ، ولكن الخـــلاف حـــول اعتبارها مرادفةً لصيغة (فاعل) ، فإن صيغة (فعّال) الدالة على الصناعة تحمـــل معنى المبالغة بما تدلّ عليه من معنى تكرار الحدث وممارسته وامتهانه ، بـــل إن بعض الدارسين ليذهب إلى أن (فَعّالاً) في المبالغة أصل لفعّال فـــي الصـــناعة ، يقول الرضي : " إلّا أن فعّالاً لما كان في الأصل لمبالغة الفاعل ، ففعّـــال الـــذي بمعنى ذي كذا لا يجيء إلا في صاحب شيء يزاول ذلك الشيء ويعالجه ويلازمه بوجهٍ من الوجوه : إما من جهة البيع كبقّال أو من جهة القيـــام بحالـــه كالجمّـــال والبغّال أو باستعماله كالسيّاف أو غير ذلك "[2].

إن مقولة الترادف هذه تقتضي التسليم بمنطقية ذا الاستعمال وخلوّه مـــن أيٍّ مؤِّشرات دلالية أو قيم جمالية . ونؤكّد في هذا السياق على أن هـــذا الاســـتعمال العدوليّ هو أحد المنبّهات الأسلوبية الفذّة والظواهر العدولية المتفوّقة التي يحفـــل بها النصُّ القرآنيُّ الكريم . ونفترض أنَّ البنيةَ المتغايرةَ – صيغياً – على مستوى بنية السطح :

لساحرٌ ـــــــــ سحّار

اسم فاعل ـــــــــ صيغة مبالغة

متحولة عن بنيةٍ متجانسةٍ صيغياً – على مستوى بنية العمق :

لساحرٌ ـــــــــ ساحرٌ

اسم فاعل ـــــــــ اسم فاعل

---

١ التحرير والتنوير : ١٩/ ١٣٨.

٢ شرح الرضي على الشافية : ٢/٨٤-٨٥.

ويرفدنا النصّ القرآني بسياق لغوي يعزّز هذه النظرية التحويلية ويقدّم نموذجاً تصوريّاً للبنية العميقة للآيات الكريمات موضوع الدراسة يقول تعالى : " قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا **لَسَاحِرٌ** عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ . قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلِّ **سَاحِرٍ** عَلِيمٍ " [١].

فمادة (سحر) وردت في هذه الآيات بصيغتين متجانستين هما صيغتا اسم الفاعل :

لساحرٌ ـــــ ساحرٌ

اسم فاعل ـــــ اسم فاعل

ممّا يؤكد صِحّة التصور الذي قدمناه للبنية العميقة للآيات المدروسة .

وبملحظٍ من أن السياق العام لآيات الشعراء هو السياق ذاته لآيات الأعراف ، فإنه يحسن بنا – ونحن نسعى لمقاربة بنية العدول – أن نسجّل الملاحظتين الآتيتين :

١- قائل عبارة (إنّ هذا لساحرٌ عليم) في سورة الشعراء هو فرعون : **(**قال للملأ حوله : إن هذا لساحرٌ عليم **)** في حين أن قائلها في سورة الأعراف الملأ : ﴿قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحرٌ عليم﴾ [٢] [٣].

٢- تشتمل آيات الشعراء على كلمة (بسحره) في حين تخلو آيات الأعراف من هذا الدالّ [٤].

من وجهة نظر نفسية ندرك أن الجوّ النفسيّ في سياق آيات الشعراء يختلف عنه في سياق آيات الأعراف فهو في السياق الأول – الذي نسعى لمقاربته – جوّ قلق وتوجس واضطراب . والعنصر الفاعل في هذا الجو المتوتّر هو فرعون نفسه الذي أدرك بوعيه أن ما جاء به موسى من آيات (انقلاب العصا حيةً ، وخروج

---

١ الأعراف : ١٠٩ ، ١١٢.

٢ الأعراف : ١٠٩.

٣ ينظر : الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم : ١٠٣، ١٠٤.

٤ السابق : ١٠٣.

اليد بيضاء من غير سوء) يختلف اختلافاً جوهرياً عن الحركات التخييلية والألعاب السحرية التي كانت شائعةً في عصره . إنها آيات حقيقية ليس فيها شُبهة سحر.

هذه الحقيقة المرعبة جعلت فرعون يعــيش حالــةً مــن القلــق والخــوف والاضطراب . وفي محاولةٍ تضليلية يائسةٍ من فرعون لإخفاء ما تملّكه من خوف وقلق عن عيون بطانته وحاشيته التي تراقب كلّ حركة وكلّ التفاتة وكلّ انفعــال يصدر عن (ربهم الأعلى) ، يقدِّم فرعون وصفاً باهتاً لموسى فهو مجرّد(ساحر) (إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ) هكذا !! بهذه الصيغة المجردة من معنى المبالغة والتأكيد .

لكنّ العقل الباطن لفرعون الذي يضطرب بالقلق والخوف والتوتر والتوجّس لا يلبث أن يُعلن انهياره واستسلامه تحت وطــأة هــذه الانفعــالات الضــاغطة فتستجيب له حاسة الكلام /اللسان لتعبِّر عن مشاعر فرعون الحقيقية الكامنة فــي عقله الباطن ولتُترجِم تقويمَه الحقيقيّ لموسى عليه السلام فهو ليس مجرد (ساحر) ، بل هو ساحرٌ (عليمٌ).. بهذه الصيغة الموغلة فــي المبالغــة والتأكيــد . إنهــا سيكولوجية(الهفوة) التي يعوّل عليها المحلل النفسيّ كثيراً ويرصدها على شــفتي مريضه في لحظات التداعي والاسترسال .

وبكل حذقٍ وفطنة تلتقط حاشية فرعون هذه الهفوة التعبيرية لتعيــد تقــويم فــــــــرعون نفسيّاً على خلاف التقويــــــــم الوهميّ الذي قدمه لنفسه من خلال تقنية (الإيهام). ثم يحلو لها أن تتقمّص شخصية المحلِّل النفسيّ فــي هــذا الجو النفسيّ المتوتّر في محاولة منها لتهدئة فرعون وبثِّ السكينة والطمأنينة فــي جنبات هذا الروح المضطرب المتوجِّس. وفي سبيل تحقيق هــذه الغايــة تحشــد حاشية فرعون كل الدوالّ اللغوية ذات الطاقات الإيحائية الخصبة المؤثرة تــأثيراً إيجابياً :

فإذا كان مصدرُ قلقِ فرعون وخوفِه عنصراً منفرداً يفتقر إلــى العناصــر الدّاعمة المؤيِّدة (موسى) ، فإن لدى فرعون كثرةً كاثرةً من العناصــر الدّاعمــة بإيحاء الدالّ (كلّ) . فيكون الإيحاءُ بعدم التكافؤ بين الفــريقين علــى المســتوى العدديّ إحدى وسائل العلاج النفسي لبثِّ الطمأنينةِ والأمنِ في نفس فرعون .

وتمثِّل تقنية العدول إلى صيغة المبالغة (سحّار) وسيلةً أخرى من وسائل العلاج النفسيّ ، فإذا كان موسى (ساحراً) عاديّاً – زعموا - فإنّ سحرة فرعون على مستوى عالٍ من المهارة والبراعة في فنِّ السحر بتأكيد الدّالّ (سحّار) ، فلا تكافؤ بين الفريقين على مستوى المهارة أيضاً ، فيكون الإيحاء بعدم التكافؤ بينهما على هذا المستوى عاملاً إضافياً من عوامل بثِّ الطمأنينة والسكينة في نفس فرعون .

هذه الوظيفة النفسية لكلٍّ من دال الشمول والعموم (كلّ) ودالّ المبالغة (سحّار) كان قد ألمع إليها الزمخشريّ إلماعةً عابرة جامعة بقوله : " فجاءوا بكلمة الإحاطة وصفة المبالغة ليُطامنوا من نفسه ويسكِّنوا بعض قلقه " [1].

ومن زاويةٍ نفسية مغايرةٍ تؤدي تقنيةُ العدول إلى صيغة المبالغة (سحّار) وظيفةً نفسيةً مدهشة . ففرعون من هذه الزاوية يمارس مع حاشيته تقنية (الاستبطان) أو سبر أغوار النفس لمعرفة ردّة الفعل وقياس عمق التأثير الذي خلّفته آياتُ موسى عليه السلام الخارقةُ في نفوسهم ، فَوَسَمَ موسى – ابتداءً- بصفة السحر . وهو وصف – وإن كان يخلو من دلالة المبالغة صيغياً – فإنه يتشبع بهذه الدلالة بتأثير علاقته الوصفية بدالّ المبالغة (عليم) . فليس موسى – في نظره- مجرّد (ساحر) ، بل هو ساحرٌ (عليمٌ) ماهر بفنون السحر ، وهو إلى كلّ ذلك قويّ التأثير بحيث يصبح سبباً رئيسياً في إخراجهم من أرضهم وإجلائهم عنها بفعل هذه المهارة المدهشة بتأكيد الدالِّ (بسحره) [2].

وتمارس حاشية فرعون – إزاء هذا الأسلوب الاستبطاني – نوعاً من الدفاع غير المباشر عن النفس من خلال تقنية (الإيحاء) بتوظيف مجموعة من الدوالّ اللغوية ؛ لإقناع فرعون بعدمِ تأثير آيات موسى في نفوسهم . وأوّل هذه الدوالّ فعل الأمر (أرجه). إن طلب حاشية فرعون منه إرجاء موسى وأخيه وتأخيرهما

---

١ الكشاف : ٣١١/٣.

٢ ينظر في دلالة زيادة كلمة (بسحره) في آيات الشعراء : الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم : ١٠٣، ١٠٤.

وعدم الإسراع بعقوبتهما يمثِّل نوعاً من الإيحاء النفسي باستهانتهم بمقدرة موسى وأخيه وعدم استشعارهم خطورة السحر الذي مارساه وفاعليته إلى الحد الذي يمكِّنهما من إخراج قوم فرعون من أرضهم . ولو أنهم قد تأثروا بآيات موسى واستشعروا خطره لطالبوا فرعون بالتعجيل بقتل موسى وأخيه تفادياً لهذا الخطر.

وثاني هذه الدوالّ صيغة المبالغة (سحّار) في بنية العدول . فإذا كان موسى ساحراً عليماً فلن يكون لهذا تأثير في نفوسهم ، فلديهم من السحرة المهرة من يفوق سحره سحر موسى ، وتأتي صيغة المبالغة (سحّار) دالةً على هذا المعنى فضلاً عن اقترانها بدالِّ الشمول والعموم (كل) الذي يشير إلى إيجابية التفوق العددي لمصلحتهم .

ولئن كانت صفة السحر عند موسى تكتسب دلالة المبالغة من خلال علاقتها الوصفية بدالّ المبالغة (عليم) . فإن هذا الدالّ يؤدي الوظيفةَ ذاتَها من خلال العلاقةِ ذاتِها مع صفة السحر عند سحرة فرعون ، فالتكافؤ المعرفي بين الفريقين متحقِّق من خلال دالّ المبالغة (عليم) ، فموسى (عليم) وسحرة فرعون كل واحد منهم (عليم) ، ويظلّ التفوُّق المهاري في فنّ السِّحر قائماً لمصلحة سحرة فرعون بدلالة صيغة المبالغة (سحّار).

ويخلو سياق آيات الأعراف من كل هذه المنبِّهات الأسلوبية والدوالّ اللغوية الفذّة التى حفل بها سياق آيات الشعراء ، وما ذلك إلا لأنّ الجوّ النفسي المتوتر في آيات الأعراف يكاد يغيب ، فشخصية فرعون التي امتلكت حضوراً فاعلاً في سياق آيات الشعراء بوصفها قطباً رئيسيّاً في تقنية الحوار النفسي ومصدراً أساسياً للجوِّ النفسيِّ المتوتِّر ، هذه الشخصية غُيِّبتْ – تماماً – في سياق آيات الأعراف فغاب الجوُّ النفسيُّ المتوتِّر ممّا يفسِّر غياب الدوالّ اللغوية عن هذا السياق التي كان لها حضور إيجابيّ في سياق آيات الشعراء بوصفها وسائلَ لغويةً فاعلةً في التخفيف من حِدَّةِ الجوِّ النفسيِّ العصيب .

٣- **(ساحر ، كذّاب)** :

وذلك في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا **سَاحِرٌ كَذَّابٌ**﴾ [١] .

هذا سياق آخر من السياقات القرآنية التي استوعبت قصة سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون وملئه . وهو – أيضاً- يشتمل على ظاهرة عدولية تنغلق على صفتين منحولتين أو تهمتين من التهم المفتراة على موسى عليه السلام من قبل فرعون وحاشيته هما صفتا : السحر والكذب .

وتصبح البنية الوصفية ظاهرةً أسلوبيةً مثيرةً للجدل حين تفقد دوالّ الوصف خصيصة الاتساق الصيغي في ظل توافر خصيصة الاتساق الموقعي الإعرابي وفي ظل وحدانية الواصف ووحدانية الموصوف وفي ظلّ توافر الصيغة البديلة للصيغة المنزاحة التي تحقق جمالية الاتساق الصيغي .

إن من مقتضيات جمالية الاتساق تماثل داليّ الوصف في بنية العدول على صيغة اسم الفاعل (ساحر ، كاذب) أو على صيغة المبالغة (سحّار ، كذّاب) . ولما كان السياقُ آثر صيغة اسم الفاعل ابتداءً (ساحر) ، فإننا نعد هذا الاختيار وسيلةً من وسائل الترشيح الأسلوبي لهذه الصيغة ؛ لبناء نسقٍ متتابع من الدوالّ المتجانسة صيغياً في بنية الوصف . ويدهشنا السياق حين يكسر هذا النسق المتجانس المتوقع بالعدول إلى صيغة المبالغة (كذّاب) ليصبح هذا العدول منبِّهاً أسلوبياً على تشكُّل ظاهرة فنية مقصودة تثري السياق بقيم دلالية وإيحائية تعوّضه عن جمالية الاتّساق الصيغي .

في بنية العدول تُبرِز صيغة اسم الفاعل (ساحر) صفةً إيجابيةً تجاورها على مستوى البنية ذاتها صفة سلبية تبرزها صيغة المبالغة (كذّاب) . وتكتسب صفة السحر سمتها الإيجابية بالنظر إلى السياق الزماني والمكاني الذي قيلت فيه . ففي هذه الفترة وفي هذه البيئة كان السحر هو الفن الإبداعي الأول الذي برع فيه المصريون القدماء ، بل إنه كان أحد مصادر القوة للمملكة الفرعونية بدليل أنه

---

١ غافر / ٢٣ ــ ٢٤ .

كان القوة المضادة التي فزع إليها فرعون وملؤه لمجابهة ما أسموه بسحر موسى ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾[1].

ومع أن صفة السحر التي ألصقها فرعون وملؤه بموسى كان الهدف منها خلع سمة البشرية على معجزات موسى (انقلاب العصا حية ، وخروج اليد بيضاء) وسلبها صفة الإعجاز الإلهيّ وتجريدها من الخصوصيّة والتفرد ، فإنّ فرعون وقومه لم يريدوا أن يعظموا من شأن موسى بالمبالغة في وصفه بالسحر لكونها صفة إيجابية فجاؤوا بصيغة اسم الفاعل المجردة من معنى المبالغة . فوسموه بالسحر ابتداءً ، ثم قللوا من شأنه فيه .

ولأن صفةَ الكذب صفةٌ سلبيةٌ ، فقد بالغ فرعون وقومه في إلصاقها بموسى بالعدول إلى صيغة المبالغة (كذّاب) ؛ لأنه ــ في اعتقادهم ــ قد كذب كذبتين عظيمتين: الأولى : أنه ادّعى وجود إله غير فرعون ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[2].

والثانية : أنه ادَّعى أنه رسول من الله : ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾[3].

فيكونُ موسى ــ عليه السلام ــ بذلك قد كذب كذباً مزدوجاً ــ زعموا ــ فاستحق المبالغة في وصفه بالكذب .

---

١ الشعراء : ٣٦، ٣٧.

٢ طه / ٥٠.

٣ الأعراف / ١٠٤.

٤ - (**مبشراً ، نذيراً**) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ **مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا**﴾[1] .

تمنحنا قوانين الجوار والعطف والتماثل الموقعي صلاحية تقديم رؤية تصورية لبنية عميقة مغايرة لبنية السطح ، تحقق جمالية الاتساق الصيغي لبنية العدول على النحو الآتي :

مبشراً ـــــــ منذراً

اسم فاعل ـــــــ اسم فاعل

ويمنحنا الثقة بصواب هذه الرؤية التصورية نصٌّ تراثي نفيس هو قول البغوي : "وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً " أي ومنذراً"[2] .

إن هذا التأويل التصوري يستند إلى حقيقة نفسية مؤدّاها أن الذوق الإنساني السليم يميل إلى التناسق والاتساق ويجنح إلى إعادة تحقيق التلاؤم والتجانس بين المتغايرات ، ويصبح هذا التجانس ضرورة ملحة حين يبرز التغاير على مستوى الدوالّ اللغوية المتجاورة . ولا يُفهم من ذلك أن التغاير بين الصيغتين في بنية العدول في الآية يُعدّ شكلاً من أشكال التنافر وعدم الانسجام – حاشا لله – فلئن كان التجانس والاتساق بين الدوالّ المتجاورة مطلباً عقلياً منطقياً ؛ فإنّ التأليف بين المتنافرات والجمع بين المتغايرات يُعدّ نمطاً متفوقاً من أنماط التشكيل الجمالي ، وبخاصَّةٍ حين يحقق هذا المسلك الأسلوبي قيماً دلاليةً وأغراضاً بلاغيةً مقصودةً ، وهو ما حفلت به بنية العدول في الآية كما سيظهر لنا لاحقاً .

إن السياقَ القرآنيَّ ــ وهو يتجاوز القوانين اللغوية التي أشرنا إليها سابقاً وما تقتضيه من تجانس بين طرفي بنية العدول ــ ليسعى لتحقيق قيم دلالية لا يمكن تحقيقها في ظل تجانس هذين الطرفين . فما هذه القيم ؟ .

---

١ الإسراء / ١٠٥.

٢ معالم التنزيل : ١/ ٩١.

تنفتح بنية العدول على الدلالات الآتية :-

١- الإشارة إلى أنّ حدث التبشير يتحقق بـأدنى مجهـود ولا يقتضـي المبالغة في خطاب المبشَّر وتكرار هذا الخطاب فجاء معه بصيغة اسـم الفاعـل المجردة من معنى المبالغة ، في حين أن الإنذار يقتضي استنفاد الجهد واسـتفراغ الطاقة في تحذير المخاطب وتكرار حدث الإنذار فجيء معـه بصـيغة المبالغـة (نذيراً) .

٢ - الإلماع إلى أن وظيفة الإنذار أهم من وظيفة التبشير وأنفع للناس على أهمية التبشير ونفعه .فالبشارة ، هي الإعلام بخير قادم ، والإنذار : هو التحـذير من شرٍّ قادم ، يقول ابن عاشور في قولـــه تعالى : ﴿يَا أَيُّهَـا النَّبِـيُّ إِنَّـا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[١]: " والمبشِّر : المخبر بالبشرى ، والبشارة : هي الحادث المسرّ لمن يُخبر به والوعد بالعطية ... والنذير مشتق من الإنذار وهـو الإخبار بحلول حادث مسيء أو قرب حلوله"[٢].

ولا شكّ أن التحذير من الشر القادم أحب إلى الإنسان وأنفع له وأهم عنده من الإعلام بخير قادم ؛ ذلك أنه لا ضرر على الإنسان من عدم إبلاغه مسبقاً بخيـر قادم إليه حتماً أو من مجيء هذا الخير على حين غفلة أو على غير توقع منـه ، ولكن الضرر الحقيقيّ للإنسان ألا يُنذر ويحذر من شرٍّ قادم إليه حتمـاً ، فإنـذاره بهذا الشر القادم نعمة عظيمة وخير كثير ؛ ذلك أنه سيدفع الإنسان للاحتياط لنفسه وتفادي هذا الخطر المحقق بتجنُّب دواعيه ومسبباته فيكون قد نجا من شرٍّ محقق . فالسلامة من الشر ـــ على الإجمال ـــ أحبُّ إلى الإنسان من تحصيل الخير ؛ لذلك عدل السياق إلى صيغة المبالغة مع فعل الإنذار للتأكيد على أهميته بالقياس إلى فعل التبشير على مستوى الوظيفة النبوية .

ومما يؤكِّد هذه الحقيقة أن القرآن الكريم في بعض سياقاته الأخرى يكاد يقصُر وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم على الإنذار دون التبشـير ، يقـول

---

١ الأحزاب : ٤٥.

٢ التحرير والتنوير : ٢١/ ٢٨٠.

تعالى : ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾[1]. ويقول : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾[2]. ويقول : ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾[3]. ويقول : ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[4].

٣- إن العدول إلى صيغة المبالغة (نذيراً) ــ وإن كان يضحِّي بقيمة التجانس على مستوى الصيغة مع الصيغة المجاورة (مبشراً) ــ يحقِّقُ تجانساً آخر على مستوى الإيقاع مع صيغة (لفيفاً) السابقة وصيغة (تنزيلاً) الآتية ، وهو تجانس ينضاف إلى تجانس آخر بين هذه الصيغ الثلاث هو التجانس الموقعي/موقع الفاصلة .

ومن النماذج العدولية المشابهة التي تكتنز الدلالات ذاتها قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾[5].

وفي حقل الصفات الإلهية تبرز ظاهرة العدول عن اسم الفاعل إلى صيغة المبالغة بشكل لافت للنظر ؛ لتشكل نسقاً فريداً حافلاً بدلالات فذّة ؛ ولتمثِّل ــ في الوقت ذاته ــ نموذجاً استثنائياً خاصّاً يوقع الدارس في إشكالية مشروعية استعمال مصطلح (صيغة المبالغة) وهو يقدم رؤية تأويلية للظاهرة العدولية في هذا الحقل المقدس .

فإذا كانت الصفات الإلهية تمثّل المستوى الأعلى من الكفاءة والكمال ، وتنتظم في هذا المستوى على نمط أفقي متساوٍ ومتوازٍ ، فإن الإشكالية تكمن في التحرُّج من توظيف مصطلح صيغة المبالغة في هذا الحقل ؛ لأنّ هذا المصطلح يقتضي تفاوت الصفات الإلهية في درجة الكفاءة فمنها صفات مجردة من معنى المبالغة ومنها صفات تحفل بهذه الدلالة .

ويعالج أبو حيان قضية المبالغة في باب الصفات الإلهية في سياق حديثه عن صيغة المبالغة (عليم) فيرى أن المبالغة تكون "بأحد أمرين : إمَّا بالنسبة لتكرير

---

١ فاطر : ٢٣.

٢ هود : ١٢.

٣ الحجر: ٨٩.

٤ فاطر : ٢٤.

٥ الأحزاب : ٤٥.

وقوع الوصف سواءٌ أتحد متعلقه أم تكثّر ، وإما بالنسبة إلى تكثيــر المتعلــق لا تكثير الوصف ، ومن هذا الثاني المبالغة في صفات الله تعالى ؛ لأنّ علمه تعــالى واحدٌ لا تكثير فيه"[1] .

وعلى ذلك يجوز ــ دون تحرُّج ــ إطلاق مصطلح (صيغة المبالغــة) فــي باب الصفات الإلهية ، لا على إرادة معنى المبالغة والتكثير في ذات الصفة ، بل على إرادة هذين المعنيين في متعلقات الصفة ولوازمها ، فالله ســبحانه وتعــالى (عليمٌ) باعتبار كثرة المعلوم ، وهو سميع باعتبار كثرة المسموع وبصير باعتبار كثرة الــمُبْصَر ... إلخ .

وفي ضوء ما سبق يمكن تفسير ظاهرة الجمع بين صيغة المبالغة وصــيغة اسم الفاعل في عرض الصفات الإلهية . وهي ظاهرة تشيع كثيراً فــي فواصــل الآي القرآنية حيث يسهل ملاحظة الانسجام التام بين معنى المبالغــة فــي هــذه الصيغة (الصفة الإلهية) وبين معنى التكثير والمبالغة في متعلق هذه الصفة ممــا سبقت الإشارة إليه والتنويه به في سياق الآية أو الآيات السابقة عليها . وفي هذا السياق يقول أبو حيّان في تأويل قوله تعالى : " وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ "[2] : " (بكل) متعلق بقوله (عليم) .. وهو أحد الأمثلة الخمسة التي للمبالغة ... وصــف نفســه تعالى بالصفة التي دلت على المبالغة وناسب مقطع هذه الآية بالوصــف بمبالغــة العلم ؛ لأنه تقدم ذكر خلق الأرض والسماء والتصرف في العالم العلوي والسفلي وغير ذلك ... كل ذلك يدل على صدور هذه الأشياء عن العلم الكامل التام المحيط بجميع الأشياء "[3] .

٥ - (واسعٌ ، عليمٌ) :

---

١ البحر المحيط : ١ / ٢٨٣ .

٢ البقرة :٢٩.

٣ البحر المحيط : ١ / ٢٨٣ .

وذلك في قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1] .

يؤثر سياق الآية الكريمة العدول عن صيغة اسم الفاعل (واسع) إلى صيغة المبالغة (عليم) ونفترض تماثلهما على صيغة اسم الفاعل (واسع ، عالم) اتكاءً على قانوني الجوار والتماثل الموقعي .

إنّ صيغة المبالغة (عليم) لا يُقصد بها الدلالة على المبالغة والتكثير في علم الله ؛ لأن علم الله واحدٌ لا تكثير فيه ــ على حد تعبير أبي حيان ــ ولكن المقصود الدلالة على المبالغة في المعلوم والتكثير فيه . ويرفدنا سبب نزول الآية ببيان هذا المعلوم ، يقول الزمخشري : " وعن ابن عمر : نزلت في صلاة المسافر على الراحلة أينما توجهت . وعن عطاء : عُمِّيتِ القبلة على قوم فصلوا إلى أنحاء مختلفة ، فلمّا أصبحوا تبينوا خطأهم فَعُذِروا " [2].

وعن دلالة صيغة (عليم) يقول البغوي : " (عليمٌ) بنياتهم حيثما صلوا ودعوا"[3]، ويقول السعدي : " عليم بسرائركم ونياتكم "[4].

فصيغة المبالغة (عليم) تتعلق بعلم السرائر والنيات ، هذا المعلوم اللطيف الخفيّ الموغل في الخفاء والغياب لا يدركه إلا عالم واسع العلم عظيم الإدراك ، فجاء العدول إلى صيغة المبالغة (عليم) ليحقق قيمة التناسب الدلالي مع المعلوم/النيات والسرائر .

ومن نماذج العدول في هذا الحقل المبارك التي تحقق قيمة التناسب الدلالي بين صيغة المبالغة المعدول إليها ومضمون الآية السابقة :

٦- قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ **هَادِيًا وَنَصِيرًا**﴾[1] .

---

١ البقرة /١١٥.

٢ الكشاف : ١٨٠/١.

٣ معالم التنزيل : ١٣٩/١

٤ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : ٦٤ .

في مستهلّ الآية يبالغ السياق القرآني في وصف العداء الذي يتعـرض لـه الأنبياء عليهم السلام من أقوامهم في سبيل الدعوة المباركة بغرض بث السكينة والطمأنينة في نفسه عليه الصلاة والسلام فهو ليس بِدْعاً من الرسل . ومن الدوالّ اللغوية التي يوظِّفها السياق لتحقيق هذا الغرض الدالّ (عدوّاً) الذي ينفتح على دلالة الإفراد والجمع يقول النسفي : " والعدوّ يجوز أن يكون واحداً وجمعاً" [٢].

ويقول ابن عاشور : " والعدوّ : اسم يقع على المفرد والجمع " [٣]. فعداء الكافرين لأنبيائهم عام مستشرٍ على مستوى الفرد والجماعة .

ويعزِّز السياق دلالة المبالغة في العداء بدالٍّ لغوي إضافي هو شبه الجملة(من المجرمين) المكون من حرف الجر والمجرور الجمعي . وهي دلالة لا يؤديها دالّ الوصف المباشر (عدوّاً مجرماً ، أو عدوّاً مجرمين) ؛ ذلك لأنّ دالّ الجرّ (مِنْ) الذي يحمل دلالة التبعيض مقترناً بدال المجرور الجمعي (المجرمين) يشيران إلى دلالة انخراط هؤلاء الكافرين في عصابة من المجرمين ممّا يُضفي على صفة العداء بعداً مبالغاتياً ، فهؤلاء الأعداء محاطون بعصابة من المجرمين تناصرهم وتؤيدهم وتحول دون نشوء نوع من الخطاب السلمي والتفاعل الإيجابي بينهم وبين أنبيائهم وذلك أدعى إلى تفاقم العداء واستشرائه .

إنَّ هذه الصورة العدائية المبالغ فيها لجديرة بخلق جو من القلق والخوف في نفس النبي صلى الله عليه وسلم على مصيره ومصير دعوته في هذا الجو العدائي القاتم . وهنا تبرز القيمة الأسلوبية لتقنية العدول إلى صيغة المبالغة (نصيراً) وتتجلى فاعليتها في خلق جوٍّ مضاد مبالغ فيه من السكينة والطمأنينة والأمن في نفس النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا يصبح لهذا العداء الشديد المغرق في القتامة وزنٌ بمعية إله (نصير) لا ناصر .

٧ - (شاكراً ، عليماً) :

---

١ الفرقان / ٣١.

٢ مدارك التنزيل وحقائق التأويل : ٢٤٢/٣.

٣ التحرير والتنوير : ٤٣/١٩.

وذلك في قوله تعالى : ﴿مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ **شَاكِرًا عَلِيمًا**﴾ [1] .

تُعدُّ بنية العدول نموذجاً واضحاً لظاهرة التناسب الدلالي بين الفاصلة ومضمون الآية السابقة حيث تتناسب صيغة اسم الفاعل (شاكرً) – دلالياً – مع صيغة الماضي (شكرتم) ، وتتناسب صيغة المبالغة (عليماً) مع صيغة الماضي (آمنتم) .

يقول ابن كثير : "أي : من شكر شكر له ، ومن آمن قلبه علمه وجازاه على ذلك"[2].

ويقول القرطبيّ : " أي : يشكر عباده على طاعته ، ومعنى (يشكرهم) يثيبهم فيتقبّل العمل القليل ويُعطي عليه الثواب الجزيل ، وذلك شكر منه على عبادته"[3]. وفي زاد المسير لابن الجوزي :" أي : للقليل من أعمالكم " عليماً بنياتكم"[4] .

ويقول أبو حيّان : "وأتى بصفة الشكر باسم الفاعل بلا مبالغة ليدلّ على أنه يتقبّل ولو أقلّ شيء من العمل"[5].

إن إيثار صيغة اسم الفاعل المُفرغة من دلالة المبالغة مع صفة الشكر تنضوي على إلماعة لطيفة إلى كرم الله الفياض في قبول أقل القليل من أعمال العباد وأنه لا يكلفهم فوق طاقتهم ، وفي ذلك حثٌّ للمسلم على ألَّا يحقر من المعروف شيئاً .

وتكتنز صيغة اسم الفاعل (شاكراً) دلالةً لطيفةً أخرى هي الإشارة إلى أن شكر العباد لخالقهم – مهما كثر – قليلٌ بالقياس إلى نعمه عليهم فلا يحتاج المقام

---

١ النساء / ١٤٧.

٢ تفسير القرآن العظيم : ٤٤٢/٢.

٣ الجامع لأحكام القرآن : مج ٣ ، ج٥ / ٤٢٧ .

٤ زاد المسير : ٣٣٨ .

٥ البحر المحيط : ٣ / ٣٩٧ .

إلى المبالغة في التعبير عن الجزاء. ومن الدوالّ اللغوية الداعمة لصيغة اسم الفاعل في الدلالة على قلّة شكر العباد لخالقهم دالّ الشرط (إنْ) الذي يدل على الشك بالقياس إلى دالّ الشرط (إذا) الدالّ على التحقيق . فيكون إيثار السياق لهذا الدالّ الشرطي مؤشراً أسلوبياً إلى أن قيام الإنسان بحق الشكر لله على الوجه الأكمل المطلوب منه مشكوك فيه ، وهذا يقتضي أن كل شكر يصدر عن الإنسان نحو خالقه ناقصٌ قليل . ومن هذه الدوالّ أيضاً صيغة الماضي (شكَر) . إن صيغة الماضي تحيل على دلالة تحجيم الحدث وانقطاع تناميه . والشيء المحجم المنقطع التنامي ناقص قليل .

وتنفتح صيغة المبالغة (عليماً) / المعدول إليه على الدلالات الآتية :

١- الإشارة إلى لطف المعلوم ودقته وخفائه ؛ لأن الإيمان من أعمال القلوب الغيبية التي يصعب إدراكها والإحاطة بها بمقاييس البشر .

٢- تنضوي هذه الصيغة على " تحذير وندب إلى الإخلاص لله تعالى "[١] . فحين يدرك الإنسان أن هذا العلم الإلهي العظيم يستظهر البواطن ويستكشف المستورات ويطلع على الغيبيات ، يكون أدعى له إلى تصحيح العقيدة وإخلاصها لله .

٣- تحقيق التناغم الإيقاعي مع صيغ فواصل الآي السابقة واللاحقة (قليلاً)، سبيلاً ، مبيناً ، نصيراً ، عظيماً ، عليماً ، قديراً ، سبيلاً ، مهيناً ، ...ألخ.

٨- (الواحد القهّار) :

وذلك في ستة مواضع في القرآن الكريم[٢] منها قوله تعالى : ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ **الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾[٣] .

---

١ البحر المحيط لأبي حيان : ٣ / ٣٩٧ .

٢ هي : الآية ٤٨ من سورة إبراهيم . والآية ٣٩ من سورة يوسف . والآية ١٦ من سورة الرعد . والآية ٦٥ من سورة ص . والآية ٤ من سورة الزمر . والآية ١٦ من سورة غافر .

٣ يوسف : ٣٩.

يُتيح قانون التماثل الموقعي لطرفي ظاهرة العدول (موقع الوصف) - في المستوى السطحي - بنيةً تصورية مغايرة قارَّةً في المستوى العميق تعيد تجنيس طرفيها على صيغة واحدة (اسم الفاعل) على النحو الآتي :

الواحد ـــــ القاهر

ليُصبح هذا التشكيل الانزياحي منبّها أسلوبيا على قيمة إيحائية دلالية يسعى السياق لتحقيقها من خلال هذا الأسلوب العدولي . فما هذه القيم ؟.

تنفتح بنية العدول إلى صيغة المبالغة (قهَّار) على الدلالات الآتية :

١- تعويض كلمة (الواحد) عن معنى المبالغة الذي تفتقر إليه من خلال صيغتها الصرفية ومادتها المعجمية . إنّ صيغة اسم الفاعل مفرغة من دلالة المبالغة وإنّ مادة (الوحدانية) – معجميا – تحيل على دلالة الضعف والانكسار المترتبين على الانفراد والافتقار إلى الناصر المعين . ولكنّ انتماء هذه المادة إلى حقل الصفات الإلهية يكسبها دلالة سياقية مخصوصة بحيث تصبح الوحدانية صفة إيجابية تشير إلى التميز والتفرّد لا صفة سلبية دالّة على الضعف والانفراد . وتُسهم صيغة المبالغة (القهّار) في تغذية هذه الدلالة الخاصة لمادة الوحدانية (الواحد) ومدّها بكل إيحاءات القوة والغلبة فهي وحدانية العزيز الغالب الذي لا يدانيه أحد ولا يشاركه في القوة والقهر والغلبة .

وقد يقال إنّ مادة القهر وردت في موضعين من القرآن الكريم في سورة الأنعام بصيغة اسم الفاعل[١]، خلافا لما في الآيات الستّ التي وردت فيها بصيغة المبالغة فما الفرق ؟.

والجواب عليه من وجهين :

١ وذلك في قوله تعالى : (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيئ قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير) الأنعام : ١٧، ١٨. وفي قوله تعالى : (وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليُقضى أجل مسمّى ثمّ إليه مرجعكم ثمّ ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفّته رسلنا وهو لا يفرِّطون) الأنعام : ٦٠، ٦١.

- الأول : أنّ صيغة اسم الفاعل (القاهر) في الموضعين المذكورين أردفت بعبارة (فوق عباده) فأكسبتها هذه العبارة دلالة المبالغة " فإنّ هذه العبارة تعطي كلمة (القاهر) تقوية وتوكيدا بحيث يقرب معناها من معنى كلمة (قهّار) "[1].

- الثاني : أنّ كلمة (القاهر) – في الموضعين – لم تأتِ رديفا لكلمة (الواحد) فلم يحتج الأمر إلى الإتيان بها بصيغة المبالغة (القهّار) ؛ لتعويض كلمة(الواحد) عن دلالة المبالغة على ما عرفنا سابقاً .

٢- ومن دلالات العدول إلى صيغة المبالغة (القهّار) تحقيق جمالية التناسب الدلالي بين فاصلة الآية والكلام السابق عليها ، فقد اشتمل الكلام السابق على عبارة قوية فخمة تتصل بمعنى الألوهية والعقيدة " أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ "[2]. فجاء العدول إلى صيغة المبالغة (القهّار) ؛ ليتناسب مع قوة العبارة السابقة عليها[3].

العدول عن صيغة اسم الفاعل إلى صيغة اسم المفعول

(والدةٌ ، مولودٌ له) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَآرَّ **وَالِدَةٌ** بِوَلَدِهَا وَلاَ **مَوْلُودٌ لَّهُ** بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُواْ

١ سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن الكريم : ١٧٥.

٢ يوسف : ٣٩.

٣ سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من جذر لغوي واحد في القرآن الكريم : ١٧٦.

أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

تمثّل ظاهرة العدول في الآية سمة أسلوبية فريدة ومدهشة في آن ، ومن بواعث الفرادة والإدهاش فيها اطّراد بناء مادة (ولد) على صيغة اسم الفاعل في سياق الحديث عن الأبوين في سياقات أخرى كثيرة وانفراد هذا السياق بتوظيف صيغة اسم المفعول المقترنة بلام الملك من المادة ذاتها مع الأب خاصة [2].

ومن تلك السياقات الكثيرة قوله تعالى : ﴿للرجال نصيبٌ مما ترك (الوالدان) والأقربون وللنساء نصيب مما ترك (الوالدن) والأقربون ...﴾[3]. وقوله تعالى : ﴿ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى (والديَّ) وأن أعمل صالحاً ترضاه ...﴾ [4] ، وقوله تعالى : ﴿ووصينا الإنسان (بوالديه) إحساناً﴾ [5].

إنَّ اطّرادَ نماذج الظاهرة الأسلوبية في سياقات شتى ، يمنح المتلقي حقَّ تأويل النموذج المنزاح وتصوره في بنية العمق على هيئة تنسجم مع النماذج المطردة ، وفي ضوء ذلك نتصور النمط الأصلي لبنية العدول في البنية العميقة على النحو الآتي : (لا تضارَّ والدة بولدها ولا والد بولده) . لكن السياق اللغوي يؤثر – في سبيل تحقيق قيمة جمالية – العدول عن صيغة اسم الفاعل (والد) إلى صيغة اسم المفعول المقترن بلام الملك (مولود له) متجاوزاً قوانين الاطراد والجوار والعطف . فما القيم الجمالية والدلالية لهذا العدول ؟ .

---

١ البقرة /٢٣٣.

٢ وردت مادة (ولد) بصغية اسم الفاعل ثماني مرات بلفظ المثنى في الآيات : ٧، ٣٣، ١٣٥ من سورة النساء ، ١٤ من سورة مريم ، ٨ من سورة العنكبوت ، ١٤ من سورة لقمان ، ١٥ ، ١٧ من سورة الأحقاف ، ومرتين بلفظ المفرد في الآية ٢٣٣من سورة البقرة وفي الآية ٣٢ من سورة مريم ، ومرة واحدة بلفظ الجمع المؤنث في الآية ٢٣٣ من سورة البقرة ، في حين وردت المادة ذاتها بصيغة اسم المفعول مقترنة بلام الملك للدلالة على الأب مرتين في الآية موضوع الدراسة .

٣ النساء / ٧.

٤ النمل /١٩.

٥ الأحقاف / ١٥.

من المحمولات الدلالية التي تكتنزها بنية المعدول إليه ما يأتي :

١) الإشارة إلى أن الولد يُنسب لأبيه لا لأمه . يقول الزمخشري : " فإن قلت لم قيل (المولود) له دون الوالد . قلت : ليعلم أن الوالدات إنما ولدن لهم لأن الأولاد للآباء ولذلك ينسبون إليهم لا إلى الأمهات "[1] . ويقول الكلبي : "والمراد بقوله : (ولا مولود له) الوالد ، وإنما ذكره بهذا اللفظ ؛ إعلاماً بأن الولد يُنسب له لا للأم "[2]. ويقول السعدي : " ودلَّ قوله : (مولود له) أن الولد لأبيه ؛ لأنه موهوب له ؛ ولأنه من كسبه ، فلذلك جاز له الأخذ من ماله رضي أو لم يرضَ بخلاف الأم"[3].

٢) الإشارة إلى أن الدلالة المقصودة من مادة (ولد) في بنية العدول ليست الدلالة الإنسانية المعروفة (الأبوة والأمومة) ، بل هي الدلالة البيولوجية الحيوية (عملية الولادة الطبيعية) ، وإن كانت الدلالة الإنسانية لهذه المادة متحققة أيضاً ؛ لأنها من لازم معنى الولادة الحيوية. ومن المؤشرات الأسلوبية إلى قصد هذه الدلالة :

أولاً : إيثار صيغة اسم الفاعل (والدة) مع الأم دون الأب ؛ لأن الولادة الحيوية البيولوجية من الخصائص النوعية للأم / الأنثى . ثم العدول إلى صيغة اسم المفعول (مولود له) المقترن بلام الملك مع الأب ؛ لأن الولادة البيولوجية ليست من خصائصه النوعية . وعلاقته بهذه العملية الحيوية علاقة تملُّك ونسبة ، فناتج هذه العملية (المولود) ملك لأبيه منسوب له ، فالأب – إذن- يولد له ولا يلد فهو (مولود له) .

ثانياً : ورود بنية العدول في سياق الحديث عن أحكام الرضاعة . والرضاعة معاقبة للولادة وكلاهما عملية حيوية أنثوية ، وكأن السياق مغلق على حقل الخصائص الأنثوية (الولادة ، الرضاعة) . فيكون العدول إلى صيغة اسم

---

١ الكشاف : ٢٧٩/١.

٢ التسهيل لعلوم التنزيل للكلبي : ١/ ٨٤.

٣ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : ١٠٤/١.

المفعول (مولود له) مع الأب مؤشراً أسلوبياً إلى أن علاقة الأب بعملية الـولادة الحيوية علاقة سلبية ؛ لأنها ليست من خصائصه النوعية ، ولكنه يظـل مرتبطاً بها من جهة العنصر الناتج عنها (المولود) الذي يُنسب إليـه بدلالـة لام الملكية (له) .

٣) الإشارة إلى عظيم معاناة الأم في عملية الولادة ؛ لذلك أسندت إليها صفة الولادة بصيغة اسم الفاعل للإلماع إلى انفرادها بتحمل مصاحبات الولادة وتبعاتها دون الأب ، ويرتبط بذلك تقديم النهي عن مضارة الأم بولدها على النهـي عـن مضارة الأب به. كما يرتبط به ــ أيضاً ــ إضافة التاء إلى اسم الفاعل (والـدة) وذلك للدلالة على الحدث / الفعل أي المرأة التي هي في حالة ولادة ، لا الدلالـة على الصفة أي التي من شأنها الولادة ، وذلك أدعى إلى الرحمـة بهـا وعـدم الإضرار بها واستعطاف القلوب عليها ، وشبيه بهـذا التوجيـه مـا وجّـه بـه الزمخشري ورود (مرضعة) بالتاء دون مرضع في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾[1] ، بقوله : " فإن قلت : لم قيل : { مُرْضِـعَةٍ } دون مرضع؟ قلت : المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصـبي . والمرضع : التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به"[2].

ولما كان الأب قد سلم – بحكم تكوينه البيولوجي وخصائصه النوعية – من كل ذلك فقد أُخِّر النهي عن مضارته بولده وأسندت إليه مادة الولادة بصيغة اسـم المفعول المقترن بلام الملكية فهو مجرد (مولود له) غيـر متصـف بـالأعراض الحافة بعملية الولادة البيولوجية بحكم خصائصه النوعية الذكورية .

العدول عن صيغة اسم الجنس إلى صيغة اسم المفعول

(ولد ، مولود) :

[1] الحج : ٢

[2] الكشاف : ٢ / ١٤٢.

وذلك في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن **وَلَدِهِ** وَلَا **مَوْلُودٌ** هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[1] .

على مستوى البنية السطحية تبرز المفارقة واضحة في العدول عن صيغة اسم الجنس (ولد) إلى صيغة اسم المفعول (مولود) . ويمنحنا قانون العطف صلاحية إعادة تجنيس الصيغتين في البنية العميقة على النحو الآتي :

والد عن ولده ـــــــ ولا ولد هو جازٍ عن والده

يوظف سياق الآية الكريمة تقنية العدول ؛ لتقديم توصيف نسبي لعاطفة الحب الإنسانية بين الوالد وأولاده . وتفيض صيغة اسم الجنس (ولده) بينابيع متدفقة من الحب الأبوي الذي يتجاوز – في غير هذا الموقف وفي غير هذا اليوم – عنصر التولد الطبيعي/المولود/الابن المباشر؛ ليغمر عناصر أخرى في سلسلة التولد المتصلة /ابن الابن وابن ابن الابن...إلخ . كما يتجاوز حدود الجنس والنوع ليحتوي كلا الجنسين الذكر والأنثى . ويتجاوز أخيراً حيز التحجير العددي ليستوعب الواحد والمتعدد ، فالدالّ (ولد) من حيث هو صيغة اسم جنس " يتناول الذكر والأنثى من الابن وابن الابن - وإن سفل – والبنت وبنت البنت – وإن سفلت – أيضاً ؛ لأنه مشتق من التولُّد وكذا يتناول الواحد والمتعدد "[2].

ويمتلك دالّ اسم الجنس (ولد) قيمة دلالية إضافية حين يتجاوز علاقة التولّد الطبيعية وما ينتج عنها من عناصر مباشرة وغير مباشرة ؛ ليستوعب - بصورة استثنائية – عنصراً خارجياً مقطوع الصلة بعناصر التولد الطبيعي هو الابن بالتبنِّي إذْ " يُقال للمتبنَّى ولد . قال تعالى ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾[3] "[4].

---

١ لقمان : ٣٣.

٢ الكليات : ٩٤٥,٩٤٤.

٣ يوسف : ٢١.

٤ مفردات الراغب : ٥٤٧.

وفي مقابل الحب الكبير والعاطفة الأبوية العميقة الممتدّة يُبرز السياق – من خلال تقنية العدول إلى صيغة اسم المفعول (مولود) – عاطفة مغايرة ضيقة/الحب البنوي التي تنغلق على العنصر القريب المباشر/الوالد ؛ ذلك لأنّ (المولود) لا يطلق - في اللغة - إلّا على عنصر التولُّد المباشر/الابن من الصلب فحسب[1]. والسياق إذ ينحو هذا المنحى العدولي إنّما يسعى لإبراز حجم المفارقة المريع بين العاطفتين .

إن كلتا العاطفتين – على ما بينهما من تفاوت كبير في النسبة – تصبحان غير ذواتي جدوى للعنصر المحبوب في موقف القيامة ، فلا عاطفة الأبوّة على سعتها وامتدادها ولا عاطفة البنوّة على ضيقها وخصوصيتها تجديان في الشفاعة لهذا المحبوب.

ويشير الزمخشري إلى دلالة عامة لهذا العدول هي دلالة التوكيد ، ثمّ يوضّح معنى التوكيد بقوله : " ومعنى التوكيد في لفظ (المولود) : أنّ الواحد منهم لو شفع للأب الأدنى الذي ولد منه لم تُقبل شفاعته فضلاً أن يشفع لمن فوقه من أجداده "[2]. وبذلك تكون تقنية العدول بُنيتْ على قضية منطقية مفادها : أنّ افتقار المؤثر إلى كفاءة التأثير في العنصر القريب يقتضي – بداهة – افتقاره إلى كفاءة التأثير في العنصر البعيد من باب أولى .

وتكشف تقنية العدول عن فاعلية سياق المقام في تعطيل المقتضيات . فإنّ من مقتضيات علاقة التولُّد المباشر وما يترتب عليها من تبعات وتكاليف ومشقة في تربية الوالد للولد أن يحاول المولود بذل جهد موازٍ لرد بعض جميل والده عليه . هذا المقتضى الذي تعززه وتحض عليه سياقات مقامات قرآنية أخرى منها قوله تعالى : ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾[3]. وقوله تعالى : ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾[4] ، هو المقتضى ذاته الذي تعطله تقنية العدول في

---

١ الكشاف : ٣/٥٠٤.

٢السابق : ٣/٥٠٤.

٣ الإسراء : ١٧ .

٤ لقمان : ١٥ .

سياق المقام هذا/ يوم القيامة ؛ لأنّ المقام – هاهنا– مختلف فهو مقام تيئيس من جدوى شفاعة المولود لوالده. إنّه مقام يُعطّل مقتضى تحمُّل المشاقّ والعناء من قبل الوالد في سبيل ولده .

وقد اختيرت صيغة اسم المفعول (مولود) لتعميق دلالة التيئيس هذه ؛ لأن (المولود) – كما عرفنا – هو عنصر التولّد المباشر/ الولد من الصلب فهو – بداهة – أكثر العناصر الأخرى (ولد الولد ، والولد بالتبني) حظّاً من عناية الوالد ورعايته . وهو بالمقابل أكثرهم حرصاً على تحمّل مقتضيات هذا السلوك الأبويّ الرفيق الحاني . فيكون العدول إلى صيغة اسم المفعول (مولود) أفاد " التنبيه على أنّ تلك الصلة الرقيقة لا تخوّل صاحبها التعرّض لنفع أبيه المشرك في الآخرة وفاءً له بما تومئ إليه المولودية من تجشُّم المشقّة من تربيته فلعلّه يتجشّم الإلحاح في الجزاء عنه في الآخرة حسماً لطمعه في الجزاء عنه "[1].

---

١ التحرير والتنوير : ٢١ / ١٣٣ .

العدول عن صيغة اسم الفاعل إلى صيغة الصفة المشبّهة

١ - (مُكبّاً ، سويّاً) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1] .

من المسوّغات الأسلوبية التي تتيح للدارس تقديم فرضية تصورية لظاهرة عدولية عن صيغة اسم الفاعل (مكبّاً) إلى صيغة الصفة المشبهة (سـويّاً) هيمنـة قـانون التقابل على بنية العدول ، فمن مقتضيات الموازنة بين المتقابلين تجانس العناصر الموازنية بينهما .

ففي الموازنة بين المجتهد والمهمل نقول : المجتهد ينجح والمهمل يرسـب (بالإخبار بصيغة المضارع) أو : المجتهد نجح والمهمل رسب (بالإخبار بصـيغة الماضي) أو : المجتهد ناجح والمهمل راسب (بالإخبار بصيغة اسـم الفاعـل) . ولكننا حين نقول مثلاً : المجتهد ينجح والمهمل راسب . تصـبح هـذه المغـايرة الصيغية في عنصر الموازنة منبهاً أسلوبياً حاثاً على التساؤل عن سـر اختيـار صيغة المضارع في الإخبار عن المجتهد ثم العدول إلى صيغة اسم الفاعـل فـي الإخبار عن المهمل . وفضلاً عن قانون التقابل يهيمن قانون التماثـل المـوقعي (موقع الحال) ليعزز الرؤية التصورية التي يقدمها الدارس للبنية العدولية في الآية .

إنَّ بنية العدول في الآية هي بنية موازنية بين حالي عنصرين متقابلين ، أما العنصران المتقابلان فالكافر والمؤمن . وأمّا الحالان الموازنان ، فحـال انكبـاب الكافر (مكبّا) وحال استواء المؤمن في مشيه على الصراط (سويّاً) . وبالاتكـاء على قانوني التقابل والتماثل الموقعي نفترض تجانس صيغتي الحالين المـوازنين في بنية العمق على النحو الآتي :

---

١ الملك / ٢٢.

مُكبّاً ـــــــ مستويّاً

اسم فاعل ـــــــ اسم فاعل

من الفروق الدلالية الدقيقة بين صيغتي اسم الفاعل والصفة المشبهة أنهـا – أي الصفة المشبهة – "تدلُّ على الثبوت ، واسم الفاعل يدل على الحدوث ..."[١] .

ويزيد السامرّائي الأمرَ وضوحاً بقوله : "فإن اسم الفاعل – كما ترى – يدل على ثبوت الوصف بالنسبة للفعل . ولكنه يدل على الحدوث إذا ما قيس بالصـفة المشبهة"[٢] .

فدلالة اسم الفاعل – إذن - على الثبوت إنما تُلمح من مقابلته بالفعل فهو أثبت وأدوم من الفعل . ولكنه بالقياس إلى الصفة المشبهة يدل على الحدوث والطروء ، لأنَّ الصفةَ المشبَّهةَ في الأعم الأغلب تدل على الثبوت . وفي ضوء هذه القاعـدة الصرفية الدلالية نقارب بنية العدول في الآية .

تعرض بنية العدول حالين متقابلتين هما : حال الكافر فـي انحرافـه عـن طريق الهداية وما يحفها من تيه وتخبط وعثار ، وحال المؤمن المسـتقيم علـى طريق الهداية في ثبات وطمأنينة واستقرار . ولا شك أن حال الكافر تعد ظـاهرةً شاذةً ؛ لأنها تمثل انحرافـاً عن الفطرة السوية التي فطر الناس عليها : "ما من مولود إلّا يولد على الفطرة"[٣] . وهي فطرة الإسلام والإيمان . ونعد إيثار صـيغة اسم الفاعل بما تحمله من دلالة الطروء والحدوث مسلكاً أسلوبياً لتحقيق التناسـب بين دلالة صيغة اسم الفاعل على الطروء والحدوث وبين حال الكـافر الطارئـة الحادثة على الفطرة السوية .

---

١ شرح قطر الندى : ٢٧٩.

٢ معاني الأبنية /٤٨.

٣ صحيح البخاري : كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبيُّ فمات هل يُصلَّى عليه وهل يُعرض على الصبيِّ الإسلام ، الحديث رقم (١٢٩٢) ، ١/ ٤٥٦.

ويأتي العدول إلى صيغة الصفة المشبهة (سوياً) بما تحمله من دلالة الثبات والاستمرار ؛ ليستوعب ملامح الحال الثانية ، حال المؤمن . وهي حال تتسم بالثبات والديمومة ؛ لأنها امتداد للهداية الإلهية وتواصل مع هداية الفطرة .

ونستشِفُّ الدلالاتِ ذاتَها حينَ نقارب الصور الحِسِّية في الآية . إذْ ترسم بنية العدول صورتين من صور المشي الحسي المادي : المشي المتصف بالتعثر والسقوط على الوجه أو المشي على الوجه حقيقةً من خلال استخدام الوجه عنصراً بديلاً عن الرجلين ، يقول سيد قطب : "والذي يمشي مكِبّاً على وجهه : إمَّا أن يكون هو الذي يمشي على وجهه فعلاً لا على رجليه في استقامة كما خلقه الله ، وإما أن يكون هو الذي يعثر في طريقه فينكب على وجهه ثم ينهض ليعثر من جديد"[١] .

إن هذا النوع من المشي طارئ حادث على صورة المشي الطبيعية المعروفة على الرجلين ، فيكون اختيار صيغة اسم الفاعل (مكبّاً) التي تنفتح على دلالة الطروء والحدوث متناسباً ومتسقاً مع طروء هذه الصورة من المشي وحدوثها .

والصورة الثانية من صور المشي الحسي هي صورة المشي المعتدل المستقيم المتّسق مع نمط الشيء الطبيعي المعتاد . وهي صورة مطّردة ثابتة مستقرة تقتضي صيغةً تؤدي هذا المعنى وتتسق معه دلالياً ، ويحقق العدول إلى صيغة الصفة المشبهة (سوياً) هذا الغرض الدلالي من خلال استثمار دلالة الثبات والاستقرار اللذين تنضوي عليهما صيغة الصفة المشبهة (سوياً).

٢ - (الراجفة ، الرادفة ، واجفة ، خاشعة ، الحافرة ـــ نخرة) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ **الرَّاجِفَةُ** . تَتْبَعُهَا **الرَّادِفَةُ** . قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ **وَاجِفَةٌ** . أَبْصَارُهَا **خَاشِعَةٌ** . يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي **الْحَافِرَةِ** . أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا **نَّخِرَةً**﴾[٢] .

---

١ في ظلال القرآن الكريم / ٣٦٤٤.

٢ النازعات : ٦-١١.

تحفل الآية الكريمة بنسق كثيف من صيغ اسم الفاعل (خمس صـــيغ) التـــي تنهمر في سلسلة متتابعة لتشكل سياقاً متجانساً يمتد على طول ست آيات ليشـــكل لوحة متجانسة صيغياً لولا العدول الأسلوبي في بنية الصيغة السادســـة (نخـــرة / صفة مشبهة) الذي مثّل منعرجاً أسلوبياً وقطعاً مفاجئاً لوتيرة التنـــاغم الإيقـــاعي المتولد عن التجانس الصيغي بين هذه الصيغ في سبيل تحقيـــق غـــرض جمـــالي نسعى للكشف عنه . ونستفيد من معطيات الدرس الصرفي وقواعـــده المعتبـــرة ونحن نسعى لهـــــذه الغاية .

يذهب أكثر الدارسين إلى أن (فَعِل) أبلغ من (فاعِل)[١]. واستناداً إلـــى هـــذه القاعدة يمكن القول إنّ (نخرة) أبلغ من (ناخرة) ؛ لأن العظام النخرة : هي البالية المتفتتة [٢]. أما الناخـــــرة : فهي التي لم تنخر بعدُ ، أي : لم تبلَ ولا بدّ أن تنخر [٣].

وعلى ذلك تكون صيغةُ (فَعِل/نخرة) أبلغ في نسبة صفة البلى والتفتُّت للعظام وثباتها فيها : "فلا جرم كان هذا أكثر مناسبة لاستبعاد هؤلاء الكافرين المنكـــرين للبعث بقولهم : أئنا لمردودون في الحافرة"[٤] .

ومن ناحية أخرى نلاحظ أن جميع الأحداث التي عُبّر عنها بصـــيغة اســـم الفاعل – ابتداءً – هي أحداث طارئة حادثة . فالراجفة : هي النفحـــة الأولـــى ، والرادفة : هي النفخة الثانية . والواجفة : هي القلوب المضطربة . والخاشعة هي الأبصار والحافرة : هي الحالة الأولى في الدنيا وحقيقتها الطريق التي جاء فيهـــا الإنسان فحفرها بقدمه أي أثر فيها[٥].

١ ينظر في هذا الرأي : الكشاف ٦٩٤/٤. ومدارك التنزيل وحقائق التأويل : ٣١٤/٤، وروح المعاني : ٢٨/٣.
٢ ينظر: الجامع لأحكام القرآن : ١٩٠/١٩.
٣ ينظر : فتح القدير : ٥ / ٤٩٧ .
٤ الإعجاز الصرفي : ١٧٤.
٥ ينظر في هذه المعاني : الكشاف :٦٩٣/٤، ٦٩٤.

وكل هذه الأحداث طارئة حادثة على موصوفاتها ؛ لذلك أوثـرت الصـيغة المعبر عنها بها في حين تناسبت دلالة الصفة المشـبهة (فَعِـل) علـى الثبـات والديمومة مع دلالة (نخرة) على ثبات صفة البلى والتفتت في العظام بسبب طول المكث وتقادم العهد .

العدول عن صيغة اسم المفعول إلى صيغة المصدر

(مُبارَكاً ، هدىً) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّـذِي بِبَكَّـةَ **مُبَارَكًـا وَهُـدًى** لِّلْعَالَمِينَ﴾[1] .

في هذا السياق القرآني المبارك تنهض بنية العدول برسم لوحة إيمانية فريدة ذات ملمحين أساسيين : الأول ملمح البركة ، والثاني ملمح الهدى . ويؤثر السياق صيغة اسم المفعول (مباركاً) لتحديد أبعاد الملمح الأول . هذه الصيغة التي تحيـل من خلال بنيتها الصرفية على الدَّلالة على من وقع عليه فعل الفاعل . وهي دلالة نتكئ عليها في تقديم تفسير أسلوبيٍّ لظاهرة إيثار صيغة اسم المفعول لاسـتيعاب ملمح البركة واليُمْن .

إنّ إيثار صيغة اسم المفعول مع هذا الملمح يشير إلى أنّ صفة البركة في هذا المعلم الإيماني الجليل صفة مكتسبة لا صفة ذاتية أكسبتها إياها إرادة الـذات الإلهية حين شرفتها باصطفائها دون غيرها من المعالم العمرانية ؛ لتحمل شـرف النسبة إلى الذات الإلهية (بيت الله) . وإلى جوار منحة البركة الإلهية تبرز منحـة البركة البشرية، فإن حجارة هذا البيت المبارك " وضعتها عند بنائه يد إبراهيم ويد إسماعيل ، ثم يد محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا سيَّما الحجرُ الأسودُ "[2].وإلا فإن هذا البيت من حيث مكوناته الذاتية لا ينماز عن غيره فهو بيتٌ كسائر البيوت.

١ آل عمران / ٩٦.

٢ التحرير والتنوير : ١٦٢/٣.

ويُغفل السياق قانوني الجوار والعطف اللذين يرجحان تماثل الصيغتين في بنية العدول على صيغة اسم المفعول (مباركاً، ومهدياً به) لينحرف بالصيغة الثانية إلى صيغة جديدة (المصدر/هدىً) .

إن صيغة المصدر تحيل إلى دلالة الحدث المطلق مجرداً عن معنى الزمن ، ولما كان الزمن من المكونات الأساسية لصيغة اسم المفعول ، فإن العدول إلى الوصف بالمصدر لا يتأتى في السياق اللغوي إلا على سبيل المبالغة في الوصف بجعل الموصوف هو ذات الحدث. ويسعى السياق إلى تحقيق هذه المبالغة من خلال العدول إلى صيغة المصدر (هدىً) . فالبيت الحرام ليس هادياً ولا مهدياً به، بل هو الهداية ذاتها ، إنها هداية مطلقة لا تخضع لسلطة زمن معين ولا فترة محددة .

وتتحسر بنية المعدول إليه (هدىً) عن دلالةٍ مجازية إضافية . فالبيت الحرام سبب في الهدى وليس هو الهدى ذاته فيكون السياق قد أطلق المسبب وأراد السبب ويكون هذا الاستعمال من قبيل المجاز المرسل الذي علاقته المسببية .

الفصل الخامس

العدول بين صيغتي الفعل والاسم

العدول عن صيغة اسم الفاعل إلى صيغة الماضي

١ - (**فالق ، جعل**) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿**فَالِقُ** الإِصْبَاحِ **وَجَعَلَ** اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[١] .

من المسوغات الأسلوبية التي نتكئ عليها في افتراض وجود ظاهرة عدول في الآية ، وقوع طرفي بنية العدول تحت سلطة قانون العطف ، وهو من المرجحات الأسلوبية للتماثل الصيغي بين الدوال اللغوية .

وتمنحنا الثقة بصحة هذا الافتراض قراءة معتبرة لبنية المعدول إليه بصيغة اسم الفاعل (وَجَاعِلُ اللَّيْلَ سَكَنًا) ، يقول القرطبي : " وقرأ يعقوب في رواية رويس عنه (وجاعل الليل ساكنا) وأهل المدينة (وجاعل الليل سكنا) "[٢]. وورد عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : " اللّهُمَّ فالقَ الإصباحِ وجاعلَ الليلِ سكناً والشمسَ والقمرَ حسباناً اقضِ عنّي الدينَ وأغنني منَ الفقرِ وأمتعني بسمعي وبصري وقوّتي في سبيلِك "[٣].

إنّ هذا الحديث النبوي وقراءة (وجاعل الليل سكنا) يقدمان تصورا للآية الكريمة في بنيتها العميقة الأولية حيث تتجانس صيغتا بنية العدول (فالق...وجاعل) ؛ ليصبح هذا الاستعمال في هذين النصين اللغويين مؤكدا إضافيا – إلى جوار قانون العطف – على صحة الفرضية التي قدّمناها عن وجود ظاهرة عدول في الآية.

---

١ الأنعام : ٩٦.

٢ الجامع لأحكام القرآن : مج ٤ ، ج ٧ / ٤٥ .

٣ الموطّأ : كتاب القرآن ، الحديث رقم (٤٩٣) / ١٣٦ . ويُنظر أيضاً التحقيق في أحاديث الخلاف : ٢٩٦/١ ، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد : ٢٤/ ٥٠ ، المصنّف في الأحاديث والآثار : ٧ / ٢٧ ، إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين : ٥ / ١١١ .

تعالج بنية العدول ظاهرتين من الظواهر الكونية الطبيعية هما : ظاهرة الصبح وظاهرة الليل . إن هاتين الظاهرتين من الظواهر الفلكية التي يصعب الفصل بينهما على مستوى الزمن فالليل يعقبه الصبح والصبح يعقبه الليل . هذا التلازم على مستوى الزمن يوازيه تلازم على مستوى الخطاب القرآني فلا يكاد يرد ذكر لأحدهما في سياق ما حتى يكون الآخر رديفه .

وتشير مادة (ف ، ل ، ق) (فالق) إلى علاقة أخرى تربط بين هاتين الظاهرتين هي علاقة الانشقاق والنشوء ، فالصبح منشق عن الليل ناشئ عنه بدليل قوله تعالى : ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُون﴾[١]. فالليل أصل والصبح منشق عنه متولِّد منه والأصل سابق في الوجود للفرع . ومن هنا ندرك سرّ العدول إلى صيغة الماضي (جعل) مع الليل وهي الإشارة إلى سبق الليل للصبح في الوجود فجيء بصيغة الماضي لإعادة ترتيب الظاهرتين الكونيتين بناء على أسبقية الوجود ، أي إنه ــ تعالى ــ قبل أن يفلق الإصباح كان قد جعل الليل أي خلقه .

وأما قوله تعالى : ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾[٢]، فإن المقصود بالسبق فيها سبق الحركة الفلكية لا سبق الوجود بدليل قوله تعالى في الآية نفسها قبلُ ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾[٣]. فالإدراك فعل حركة لا فعل وجود ونشوء وكذلك السبق في الآية. وبدليل قوله في الآية نفسها بعدُ : ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[٤]. فالسباحة فعل حركة أيضا كالسبق والإدراك .

٢ - (العاديات ، الموريات ، المغيرات ـــــ أثرْنَ ، وسطْنَ) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿وَ**الْعَادِيَاتِ** ضَبْحًا . فَ**الْمُورِيَاتِ** قَدْحًا . فَ**الْمُغِيرَاتِ** صُبْحًا . فَ**أَثَرْنَ** بِهِ نَقْعًا . فوَ**سَطْنَ** بِهِ جَمْعًا﴾[٥].

---

١ يس : ٣٧

٢ يس : ٤٠.

٣ يس : ٤٠.

٤ يس : ٤٠.

٥ العاديات : ١ــ ٤.

ترسم بنية العدول لوحة وصفية متكاملة للخيل من خلال توظيف خمس صيغ صرفية للنهوض بهذه الوظيفة الجمالية . ويلاحظ أنّ الأوصاف الثلاثة الأولى جاءت بصيغة اسم الفاعل وأنّ الوصفين الأخيرين جاءا بصيغة الماضي ، وكان مقتضى قانون العطف – فضلا عن توحُّد الوظيفة الوصفية – أن تتّسق هذه الصيغ على نمط صيغي واحد (اسم الفاعل) : العاديات... الموريات... المغيرات... المثيرات... الواسطات .

إنّ إيثار صيغة اسم الفاعل مع الصفات الثلاث الأولى يمنح أفق التوقُّع لدى المتلقي مدىً واسعاً لحدس صيغة صرفية مماثلة يستكمل بها السياق بنية الوصف التي أسس لها بأوصاف ثلاثة على صيغة اسم الفاعل . لكنّ السياق يكسر أفق التوقع لدى المتلقي بالعدول إلى صيغة صرفية جديدة (الماضي) ؛ ليفتح أمامه مدىً جديداً لحدس دلالات هذا العدول وإيحاءاته التعبيرية .

تمثِّل الصيغ الثلاث الأولى بنية المُقسَم به ، وتخرج الصيغتان الأخيرتان عن حيز هذه البنية لتشكلا بنيةً وصفية مستقلةً خاصةً بالمُقسَم به الثالث (المغيرات) ؛ "لأنّ إثارة النقع وتوسُّط الجمع من آثار الإغارة صبحاً وليسا مُقسَماً بهما أصالة "[1].

إنّ مطلق العدول إلى صيغة الفعل مع الوصفين الأخيرين يُعدُّ مؤشراً أسلوبياً إلى العدول بهما عن بنية المُقسَم به من جهة وإلى كونهما وصفين خاصّين بالمُقسَم به الثالث ؛ دفعاً لتوهُّم كونهما مُقسَما بهما أو توهُّم كونهما معطوفين على الأوصاف الثلاثة الأولى من جهة أخرى . ويبقى السؤال عن الدلالة الخاصة للعدول إلى صيغة الماضي – تحديداً - دون غيرها من الصيغ الأخرى كالمضارع مثلاً ، قائماً .

إنّ العدول إلى صيغة الماضي يحقق مطلبين : مطلباً نحويا ومطلباً دلاليا . أمّا المطلب النحوي فهو العطف على المعنى ، حيث عطف الماضي (أثرْن ، وسطْن) على معنى الفعل القار في بنية اسم الفاعل في الصيغ الثلاث الأُول ،

---

١ التحرير والتنوير : ٣٠ / ٤٤٢ .

يقول أبـــو حيان : "(فأثرْن) معطوف على اسم الفاعل الذي هـو صـلة (أل) ؛ لأنّه في معنى الفعل ، إذ تقديره : فاللاتي عدون فأغرْن فأثرْن"[١].

وإذا كانت إثارة النقع وتوسُّط الجمع من آثار الإغارة وممّا يترتب عليهـا ، فإنّ العدول إلى صيغة الماضي من المؤكدات الأسلوبية على تحقُّق هـذه الإثـارة والمترتبات . فليست هذه الإثارة عديمة النفع عقيمة الأثر ، بل هي إغارة حقيقيـة جادّة بكل المقاييس وهذه آثارها واضحة متحققة . وهي في حتمية تحققها ووقوعها في حكم الشيء الذي وقع وانقضى بتأكيد صيغة الماضي .

العدول عن صيغة اسم الفاعل إلى صيغة المضارع

١ - (فاقعٌ ، تسرُّ) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّـهُ يَقُـولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾[٢].

تستكمل بنية العدول في الآية الكريمة بقية المحددات الوصفية للبقرة التـي أُمر بنو إسرائيل بذبحها ، وتستعرض محددين وصفيين شكليين لها هما : محـدد الصفرة الفاقعة ومحدد سرور الناظرين إليها . وبملحظٍ من إيثـار صـيغة اسـم الفاعل لاستيعاب بنية المحدد الأول (فاقعٌ) ثم العـدول إلـى صـيغة المضـارع لاستيعاب بنية المحدد الثاني (تسُرُّ) تصبح هذه الظاهرة لافتةً للنظر وحاثةً علـى المساءلة والاستنطاق .

ينتمي المحدد الوصفي الأول (فاقعٌ) إلى حقل الصـفات الذاتيـة الملازمـة للموصوف. فاللَّون صفة خَلْقية ثابتة . وهي في ثبوتها تستغرق كل أجزاء الزمن بحيث لا تنفك عنه بحال . هذا الثبات والملازمة تعبر عنهما صيغة اسم الفاعـل تعبيراً دقيقاً . فهذه الصيغة من جهة حملها الهوية الاسمية تشير إلى دلالة الثبـات والديمومة وهو الأمر الذي يسعى السياق لتأكيده في سبيل تحقيق غرض دلالي هو

---

١ البحر المحيط : ٨ / ٥٠١ .

٢ البقرة : ٦٩.

الإشارة إلى أن هذا الأمر (الصفرة الفاقعة) شرط أساسي ثابت حتميَّ التحقق في البقرة المطلوبة على طريقة (شَدَّدوا فشدد الله عليهم) .

وتستوقفنا ظاهرة العدول إلى صيغة المضارع في تأطير بنية المحدد الوصفيِّ الثاني للبقرة (تسرُّ) . وهو إجراء أسلوبي لا نعده مفرغاً من أي دلالة إيحائية ، خاصةً أن هذا المحدد يشترك مع المحدد السابق في سمة الوصفية مما يجعل المغايرة بين المحددين في الصيغة الصرفية أمراً مقصوداً وذا مغزىً دلالي .

ونلحظ ابتداءً أن المحدد الثاني يستوعب صفةً طارئةً غير ثابتة من صفات هذه البقرة بخلاف المحدد الوصفي الأول . ونستنتج طروء هذه الصفة من كون سرور الناظرين إلى هذه البقرة لا يستغرق كل أجزاء الزمن ، بل هو محدَّد بفترات زمنية معينة هي فترات بروزها أمام الناظرين . وفيما عدا ذلك فإن لها أحوالاً من الاستتار والمكث في المنزل بحيث لا تقع عليها أعين الناظرين .

إن صيغة المضارع بما تنضوي عليه من دلالة تجدد الحدث في آناء متفرقة تنسجم أسلوبياً ودلالة المحدد الثاني على تجدد صفة سرور الناظرين إلى البقرة بتجدُّدِ بروزِها أمامهم .

ومن جهة أخرى ندرك أنَّ هذه الصفةَ ليستْ ذاتيةً في البقرة ، بل هي صفة مرتبطة بعنصر خارجي (الناظرين) ، فلا تُعدُّ صفةً إيجابيَّةً إلا بوجود هذا العنصر . ومن هنا تأتي المغايرةُ بين الصفتين : فالبقرةُ (صفراءُ فاقعٌ لونُها) أوجد العنصر الخارجيُّ أم لم يوجد . ولكنها (لاتسرّ الناظرين) إلا بوجوده . ومن هنا نَعدُّ هذه الصفةَ (تسر الناظرين) صفةً متحولةً غير ثابتة لارتباط وجودها وتحققها إيجاباً وسلباً بوجود العنصر الخارجي إيجابا وسلبا . إن دلالة المضارع على التجدد والتحول تتسق وصفة سرور الناظرين إلى البقرة المتجددة المتحولة .

ومن وجهة نظر نفسية ، ندرك أنَّ فاعليةَ اللون وإيحاءاتِه وتأثيرَه على النفس الإنسانية نسبيٌّ لا تُبنى عليه قواعد مطَّردة ولا قوانين عامَّة . ويأتي العدول إلى صيغة المضارع (تسرُّ) مسلكاً أسلوبياً رائداً في تأسيس هذه النظرية النفسية .

فإذا كان اللون الأصفر باعثاً على السرور النفسي والانشراح الوجداني والتحفُّز والنشاط عند بعض الناس ، فإن بعضهم الآخر يعده مصدراً للتشاؤم والقلق ودالّاً على الصفات السلبية كالجبن والمرض والغدر والخيانة . ويعدُّه بعضُهم لونَ الغَيْرَة العاطفية[1] . إن عدم ثبات هذه النظرية النفسية يتنافى ودلالة اسم الفاعل على الثبات والديمومة ؛ لذلك كان التحول إلى صيغة المضارع الدالة على التحول وعدم الثبات مسلكاً أسلوبياً مقصوداً للإشارة إلى أن فاعلية اللون الأصفر في بث السرور والانشراح النفسي ليس قاعدةً ثابتةً مطردةً .

٢ - (خالدين ، لا يبغون) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا . **خَالِدِينَ** فِيهَا لَا **يَبْغُونَ** عَنْهَا حِوَلًا﴾[2] .

تؤطر بنية العدول صفتين من صفات المؤمنين الذين يدخلون الجنة هما : الخلود وانتفاء السآمة والملل من اطّراد الحال الواحدة . إن هاتين الصفتين طارئتان على العنصر البشري ، فالفناء من أخص خصائصه وملالة المطّرد من مسلمات سجاياه . هذا في الدنيا أما في الجنة فالخصائص غير الخصائص والسجايا غير السجايا .

إنّ من متممات النعيم في الجنة الخلود فيه مع عدم استشعار الملل منه ، وتلك أجلُّ الفيوضات الربّانيّة والمنح الإلهية . إنّ الصفة الأولى خاصة بالجانب المادي من العنصر البشري في حين أن الصفة الثانية تجسد الجانب النفسي الوجداني من هذا العنصر . وبملحظٍ من أن الصفة الأولى جاءت مثبتةً بصيغة اسم الفاعل والصفة الثانية جاءت منفيةً بصيغة المضارع ، نسعى لمقاربة دلالة هذا العدول والتحول الصيغي .

إن إيثار صيغة اسم الفاعل هو الإجراء الأسلوبي الأمثل في إثبات صفة الخلود لهؤلاء المؤمنين في الجنة ، إذْ تتضافر الدلالة الصيغية لاسم الفاعل على

---

١ يُنظر في إيحاءات اللون الأصفر : اللغة واللون : ١٨٤ .

٢ الكهف /١٠٧-١٠٨.

ثبات الصفة للموصوف ونسبته إليها مع الدلالة المعجمية لمادة (خ ، ل ، د) على الديمومة واستمرار البقاء في منح هؤلاء المؤمنين صفةً جسدية ماديـــة أخرويـــة مغايرةً لصفتهم الجسدية المادية الدنيوية هي صفة البقاء والخلود .

ونؤكِّد ــ في هذا السياق أيضاًــ أنَّ نفي صفة ابتغاء التحول عن الجنة عن المؤمنين بصيغة المضارع هو الإجراء الأسلوبي الأمثل في هذا السياق ، ذلك أن المضارع يكتنز دلالة تجدد الحدث على فترات فيكون نفي هذا التجدد أبلغَ من نفي استمرار الحدث وثباته (أي بصيغة اسم الفاعل) ؛ لأن انتفاء تجدُّد الحدث يقتضي انتفاء استمراره بداهةً .

إنَّ البقاء على حال واحدة وطول المكث في مكان واحـــد مجلبـــةٌ للضـــيق ومدعاةٌ للسأم والملالة ، وإن توافرت كل أسباب النعيم والرفاهية ، فالنفس البشرية مجبولة على حُبِّ التغيير والتنويع "تملُّ الاطراد وتسأم البقاء على حالٍ واحـــدةٍ أو مكان واحدٍ . وإذا اطمأنت على النعيم من التغيير والنفاد فقدت حرصها عليه وإذا مضى على وتيرة واحدة فقد تسأمه ، بل قد تنتهي إلى الضيق به والرغبـــة فـــي الفرار منه"[١].

ويأتي العدول إلى صيغة المضارع (لا يبغون) كاشفاً عن منحىً نفسيٍ جديد طارئ على التركيبة النفسية للمؤمن في الجنة فالنزعة النفسية الإنسانية التي تمل المطّرد وتسأم الرتابة تفقد وجودها في تركيبة المؤمن النفسية فـــي الجنـــة، فـــلا يعتريه السأم ولا يهيمن عليه الملل من دوام نعـــيم الجنـــة واســـتمراره . وكـــأنّ المؤمنين في الجنّة مُنحوا تركيبة نفسية خاصة تنسجم انسجاماً تاماً مع نعيم الجنة فلا يتأتى لها خاطر من سأم ولا عارض من ملالة . ويسعى السياق – من خلال العدول إلى صيغة المضارع – إلى المبالغة في نفي وجود نزعة الملل والسآمة في نفس المؤمن في الجنة فهذا الملل وهذه السآمة لا يحدثان ولو على فترات متجددة متباعدة .

---

١ في ظلال القرآن الكريم (طبعة دار إحياء التراث العربي ، بيروت) : مج٢، ج١٦، ٤١٦.

٣ - (صابراً ، ولا أعصي) :

وذلك في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام : ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ **صَابِرًا** وَلَا **أَعْصِي** لَكَ أَمْرًا﴾[١] .

من المسوغات الأسلوبية التي نتكئ عليها في افتراض وجود ظاهرة عدول عن صيغة اسم الفاعل (صابراً) إلى صيغة المضارع (ولا أعصي) ، هيمنة قانوني الجوار والعطف على بنية العدول في الآية . وإذا كان قانون الجوار من القوانين اللغوية المعتبرة في الدرس اللغوي التراثي كما أشرنا سابقاً ، فإن افتراض تماثل اللفظين المتجاورين صيغيا يصبح مبررا ومشروعا ، ويصبح كسر هذا التماثل من المنبهات الأسلوبية القارة في بنية النص اللغوي الإبداعي . كما أن قانون العطف أيضاً من القوانين اللغوية التي تتيح للدارس تبني فرضية التماثل الصيغي للمتعاطفين في بنية العمق . يقول الزمخشري مؤكداً على وجود ظاهرة عدول في الآية مستنداً إلى قانون العطف :" (ولا أعصي) في محل النصب ، عطف على (صابراً) أي : ستجدني صابراً وغير عاصٍ "[٢].

في بنية المعدول عنه تستوقفنا ظاهرة اختيار صيغة اسم الفاعل (صابراً) . وعلى الرغم من أن هذه الصيغة جاءت على الأصل الذي افترضناه لبنية العدول في البنية العميقة ، فإننا نلمح ظلالاً من الإيحاءات القارة والدلالات الكامنة وراء هذا الاختيار .

نلاحظ ابتداءً أن العبد الصالح نفى عن موسى عليه السلام صفة الصبر بصيغة المصدر (صبراً) : "إنك لن تستطيع معي صبراً"[٣]. ومن المعلوم صرفياً أن صيغة المصدر لا تدل على زمنٍ معين فهي دالةٌ على الزمن المطلق ، فيكون نفي صفة الصبر عنه بهذه الصيغة أبلغ من نفيها عنه بصيغة أخرى ؛ لأنها تشير إلى فقدان موسى الاستطاعة على الصبر مطلقاً. وقد جاء ردّ سيدنا موسى على كلام

---

١ الكهف / ٦٩.

٢ الكشاف : ٢/ ٧٣٤. وينظر أيضاً : البحر المحيط : ٦ / ١٤٠ ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل : ٣/ ٣٥، الجلالين : ٣٩٧ ، روح المعاني : ٣١٤/٨.

٣ الكهف /٦٧.

الرجل الصالح بإثبات صفة الصبر لنفسه بصيغة اسم الفاعل (صابراً) وهو إجراء أسلوبي معادل للإجراء الأسلوبي الذي اعتمده الرجل الصالح باختياره للمصدر ، بل إن اختيار اسم الفاعل – هنا – أبلغ في إثبات صفة الصبر من نفيها عند الرجل الصالح ؛ ذلك لأن اسم الفاعل يحمل دلالة الحدث التي يحملها المصدر ويتفوق عليه في الدلالة على معنى الوصفية لمن قام بالحدث وفي الدلالة على النسبة أي نسبة الفاعل إلى الحدث على جهة التلبس والاستصحاب وكأن الحدث صار مهنةً للفاعل يُنسب إليها ويمتهنها .

إنَّ هذه الدلالات الإضافية لاسم الفاعل تجعل اختياره – دلالياً – لإثبات صفة الصبر لسيدنا موسى أبلغ من اختيار الرجل الصالح لصيغة المصدر في نفي هذه الصفة عن سيدنا موسى . والغرض من هذه المبالغة إزالة الشك الذي ساور العبد الصالح في مقدرة موسى على الصبر على ما سيراه من أمور عجيبة.

وإذا كان الزمخشري ومن لفَّ لفّه من المفسرين تنبّهوا لوجود ظاهرة عدول عن صيغة اسم الفاعل (صابراً) إلى صيغة المضارع (ولا أعصي) ، فإني لم أجد – فيما اطلعت عليه من كتب التفسير – من إشارة إلى دلالة هذا العدول .

إنّ صيغة اسم الفاعل وإن كانت قد أدت دوراً إيجابياً في إثبات صفة الصبر لسيدنا موسى وفي إزالة الشك الذي ساور العبد الصالح في مدى كفاءة موسى عليه السلام في الصبر والتحمل ، فإنها مع صفة العصيان المنفية لا تؤدي الدور نفسه ، بل على العكس من ذلك ؛ لأن نفي صفة العصيان عن موسى عليه السلام بصيغة اسم الفاعل تعني انتفاء استمراره في العصيان ومدوامته عليه . ولكنها لا تعني انتفاء صدور العصيان منه على فترات ، ومن هنا ندرك سر العدول إلى صيغة المضارع مع صفة العصيان ؛ لأن المضارع يدل على تجدد وقوع الحدث على فترات فيكون انتفاء حدوث العصيان بصيغة المضارع أبلغ وآكد من انتفاء حدوثه بصيغة اسم الفاعل ؛ لأن انتفاء حدوث النادر يقتضي انتفاء حدوث المستمر بداهةً ولا عكس .

العدول عن صيغة الصفة المشبّهة إلى صيغة المضارع

(حلٌّ ، يَحِلُّون) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ **حِلٌّ** لَّهُمْ وَلَا هُمْ **يَحِلُّونَ** لَهُنَّ .... الآية﴾[1].

يسعى سياق الآية الكريمة إلى التأكيد على وجوب التفريق بين المؤمنة وزوجها إذا كان كافراً . ويؤثر السياق صيغة الصفة المشبهة (حِلٌّ) للتعبير عن عدم حِلّية المؤمنة للكافر (لا هُنَّ حلٌّ لهم) ، ثم يعدل إلى صيغة المضارع (يحلون) وهو يؤكد انتفاء حلية الكافر للمؤمنة (ولا هم يحلون لهنَّ) . إنَّ هذا المنحى التعبيري الانزياحي يعد منبهاً أسلوبياً حاثّاً – بإلحاح- على التساؤل عن دلالة هذا العدول وعن ظلاله الإيحائية وقيمه التعبيرية .

تكتنز صيغة الصفة المشبهة دلالة ثبوت الوصف في الموصوف على جهة الدوام والاستمرار ، ممّا يفسر إيثار السياق لهذه الصيغة (حِلٌّ) في مستهل بنية العدول إذْ يحمل هذا الإيثار إشارةً دلاليةً إلى أن الكافرين كانوا " يظنون أن العصمة التي لهم على أزواجهم المؤمنات مثبتةٌ أنهن حِلٌّ لهم "[2]. وهم في ظنهم هذا يتكئون على ما اقتضته العادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية من أن حلّ المرأة لزوجها ثابت دائم لكون العصمة في يده . ولمّا كان مفهوم العصمة رسخ لدى الكافرين وأطمعهم في إمكانية إعادة زوجاتهم المؤمنات إليهم ، فقد آثر السياق صيغة الصفة المشبهة للإشارة إلى ثبات هذا المفهوم لديهم ، ثم أدخل على الصفة المشبهة أداة النفي (لا) لتيئيس الكافرين مما ثبت لديهم وطمعوا فيه ؛ لأن العصمة لا ثقل لها في ميزان الإسلام إذا ما كان الزوج كافراً .

وتنفتح صيغة المضارع (يحلون) في بنية المعدول إليه عن الدلالتين الآتيتين :

---

١ الممتحنة / ١٠.

٢ التحرير والتنوير : ١٤١/٢٨.

١- الإشارة إلى أن حلَّ الزوج لزوجته يتخذ طابعاً مغايراً لحل الزوجة لزوجها . فإذا كان حلّ الزوجة لزوجها ثابت مستقر من جهة كون العصمة في يده فإن حل الزوج لزوجته غير ثابت وغير مستقر ؛ لارتباط هذا الحِلّ بإرادة الزوج إذ إنّ أمر العصمة في يده لا في يدها .

٢- بالاستناد إلى دلالة المضارع على التجدد فإنّ العدول إلى صيغة المضارع (يحلّون) يأتي " لإفادة نفي الطماعية في التحليل ولو بتجدده في الحال بعقد جديد أو اتفاق جديد على البقاء في دار الإسلام "[١].

ويعالج الزمخشري بنية العدول فيرى أن الصيغة " الأولى دلّتْ على ثبوت التحريم في الماضي ، ولهذا أُتِيَ فيها بالاسم الدال على الثبوت والثانية في المستقبل ولهذا أتيَ فيها بالفعل المستقبل "[٢].

فيكون الغرض من المراوحة بين الصيغتين الإشارة إلى تأبيد حرمة النكاح بين المؤمنة والكافر واستغراق هذه الحرمة لكل أجزاء الزمن الماضي بدلالة الصفة المشبّهة (حلٌّ) والحاضر والمستقبل بدلالة صيغة المضارع (يحلّون) .

العدول عن صيغة المضارع إلى صيغة اسم المفعول

(يُسبِّحن ، محشورةً) :

وذلك في قوله تعالى عن داوود : ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ **يُسَبِّحْنَ** بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ . وَالطَّيْرَ **مَحْشُورَةً** كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾[٣].

تمثل بنية العدول في الآية الكريمة نموذجاً فريداً من نماذج الظاهرة العدولية في القرآن الكريم . وتكتسب فرادتها من كونها وليدة مرحلتين تحويليّتين عدوليتين أشار الدارسون إلى إحداهما إشارة عامةً وأغفلوا الأخرى تماماً .

---

١ السابق : ١٤١/٢٨.

٢ الكشاف : ٢٣/٣.

٣ ص : ١٨ ، ١٩ .

في المرحلة التحويلية الأولى تمَّ العدول عن صيغة المبني للمعلوم إلى صيغة المبني للمجهول . إن قانوني العطف والتماثل الموقعي (موقع الحــال) يرجحــان تماثل الصيغتين في البنية العميقة الأولية على النحو الآتي :

الجبال **يسبِّحن** ـــــــــــ الطير **يحشرها** الله

مبنيّ للمعلوم ـــــــــــ مبنيّ للمعلوم

وفي هذه المرحلة يؤثر السياق العدول عن صيغة المبني للمعلوم إلى صيغة المبني للمجهول مع فعل الحشر في سبيل تحقيق غرض جمالي دلالــي لا يتــأتى تحقيقه مع بقاء صيغة (الحشر) على ما هي عليه من المعلومية . ويمكن تمثيــل الظاهرة العدولية في هذه المرحلة بالمخطط الآتي :-

الجبال **يسبحن** ـــــــــــ الطير **تُحشَر**

مبني للمعلوم ـــــــــــ مبني للمجهول

وبملحظ من أنّ فاعل الفعل المبني للمعلوم (يسبحن) حاضرٌ في السياق (نون النسوة) وأنّ الفاعلَ الحقيقيَّ للفعل المبنيِّ للمجهول (تُحشر) غائبٌ عن هذا السياق (ضمير لفظ الجلالة) فإنَّ بنيةَ العدولِ تنفتحُ – دلالياً – على الآتي :

لمّا كانت صيغة المضارع دالةً ببنيتها على استحضار الصورة وعرضــها أمام المتلقي لتلمُّس مواطن العبرة والروعة والجمال فيها . فــإن إيثــار صــيغة المضارع المبني للمعلوم (يسبحن) – تحديدا - يخدم هذا الغرض الجمالي خدمــةً مدهشةً ؛ ذلك لأنّ هذه الصيغة توفِّر للصورة العنصر الحيوي الفاعل فيها (نــون النسوة) الذي يمارس الحدث المراد تصويره . إن صورة التسبيح تفقــد جمالهــا وجلالها حين نتصور فاعل التسبيح/الجبال غائباً عن بنية هذه الصورة ، بــل إن الصورة لتكتسب روعتها بوجود هذا المخلوقِ الضخمِ الشامخِ الفاقدِ الحياةِ والعقل وهو يعزف هذه السيمفونية الرائعة في ابتهالات عذبةٍ تهز النفوس وتخشــع لهــا القلوب .

إن استحضار الصورة يتطلب بطئاً في حركة الزمن لعرض المشاهد والأحداث أمام المتلقي بما يتيح له التمعن فيها والتعايش معها والانفعال بها واستكناه بواعث الروعة والجمال والإدهاش فيها . ويسعى السياق من خلال العدول إلى صيغة المبني للمجهول (يُحشر) إلى تفريغ حدث الحشر من خصيصة التصوير في سبيل تحقيق قيمة جمالية تفوق القيمة التصويرية للحدث .

إنَّ صيغة المبني للمجهول تُقصي الفاعلَ خارجَ السياق ، وبذلك تكون قد سلبت الصورة عنصرها الفاعل وشخصيَّتها الحيوية . ومن هنا ندرك أن القصد التصويري معدومٌ تماماً مع حدث الحشر . ثم إن تعطيل الطاقة التصويرية للفعل (يُحشر) بإقصاء العنصر الفاعل فيها يقتضي تسريع حركة الزمن ؛ لأن بطء حركة الزمن يرتبط بطاقة التصوير ، وبذلك يتحقق الغرض الجمالي الذي ضحى السياق بالقيمة التصويرية في سبيل تحقيقه وهو الدلالة على عظيم قدرة الله تعالى في حشر الطير وجمعها دفعة واحدة دون تدرج وتمهّل في عملية الحشر والجمع . ولا شك أن القصد التصويري يتنافى مع قصد إظهار قدرة الله في حشر الطير ؛ ذلك لأن التصوير يقتضي – كما عرفنا – بطئاً وتدرجاً في حركة الزمن وإظهار قدرة الله تعالى في الحشر تقتضي السرعة والمبادرة .

وعلى الرغم من تغييب فاعل الحشر وسلب الصورةِ عنصرَها الحيويَّ الفاعلَ ، تبقى الظلال التصويرية ماثلةً في السياق ؛ ذلك لأن صيغة المضارع (تُحشر) تظل تكتنز الطاقة التصويرية من خلال بنيتها الفعلية المضارعية . وفي سبيل تفريغ حدث الحشر من الدلالة التصويرية تماماً ، آثر السياق إقصاء صيغة المضارع وتغييبها عن السياق والعدول عنها إلى الصيغة الاسمية /اسم المفعول (محشورة) . وبذلك يكون هذا العدول هو المرحلة الثانية من مراحل التحويل التي حدثت في بنية العمق والتي شكلت الظاهرة العدولية على مستوى بنية السطح في الآية الكريمة يقول الزمخشري مشيراً إلى هذه المرحلة : " وقوله (محشورةً) في مقابلة (يسبحن) ؛ إلا أنه لمّا لم يكن في الحشر ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدث شيئاً بعد شيء جيء به اسماً لا فعلاً ؛ وذلك أنه لو قيل :

وسخرنا الطير يُحشرن على أن الحشر يوجد من حاشرها شيئاً بعد شيء والحاشر هو الله عز وجل لكان خُلفاً ؛ لأن حشرها جملةً واحدةً أدلُّ على القدرة "[1].

والحقيقة أن تفسير الزمخشري ومن تبعه لظاهرة العدول في الآية هو تفسير عام ؛ لأنه يركز على ظاهرة العدول عن الفعل إلى الاسم دون الإشارة إلى دلالة إيثار صيغة اسم المفعول دون غيرها من الصيغ الاسمية الأخرى .

إن اسم المفعول – في الصناعة الصرفية – يُصاغ من الفعل المبني للمجهول ويؤدي الوظيفة ذاتها التي يؤديها هذا الفعل في إقصاء الفاعل وتغييبه عن السياق . وهذه الوظيفة تُعدُّ المسوغ الأسلوبي الأساسي لإيثار السياق صيغة اسم المفعول في بنية المعدول إليه . فتغييب الفاعل عن السياق هو الهدف المنشود من إيثار صيغة اسم المفعول ولكنّ الغرض من تغييب الفاعل هنا (مع اسم المفعول) يختلف عن الغرض من تغييب الفاعل هناك (مع الفعل المبني للمجهول) .

فتغييب الفاعل مع الفعل المبني للمجهول (يُحشر) غرضه الجمالي إبطال القصد التصويري للفعل كما عرفنا . أما مع اسم المفعول (محشورةً) فيأتي تغييب الفاعل (الله سبحانه وتعالى) لغرض تعظيمه وتفخيمه- سبحانه - بمنحه هيبة الخفاء والاستتار ليكون ذلك أدلَّ على عظيم قدرته بحشر الطير وجمعها دفعةً واحدةً مع تنزهه وغيابه عن ملابسة الحدث.

---

[1] الكشاف : ٧٩/٤. وينظر أيضاً : البحر المحيط لأبي حيان : ٧ / ٣٧٤ .

العدول عن صيغة المصدر إلى صيغة الأمر

(فَضَرْبَ ، فشُدُّوا) :

وذلك في قوله تعالى : ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا **فَضَرْبَ** الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ **فَشُدُّوا** الْوَثَاقَ...الآية﴾[١] .

يمنحنا قانون التماثل الموقعي لطرفي بنية العدول (موقع جواب الشرط) صلاحية تقديم رؤية تصورية لبنية عميقة تحقق جمالية التماثل الصيغي لطرفي البنية العدولية على النحو الآتي :

فضَرْبَ الرِّقاب ـــــ فشَدَّ الوثاق

وعلى مستوى بنية السطح يحتفظ السياق – ابتداءً – بصيغة المصدر (فَضَرْبَ) ؛ ليُثْريَ المعنى ويفتحَ له مَدَيات من الإيحات الخِصبة الواعدة بدلالات مدهشة . إنَّ هذه الصيغة تؤدي دور العنصر البديل الذي يستعيض به السياق عن الصيغة الفعلية المُقصاة (فاضْربوا) ، يقول البيضاوي : " (فضَرْب الرِّقاب) أصله : فاضربوا الرقاب ضرباً . فحذف الفعل وقدَم المصدر وأنيب منابه مضافاً إلى المفعول "[٢] .

وتمنح تقنية إنابة المصدر مناب الفعل في بنية المعدول عنه التعبير قيمة شكلية متمثلة بالاختصار والإيجاز بغرض التخفيف عن المتلقي بإراحته من ثقل الخطاب بالاستغناء عن فضول الكلام . هذا الاختصار في بنية الكلام يوازيه اختصار في بنية الزمن يمنح التعبير قيمةً دلاليةً من خلال استثمار خصيصة تجرُّد المصدر من الدلالة على زمن معين ، فيكون ذلك مؤشرا إلى التأكيد على حتمية المبادرة بقتال الكفار فور الالتقاء بهم والإمعان في قتلهم بضرب رقابهم .

إنّ توظيف صيغة المصدر للتأكيد على ضرورة مبادرة الكفار بالقتال العنيف في أول المعركة يُعدُّ استراتيجية عسكرية متفوقة ؛ لأنّ مباغتة العدوّ بالهجوم

---

[١] محمد : ٤.

[٢] أنوار التنزيل : ٥ / ١٨٩ .

المباشر المبكِّر يضعف معنوياته ويزلزل قواه ويُحدث ارتباكاً مريعاً في خططـــه ويبشِّر بهزيمة ساحقة .

ويأتي العدول إلى صيغة الأمر (فشُدُّوا) ؛ ليمثِّل استراتيجية عسكرية مغـــايرةً بكلّ المقاييس . فصيغة الأمر : " بنية طلبية لاستدعاء أمر غيــر متحقــق وقــت الطلب "[1] . إنّ الحثّ على شدّ وثاق الأسرى بصيغة الأمر يمنح المخاطب فســحةً زمنية في الاستجابة لهذا الطلب ، فالأمر لم يعد ملحّاً كالمرّة السابقة ؛ لأنّ وضــع العدوّ الآن ليس كوضعه السابق ، فهو في وضعه الراهن جيش مهــزوم مــثخن بجراح الحرب بتأكيد الدالّ(أثخنتموهم) فلا تحتاج عملية الأسر وتكبيــل الأســرى بالقيود سرعةً ومبادرة فجيء بصيغة الأمر التي تنفرج عن مدىً زمني مفتــوح لا يُلزم المأمور بتوقيت محدد لتنفيذ الأمر .

---

[1] الالتفات في القرآن الكريم دراسة أسلوبية : ١٤٨.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة الشاقة الشائقة في رياض القرآن الكريم الغنـــاء المباركـــة ، وفي روضة صيغ المشتقات تحديدا بما حفلت به من توظيف بديع لظاهرة العدول بين صيغ المشتقات ، بعد كلّ ذلك نخلص إلى جملة نتائج توصـــلت إليهـــا هـــذه الدراسة. ومنها ما يأتي :

١- تتفق كتب النحو والتفسير والبلاغة على دلالة واحدة لمادة (عدل) هي دلالة التحول والانصراف عن الشيء وتركه إلى غيره . وتشير كتب اللغة / المعاجم – فضلا عن الدلالة السابقة لهذه المادة – إلى دلالات أُخَر لَها .

٢-وظّف السياق القرآني مادة (عدل) بصيغٍ مختلفة لأداء معانٍ متعدِّدة ، ولم يكن من بين هذه المعاني معنى ترك الشيء والانصراف عنه إلى غيره .

٣ - ينبغي أن يستند الحكم بوجود ظاهرة عدولية في أي نصّ لغويّ إلى قوانين لغوية معتبرة حتى لا يكون هذا الحكم اعتباطيا ورجماً بالغيب. وقد انمازت هـــذه الدراسة بوضع قوانين لغوية لم تُسبق إليها اتّكأت عليها في الحكم بوجود ظـــاهرة عدولية في صيغ المشتقات في القرآن الكريم وتطمح إلى أن يُفيد منها البـــاحثون بعدُ في دراساتهم لهذه الظاهرة الفذّة . وقد تم تصنيف هذه القوانين في قسمين :

- قوانين لغوية حاسمة : وهي القوانين التي تؤكِّدُ حدوثَ عدولٍ فـــي البنيـــة السطحية على جهة اليقين . وهي : قانون السياق التاريخي للصيغة وقانون (لمّا) الظرفية أو الحرفية .

- قوانين لغوية مرجِّحة : وهي القوانين التي ترجِّح حـــدوث عـــدول علـــى مستوى بنية السطح ، ومن هذه القوانين : قانون الجوار وقانون العطف وقـــانون التفصيل وقانون التقابل وقانون التماثل الموقعي / الإعرابـــي وقـــانون الاطّـــراد وقانون المعادَلَة .

٤- إنّ عدَّ القاعدة السياقية هي الأصل المعدول عنه ، هو الذي ينبغي التعويـل عليه والأخذ به – بصفة عامة – في دراسة ظاهرة العدول ؛ لأنّ هـذا الاعتبـار ينأى بالدراسة الناقدة عن مدارات حدس القاعدة المعدول عنهـا وعشـوائية هـذا الحدس وضبابيته . ويسمها – في الوقت ذاته – بسمة العلمية والموضوعية ؛ لأنّ الحضور الفعليّ للقاعدة المعدول عنها في بنية النص اللغوي يجعل دعوى وجـود ظاهرة عدولية أقرب إلى اليقينية . وهي سمة مطلوبة – بإلحـاح – فـي حقـل الدراسات القرآنية على وجه الخصوص .

٥- عدم اطّراد الشرط الذي وضعه بعض الدارسين القدماء لتحقُّق ظاهرة العدول إذْ اشترطوا ضرورة وقوع العدول في جملتين . وقد وجـد الباحـث أنّ ظـاهرة العدول قد تقع في جملة واحدة أيضاً .

٦- إنّ منهج المعجميين في عدِّ الجذر الثلاثي ـــ مجرَّداً من الحركات والسكنات ـــ أصلاً للمشتقَّات ، هو المنهجُ الأسلمُ في دراسة ظـاهرة العـدول فـي صـيغ المشتقات خلافا للمذهب البصري في عدِّ المصدر هو الأصل والمذهب الكوفي في عدِّ الماضي هو الأصل . وقد استندت هذه الدراسة في إيثارها لهذا المـنهج إلـى مسوِّغين اثنين :

- الأول : سلامة هذا المنهج من الانتقادات التي وجهـت للمـذهبين الكـوفي والبصري .

- الثاني : توافق هذا المنهج مع بديهية النمو المنطقي للأشياء من الغـامض إلى الواضح ومن ضبابية الهوية إلى جلاء الملامح والقسمات .

٧- وسّعت الدراسة مفهوم المشتقّات ليشملَ إلى جانب المشتقات الاسمية الخمسـة (الوصف المشتق) واسمي الزمان والمكان واسم الآلة ، المصدرَ أيضاً والمشتقّاتِ الفعليّةَ (الماضيَ والمضارعَ والأمرَ) .

٨- في دراسة ظاهرة العدول في القرآن الكريم تظل العلة المعنوية للعدول ذات أهمية كبرى بالقياس إلى العلة الصوتية ؛ ذلك أنّ العلّة المعنوية يتوقف عليها فهم

القصد الإلهي ومراد الله من آياته ، في حين تكشف العلة الصوتية عن القيمة الجمالية الإيقاعية للنظم القرآني ولا يتوقف عليها فهم النص القرآني الكريم .

٩- وسّعت الدراسة مفهوم الجوار بين الدوالّ اللغوية ليشمل إلى جانب الجوار الموقعي لها الجوار الزمني أيضاً (في صيغ الأفعال تحديداً) ، بحيث يُرجَّح تجانس الأفعال صيغياً لتقارب زمن الحدث أو تطابقه فيها .

١٠- أثبتت الدراسة أنّ بعض صور العدول في صيغ الأفعال لا تتحقّق في بنية الخطاب القرآني وإن كان بعض الدارسين ادّعى تحقُّقها فيها . ومن هذه الصور :

- صورة العدول عن صيغة الماضي إلى صيغة الأمر .
- صورة العدول عن صيغة الأمر إلى صيغة الماضي .
- صورة العدول عن صيغة الأمر إلى صيغة المضارع .

١١- وفي سياق الحديث عن دلالات الصيغ الفعلية استنتجت الدراسة الدلالات الآتية :

أ) : تشير صيغة الماضي إلى وقوع الحدث في الزمن الماضي ولكنّها لا تدل – بصيغتها - على عدد مرّات وقوعه إلّا بقرينة خارجية . أمّا من خلال صيغتها الصرفية فإنها تظلّ محتملة للدلالة على وقوعه مرّةً واحدةً أو أكثرَ من مرّة ، خلافاً لصيغة المضارع التي تدلّ على تكرار وقوع الحدث أكثر من مرة . كما تنفتح صيغة الماضي على دلالتين أساسيتين : دلالة التوكيد ، فهي لذلك تمتلك – في السياق القرآني – كفايةً فذّةً في تجسيد الأحداث المستقبلية التي تكون مظنّة الإنكار والاستبعاد لاسيّما مواقف القيامة وأهوالها . ودلالة إعادة ترتيب الأحداث ــ زمنياً ــ خلافاً لترتيبها سياقياً وتركيبياً.

ب) : تحيل صيغة المبني للمجهول على دلالة المطاوعة وتحقّق أثر الفعل في المفعول به وتحقُّق استجابة المفعول به لتأثير فعل الفاعل . كما تحيل على دلالة أنّ الحدث ليس من الأفعال الذاتية للمفعول به ، بل هو استجابة لتأثير فعل فاعل مستتر وقوّة خفية .

ج) : تمتلك صيغة المضارع كفاية تصويرية عالية من خلال إلغاء الهوّة الزمنية بين زمن الحدث وزمن الحكي بحيث ينطبق الزمنان أحدهما على الآخر ويصبح المتلقي مواكبا للحدث سامعاً وشاهداً . فضلاً عن دلالتها على تكرار الحدث وتجدُّده في مقام التعبير عن العادات الروتينية المتجدِّدة . ودلالتها على الاستمرار والديمومة واستغراق الحدث لكلِّ أجزاء الزمن . وفي ضوء هذه الطاقات الدلالية لصيغة المضارع نستطيع أن نفسر ظاهرة شيوع صورة العدول إلى صيغة المضارع في بنية الخطاب القرآني إذْ شكلت أعلى نسبة من نسب الصور العدولية في صيغ الأفعال (بل وصيغ المشتقات بشكل عام) في القرآن الكريم على مستويي الحضور والإبداع ، الأمر الذي يمكن تفسيره بعناية الخطاب القرآني بالوظيفة التصويرية في تجسيد الحدث ونقل المتلقي إلى مسرح الحدث بكل مافيه من حيوية وإثارة وحركة .

د) : أمّا صيغة الأمر فمع كونها تنفتح على دلالة الإلزام والوجوب ، فإنّها في الصورة العدولية الوحيدة في القرآن الكريم (إني أُشهد الله واشهدوا) لم تحقق هذه الدلالة ، بل وُظِّفت توظيفا مجازياً للدلالة على الاستهزاء والتهكم والسخرية بهؤلاء الكافرين .

هـ) : استدركت الدراسة على بعض الباحثين ما ذهب إليه من وجود ظاهرة عدول عن الماضي إلى المضارع في قوله تعالى في سورة الأنفال : "إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله ... الآية" وقد ناقشت الدراسة هذا الشاهد في موضعه من الدراسة .

١٢- وفي سياق الحديث عن دلالات الصيغ الاسمية خرجت الدراسة بالنتائج الآتية :

أ) : استنتجت الدراسة لصيغتي المبالغة (فَعول ، فَعَّال) توصيفين دلاليين : زمنياً ، ونسبياً :

- فعلى مستوى التوصيف (الزمني) استنتجت أنّ صيغة (فَعول) تحيل على دلالة اتصاف الموصوف بالحدث على جهة الدوام والملازمة من خلال جعل

الموصوف مادَّةً مستهلكة في الحدث . وهي دلالة مستعارة من أسـماء الـذوات الدّالّة على مادّة الحدث كالوَضوء والسَّحور والبخور ... إلخ ، في حـين تشـير صيغة المبالغة (فَعَّال) إلى اتصاف الموصوف بالحدث على جهة التكرار والتّجدُّد كاتصاف صاحب المهنة بمهنته .

- وعلى مستوى التوصيف النسبي (نسبة المبالغة في الوصـف) اسـتنتجت الدراسة أنّ صيغة (فَعّال) أبلغ من صيغة (فَعُول) في نسبة اتصـاف الموصـوف بالحدث استناداً إلى قاعدة الزيادة في المبنى زيادة في المعنى .

ب) : في حقل الصفات الإلهيَّة يشيع توظيف صيغ المبالغة بشكل لافـت للنظر . ونفهم معنى المبالغة في هذا الحقل المبارك لا على أنها مبالغة فـي ذات الصفة ؛ لأنّ صفات الله تعالى على درجة واحدة من الكمال ، بل على أنها ــ أي المبالغة ــ خاصّة بمتعلّقات الصفة ولوازمها .

ج) : من المميزات التركيبية لصيغة المصدر المـؤول عـن المصـدر الصريح كونُ العلاقة الإسنادية فيه أكثر وضوحاً من خلال الحضـور السـياقي لطرفي علاقة الإسناد / المسند والمسند إليه . هذه الخصيصـة الشـكلية منحـت المصدر المؤول كفاية وظيفية دلالية تُعد ميزة إضافيةً له . فمن خلال الحضـور السياقي لطرفي علاقة الإسناد يصبح المصدر المؤول قادرا علـى نقـل الحـدث بجميع أركانه وعناصره الأساسية ، أي نقل الحدث في حالـة التلـبس فالفعـل / الحدث موجود والفاعل موجود ومتلبس بممارسة الحدث .

د) : اشتملت بنية الخطاب القرآني على بعض السياقات التي تمثل البنية العميقة الأولية لسياقات أخرى حفلت بالظاهرة العدولية على مستوى بنية السـطح (مثلا : آيات الأعراف : ١٠٩ – ١١٢ تمثل البنية العميقة للآيات ٣٤- ٣٧ مـن سورة الشعراء) .

١٣- في فصل العدول بين صيغتي الاسم والفعل سجّلت الدراسة النتائج الآتية :

أ) : في صورة العدول عن الماضي إلى اسم الفاعل نلاحـظ اطّـراد مجيء اسم الفاعل بصيغة الجمع وذلك : إمّا لترجيح احتمال دخول المخاطـب أو

المتكلِّم في زمرة الطائفة المشار إليها بصيغة الجمع في بنية المعدول إليه حين يشكِّل طرفا ظاهرة العدول الاحتمالين الرئيسيين والوحيدين في بنية الاحتمالات المتاحة ، حينئذٍ تقترن صيغة الجمع بدالّ التبعيض لترجيح هذا الاحتمال .

وإمّا لنفي احتمال انتماء المخاطب إلى زمرة الطائفة المشار إليها بصيغة الجمع حين تقترن صيغة الجمع بدالِّ النفي .

ب) : انفردت هذه الصورة العدولية دون الصورتين السابقتين باشتمالها على نمطٍ عدوليٍّ فريد هو نمط متولد عن مرحلتين عدوليتين تحويليتين (يُنظر العدول عن صيغة المضارع إلى صيغة اسم المفعول) .

ج) : إنّ العدول إلى صيغة المضارع المبني للمجهول يُقصد به تفريغ الفعل من طاقته التصويرية من خلال سلبه العنصر الرئيسي الفاعل في حركة الصورة (الفاعل المجهول) بإقصائه عن الحضور السياقيّ في بنية الصورة المتشكِّلة على مستوى بنية السطح .

١٤- في بعض السياقات القرآنية تنجح صيغة صرفية ما في إبراز هيمنة إحدى القوى الأساسية والأقطاب الرئيسية في منظومة الثنائيات الضدية التي تحفل بها الحياة (الخير – الشر ، الإيمان – الكفر ، الحق – الباطل ، القوي – الضعيف ...إلخ) . وبمعية الحضور الطاغي لهذه الصيغة يُبرز السياق – من خلال تقنية العدول – صيغة صرفية مماثلة ؛ ليصبح التكافؤ بين الصيغتين على مستوى الصيغة مؤشراً إلى تكافؤ على مستوى القوى المعبر عنها بالصيغتين تحقيقاً لمبدأ التكافؤ والتدافع بين القوى المتضادّة.

١٥- استوعبت ظاهرة العدول في صيغ المشتقات الأنماط المختلفة للتكوين الإنساني : النفسية والاجتماعية والحيويَّة :

ففي الجانب النفسي حققت ظاهرة العدول ريادةً علميةً مبكِّرةً في تأسيس بعض النظريات النفسية وتقديم وصف دقيقٍ للصراعات النفسية وتحليلٍ إكلينيكيٍّ مدهش لأثر الضغوط النفسية والانفعالات الوجدانية على الحواس الماديّة والطاقات

الذهنيّة (يُنظر على سبيل المثال : المقاربات النفسية للآيات : ٧٤ من سورة هود، ٣٤- ٣٧ من سورة الشعراء ، ٦٩ من سورة البقرة) .

وفي الجانب الاجتماعي كشفت ظاهرة العدول في صيغ المشتقات عن طبيعة العلاقات الاجتماعية وقدَّمت تقريراً دقيقاً بنسب العاطفة عند شريحة من شـــرائح المجتمع (الأسرة) لاسيّما الأب وأبناؤه (تُنظر مقاربة الآية ٣٣ من سورة لقمان) .

وتربط ظاهرة العدول في صيغ المشتقات بين تفاوت الخصائص الحيوية بين الزوجين وعمق العلاقة العاطفية بالعنصر المتولِّد عن العلاقة الزوجية / المولود ، و الحقوق المترتِّبة لكلِّ طرفٍ بناءً على اختلاف هذه الخصائص وتفاوتها (يُنظـــر تحليل الآية ٢٣٣ من سورة البقرة) .

ثبت بمواضع العدول في صيغ المشتقات في القرآن الكريم

مواضع العدول بين صيغتي الفعل

الموضع	السورة	الآية	نوع العدول
وَإِذْ **نَجَّيْنَاكُم** مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ... وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ **فَأَنجَيْنَاكُمْ** .	البقرة	٤٥، ٥٠	فعَّل ـــ أفعل
ثُمَّ **نُنَجِّي** رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا **نُنجِ** الْمُؤْمِنِينَ	يونس	١٠٣	" "
ذَلِكَ بِمَا **عَصَواْ** وَّكَانُواْ **يَعْتَدُونَ**	"	٦١	ماضي ـــ مضارع
وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا **يَتَفَجَّرُ** مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا **يَشَّقَّقُ** فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء	"	٧٤	الصيغة غير المدغمة ـــ الصيغة المدغمة
فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا **كَتَبَتْ** أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا **يَكْسِبُونَ**	"	٧٩	ماضي ـــ مضارع
فَفَرِيقاً **كَذَّبْتُمْ** وَفَرِيقاً **تَقْتُلُونَ**	"	٨٧	" "
وَاتَّبَعُواْ مَا **تَتْلُواْ** الشَّيَاطِينُ	"	١٠٢	" "
وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ **كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ**	"	١٠٢	" "
وَإِذَا **سَأَلَكَ** عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ **أُجِيبُ**	"	١٨٦	" "
زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ**يَسْخَرُونَ** مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ	"	٢١١	" "
يَسْأَلُونَكَ مَاذَا **يُنفِقُونَ** قُلْ مَا **أَنفَقْتُم**	"	٢١٥	مضارع ـــ ماضي
تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ **تَعْتَدُوهَا** وَمَن **يَتَعَدَّ** حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ	"	٢٢٩	يفتعِل ـــ يتفعَّل
لَهَا مَا **كَسَبَتْ** وَعَلَيْهَا مَا **اكْتَسَبَتْ**	"	٢٨٦	" "
نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَ**أَنزَلَ** التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ.	آل عمران	٣	" "
وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ	النساء	١٣٦	" "

ثمَّ **قَالَ** لَهُ كُن **فَيَكُون**	"	٥٩	ماضي ــ مضارع
وَمَا **ظَلَمَهُمُ** اللّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ **يَظْلِمُوْنَ**	"	١١٧	" "
اشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا **يَشْتَرُوْنَ**	"	١٨٧	" "
فَرِيقًا **كَذَّبُواْ** وَفَرِيقًا **يَقْتُلُونَ**	المائدة	٧٠	ماضي ــ مضارع
ثُمَّ **عَمُواْ** وَ**صَمُّواْ** كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللّهُ بَصِيرٌ بما **يَعْمَلُونَ**	"	٧١	ماضي ــ مضارع
قُلْ مَن **يُنَجِّيكُم** مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ **أَنجَانَا**	الأنعام	٦٣	فعَّل ـــ أفْعلَ
فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا **نُّخْرِجُ** مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِباً	**الأنعام**	**٩٩**	ماضي ــ مضارع
إِنَّهُمُ **اتَّخَذُوا** الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ وَ**يَحْسَبُونَ** أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ	**الأعراف**	**٣٠**	" "
أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء **أَصَبْنَاهُم** بِذُنُوبِهِمْ وَ**نَطْبَعُ** عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ	"	١٠٠	" "
فَإِذَا **جَاءتْهُمُ** الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن **تُصِبْهُمْ** سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ	"	١٣١	" "
قَالَ عَذَابِي **أُصِيبُ** بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي **وَسِعَتْ** كُلَّ شَيْءٍ	"	١٥٦	مضارع ــ ماضي
وَالَّذِينَ **يُمَسَّكُونَ** بِالْكِتَابِ وَ**أَقَامُواْ** الصَّلاَةَ	"	١٧٠	" "
وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ **خَرَجُواْ** مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ وَ**يَصُدُّونَ** عَن سَبِيلِ اللّهِ	الأنفال	٤٧	ماضي ــ مضارع
الَّذِينَ **عَاهَدتَّ** مِنْهُمْ ثُمَّ **يَنقُضُونَ** عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ	"	٥٦	" "
إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ **لاَ يُؤْمِنُونَ** بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَ**ارْتَابَتْ** قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ	التوبة	٤٥	مضارع ــ ماضي

قَالَ إِنِّي **أُشْهِدُ** اللّهِ وَ**اشْهَدُواْ** أَنِّـــي بَـــرِيءٌ مِّمَّـــا تُشْرِكُونَ	هود	٣٦	مضارع ــ أمر
فَلَمَّا **ذَهَبَ** عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَ**جَاءتْـــهُ** الْبُشْـــرَى **يُجَادِلُنَا** فِي قَوْمِ لُوطٍ.	"	٧٤	ماضي ــ مضارع
وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ **تَوَكَّلْتُ** وَإِلَيْهِ **أُنِيبُ**	"	٨١	" "
يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ **فَأَوْرَدَهُمُ** النَّارَ	"	٩٨	مضارع ــ ماضي
الَّذِينَ **يُوفُونَ** بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ **يِنقُضُـــونَ** الْمِيثَـــاقَ . وَالَّذِينَ **يَصِلُونَ** مَا أَمَـــرَ اللّـــهُ بِـــهِ أَن يُوصَـــلَ وَ**يَخْشَوْنَ** رَبَّهُمْ وَ**يَخَافُونَ** سُوءَ الحِسَابِ . وَالَّذِينَ **صَبَرُواْ** ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَ**أَقَامُواْ** الصَّلاَةَ وَ**أَنفَقُواْ** مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً	الرعد	٢٢,٢١,٢٠	مضارع ــ ماضي
وَالَّذِينَ **صَبَرُواْ** ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَ**أَقَـــامُواْ** الصَّلاَةَ وَ**أَنفَقُواْ** مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَـــةً وَ**يَـــدْرَؤُونَ** بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ	الرعد	٢٢	ماضي ــ مضارع
وَالَّذِينَ **يَنقُضُونَ** عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَ**يَقْطَعُونَ** مَآ أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَ**يُفْسِدُونَ** فِـــي الأَرْضِ .... وَ**فَرِحُواْ** بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا	"	٢٦,٢٥	مضارع ــ ماضي
الَّذِينَ **آمَنُواْ** وَ**تَطْمَئِنُّ** قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ	"	٢٨	ماضي ــ مضارع
وَلَقَدْ **أَرْسَلْنَا** مِن قَبْلِكَ فِي شِـــيَعِ الأَوَّلِـــينَ . وَمَـــا **يَأْتِيهِم** مِّن رَّسُولٍ	الحجر	١٠، ١١	ماضي ــ مضارع
خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِـــالْحَقِّ تَعَـــالَى عَمَّـــا يُشْرِكُونَ . **خَلَقَ** الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ . وَالأَنْعَامَ **خَلَقَهَا** لَكُمْ فِيهَـــا دِفْءٌ وَمَنَـــافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَ**يَخْلُقُ** مَا لاَ تَعْلَمُونَ	النحل	٣ــ ٨	ماضي ــ مضارع

الَّذِينَ **تَتَوَفَّاهُمُ** الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ **فَأَلْقَوُاْ** السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ	"	٢٨	مضارع ــ ماضي
الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون	"	٤٢	" "
وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ	"	٤٣	" "
وَيَوْمَ **نَبْعَثُ** فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَ**جِئْنَا** بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاء	"	٨٩	" "
إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ **آمَنُواْ** وَعَلَى رَبِّهِمْ **يَتَوَكَّلُونَ**	"	٩٩	" "
يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَ**يَلْبَسُونَ** ثِيَابًا خُضْرًا	الكهف	٣١	مبني للمجهول ــ مبني للمعلوم
وَيَوْمَ **نُسَيِّرُ** الْجِبَالَ وَ**تَرَى** الْأَرْضَ بَارِزَةً وَ**حَشَرْنَاهُمْ** فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً .	الكهف	٤٧	مضارع ــ ماضي
وَ**يَقُولُونَ** يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَ**وَجَدُوا** مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا .	"	٤٩	" "
وَ**يُجَادِلُ** الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَ**اتَّخَذُوا** آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً .	"	٥٦	" "
... سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ **تَسْتَطِع** عَّلَيْهِ صَبْراً ... ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ **تَسْطِع** عَّلَيْهِ صَبْراً .	"	٧٨ ، ٧٩	الفعل التام ــ الفعل الناقص
فَمَا **اسْطَاعُوا** أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا **اسْتَطَاعُوا** لَهُ نَقْباً .	"	٩٧	الفعل الناقص ــ الفعل التام
مَا **أَرْسَلْنَا** قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً **نُّوحِي** إِلَيْهِمْ ... الآية	الأنبياء	٢٥	ماضي ــ مضارع
إِنَّ الَّذِينَ **كَفَرُوا** وَ**يَصُدُّونَ** عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ... الآية	الحج	٢٥	ماضي ــ مضارع

...ثُمَّ **لْيَقْضُوا** تَفَثَهُمْ وَ**لْيُوفُوا** نُذُورَهُمْ وَ**لْيَطَّوَّفُوا** بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ .	"	٢٩	الفعل غير المضعّف ــ الفعل المضعّف
... فَكَأَنَّمَا **خَرَّ** مِنَ السَّمَاء **فَتَخْطَفُهُ** الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ .	"	٣١	ماضي ــ مضارع
وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ **كَذَّبَتْ** قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ... وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَ**كُذِّبَ** مُوسَى ... الآية	"	٤٢ ــ ٤٤	مبني للمعلوم ــ مبني للمجهول
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ **أَنزَلَ** مِنَ السَّمَاءِ مَاءً **فَتُصْبِحُ** الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ .	"	٦٣	ماضي ــ مضارع
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ **سَخَّرَ** لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ**يُمْسِكُ** السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ .	"	٦٥	" "
وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا **اسْتَكَانُوا** لِرَبِّهِمْ وَمَا **يَتَضَرَّعُونَ** .	المؤمنون	٧٦	ماضي ــ مضارع
أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ **ارْتَابُوا** أَمْ **يَخَافُونَ** أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .	النور	٥٠	" "
... لَوْلَا **أُنزِلَ** إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً . أَوْ **يُلْقَى** إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ **تَكُونُ** لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُوراً .	الفرقان	٧ ، ٨	" "
تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاء **جَعَلَ** لَكَ خَيْراً مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ**يَجْعَل** لَّكَ قُصُوراً .	"	١٠	" "
وَلَا **يَأْتُونَكَ** بِمَثَلٍ إِلَّا **جِئْنَاكَ** بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً .	"	٣٣	مضارع ــ ماضي
وَيَوْمَ **تَشَقَّقُ** السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَ**نُزِّلَ** الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلاً .	"	٢٥	" "

إن نَّشأْ **نُنَزِّلْ** عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً **فَظَلَّتْ** أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ .	الشعراء	٤	مضارع ــ ماضي
فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ **تَلْقَفُ** مَا يَأْفِكُونَ .	"	٤٥	ماضي ــ مضارع
وَ**أُزْلِفَتِ** الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ . وَ**بُرِّزَتِ** الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ .	"	٩٠ ، ٩١	أُفْعِلَ ــ فُعِّلَ
فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَ**نَجِّنِي** وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَكَذَّبُوهُ **فَأَنجَيْنَاهُ** وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ..الآية	"	١١٨، ١١٩	فَعِّلَ ــ أفْعَلَ
إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً **تَمْلِكُهُمْ** وَ**أُوتِيَتْ** مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ .	النمل	٢٣	مضارع ــ ماضي
وَيَوْمَ **يُنفَخُ** فِي الصُّورِ **فَفَزِعَ** مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ	النمل	٢٣	مضارع ــ ماضي
ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن **كَذَّبُوا** بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا **يَسْتَهْزِئُون** .	الروم	١٠	ماضي ــ مضارع
وَمَن **يَشْكُرْ** فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن **كَفَرَ** فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ .	"	١٢	مضارع ــ ماضي
لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَ**أَعَدَّ** لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً .	الأحزاب	٨	" "
وَإِذْ **زَاغَتْ** الْأَبْصَارُ وَ**بَلَغَتِ** الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَ**تَظُنُّونَ** بِاللَّهِ الظُّنُونَا .	"	١٠	ماضي ــ مضارع
وَإِذْ **قَالَت** طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَ**يَسْتَأْذِنُ** فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ... الآية	"	١٣	" "

يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ **يُضَاعَفْ** لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً . وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً **نُّؤْتِهَا** أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً.	"	٣١	مبني للمجهول ــ مبني للمعلوم
قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا **أَجْرَمْنَا** وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا **تَعْمَلُونَ** .	سبأ	٢٥	ماضي ــ مضارع
وَقَدْ **كَفَرُوا** بِهِ مِن قَبْلُ **وَيَقْذِفُونَ** بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ .	"	٥٣	ماضي ــ مضارع
وَاللَّهُ الَّذِي **أَرْسَلَ** الرِّيَاحَ **فَتُثِيرُ** سَحَاباً ... الآية	فاطر	٩	ماضي ــ مضارع
إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ **يَخْشَوْنَ** رَبَّهُم بِالغَيْبِ **وَأَقَامُوا** الصَّلَاةَ ... الآية	"	١٨	مضارع ــ ماضي
إِنَّ الَّذِينَ **يَتْلُونَ** كِتَابَ اللَّهِ **وَأَقَامُوا** الصَّلَاةَ **وَأَنفَقُوا** مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ... الآية	"	٢٩	" "
بَلْ عَجِبْتَ **وَيَسْخَرُونَ** ... وَإِذَا رَأَوْا آيَةً **يَسْتَسْخِرُونَ**.	الصافات	١٢ ــ ١٤	يفعلون ــ يستفعلون
كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ **لِّيَدَّبَّرُوا** آيَاتِهِ **وَلِيَتَذَكَّرَ** أُوْلُوا الْأَلْبَابِ .	ص	٢٩	الصيغة المدغمة ــ الصيغة غير المدغمة
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ **أَنزَلَ** مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ **يُخْرِجُ** بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ **يَهِيجُ** فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ **يَجْعَلُهُ** حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ .	الزمر	٢١	ماضي ــ مضارع
ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا **دُعِيَ** اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن **يُشْرَكْ** بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ .	غافر	١٢	" "
وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ **آمَنُوا** وَكَانُوا **يَتَّقُونَ** .	فصلت	١٨	" "

أَفَمَن **يُلْقَى** فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن **يَأْتِي** آمِنــاً يَــوْمَ الْقِيَامَةِ ... الآية	"	٤٠	مبني للمجهول ــ مبني للمعلوم
... وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ **آمَنُوا** وَعَلَــى رَبِّهِمْ **يَتَوَكَّلُونَ** .	الشورى	٣٦	ماضي ــ مضارع
وَتَرَاهُمْ **يُعْرَضُونَ** عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ **يَنظُرُونَ** مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَ**قَالَ** الَّذِينَ آمَنُوا	"	٤٥	مضارع ــ ماضي
... وَإِنَّا إِذَا **أَذَقْنَا** الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن **تُصِبْهُمْ** سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ.	"	٤٨	ماضي ــ مضارع
وَكَمْ **أَرْسَلْنَا** مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ . وَمَا **يَأْتِيهِم** مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون .	الزخرف	٦ ، ٧	ماضي ــ مضارع
وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا **نُزِّلَتْ** سُورَةٌ فَإِذَا **أُنزِلَــتْ** سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ ... الآية	محمد	٢٠	فُعِّلَ ــ أُفعِلَ
وَلَقَدْ **خَلَقْنَا** الْإِنسَانَ وَ**نَعْلَمُ** مَا تُوَسْوِسُ بِــهِ نَفْسُــهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ .	ق	١٧	ماضي ــ مضارع
كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَ**قَالُوا** مَجْنُونٌ وَ**ازْدُجِرَ** .	القمر	٩	مبني للمعلوم ــ مبني للمجهول
كَمَثَلِ غَيْثٍ **أَعْجَبَ** الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ **يَهِــيجُ** فَتَــرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ **يَكُونُ** حُطَاماً ... الآية	الحديد	٢٠	ماضي ــ مضارع
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُــمْ **تَفَسَّــحُوا** فِــي الْمَجَالِسِ **فَافْسَحُوا** يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ... الآية	المجادلة	١١	تفعَّلْ ــ افعَلْ
وَقَدْ **كَفَرُوا** بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ **يُخْرِجُونَ** الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ... الآية	الممتحنة	١	ماضي ــ مضارع
إِن يَثْقَفُوكُمْ **يَكُونُوا** لَكُمْ أَعْــدَاء **وَيَبْسُــطُوا** إِلَــيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَ**وَدُّوا** لَوْ تَكْفُرُونَ .	"	٢	مضارع ــ ماضي

ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت **تَّأْتِيهِمْ** رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ **فَقَالُوا** أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ... الآية	التغابن	٦	مضارع ــ ماضي
... فَلَمَّا **نَبَّأَهَا** بِهِ قَالَتْ مَنْ **أَنبَأَكَ** هَذَا ... الآية	التحريم	٣	فَعَّلَ ــ أَفْعَلَ
يَوْمَ **تَرْجُفُ** الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَ**كَانَتِ** الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً .	المزّمّل	١٤	مضارع ــ ماضي
يَوْمَ **يُنفَخُ** فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً . وَ**فُتِحَتِ** السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَاباً .	النبأ	١٨ ، ١٩	مضارع ــ ماضي
إِذَا السَّمَاء **انفَطَرَتْ** . وَإِذَا الْكَوَاكِبُ **انتَثَرَتْ** . وَإِذَا الْبِحَارُ **فُجِّرَتْ** . وَإِذَا الْقُبُورُ **بُعْثِرَتْ** .	الانفطار	١ ــ ٤	مبني للمعلوم ــ مبني للمجهول
وَمَا **نَقَمُوا** مِنْهُمْ إِلَّا أَن **يُؤْمِنُوا** بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ.	البروج	٨	ماضي ــ مضارع
فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ **أَمْهِلْهُمْ** رُوَيْداً .	الطارق	١٧	فعِّلْ ــ أفْعِلْ
وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا **أَعْبُدُ** . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا **عَبَدتُّمْ**.	الكافرون	٣ ، ٤	مضارع ــ ماضي
وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا **عَبَدتُّمْ** . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا **أَعْبُدُ**.	"	٤ ، ٥	ماضي ــ مضارع

العدول بين صيغتي الاسم

قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ **مُصَدِّقاً** لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَ**هُدًى** وَ**بُشْرَى** لِلْمُؤْمِنِينَ .	البقرة	٩٧	اسم فاعل ــ مصدر
وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ **وَاسِعٌ** **عَلِيمٌ** .	"	١١٥	اسم فاعل ــ صيغة مبالغة
لاَ تُضَآرَّ **وَالِدَةٌ** بِوَلَدِهَا وَلاَ **مَوْلُــودٌ لَّهُ** بِوَلَدِهِ ... الآية	"	٢٣٣	اسم فاعل ــ اسم مفعول
إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ **مُبَارَكاً وَهُدًى** لِّلْعَالَمِينَ .	آل عمران	٩٦	اسم مفعول ــ مصدر
... إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ **مُخْتَالاً فَخُوراً** .	النساء	٣٦	اسم فاعل ــ صيغة مبالغة
... مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ **شَاكِراً عَلِيماً** .	"	١٤٧	" "
... وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّــانَ **مُشْــتَبِهاً** وَغَيْرَ **مُتَشَابِهٍ** ... الآية	الأنعام	٩٩	بين صيغتي اسم الفاعل
قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَــوَاحِشَ مَــا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَ**الإِثْمَ** وَ**الْبَغْيَ** بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ**أَن تُشْرِكُواْ** بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَ**أَن تَقُولُواْ** عَلَــى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ .	الأعراف	٣٣	مصدر صريح ــ مصدر مؤول
... فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّــرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ .	**التوبة**	١٠٨	مضارع ــ اسم فاعل

يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ **الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**	يوسف	٣٩	اسم فاعل ــ صيغة مبالغة
... قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ **الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** .	الرعد	١٦	" "
... وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ .	إبراهيم	٣٤	بين صيغتي المبالغة
... وَبَرَزُواْ للّهِ **الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** .	"	٤٨	اسم فاعل ــ صيغة مبالغة
وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ **مُبَشِّراً** وَ**نَذِيراً** .	الإسراء	١٠٥	اسم فاعل ــ صيغة مبالغة
وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ **هَادِياً** وَ**نَصِيراً**.	الفرقان	٣١	اسم فاعل ــ صيغة مبالغة
قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا **لَسَاحِرٌ** عَلِيمٌ ... يَأْتُوكَ بِكُلِّ **سَحَّارٍ** عَلِيمٍ .	الشعراء	٣٤ ــ ٣٧	اسم فاعل ــ صيغة مبالغة
وَمَا هَذِهِ **الْحَيَاةُ** الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ **الْحَيَوَانُ** لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .	العنكبوت	٦٤	بين صيغتي المصدر
يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن **وَلَدِهِ** وَلَا **مَوْلُودٌ** هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً ... الآية	لقمان	٣٣	اسم جنس ــ اسم مفعول
ذَلِكَ **عَالِمُ** الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ **الرَّحِيمُ** .	السجدة	٦	اسم فاعل ــ صيغة مبالغة
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ **شَاهِداً** وَ**مُبَشِّراً** وَ**نَذِيراً** .	الأحزاب	٤٥	" "

إِنَّ اللَّهَ **عَالِمُ** غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ **عَلِيمٌ** بِذَاتِ الصُّدُورِ .	فاطر	٣٨	اسم فاعل ــ صيغة مبالغة
وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا **سَاحِرٌ كَذَّابٌ** .	ص	٤	" "
قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ **الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** .	"	٦٥	" "
... إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ **كَاذِبٌ كَفَّارٌ** .	الزمر	٣	" "
لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ **الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** .	"	٤	" "
وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً **قَبْضَتُهُ** يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ **مَطْوِيَّاتٌ** بِيَمِينِهِ ...	"	٦٧	مصدر ــ اسم مفعول
يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ **الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** .	غافر	١٦	اسم فاعل ــ صيغة مبالغة
إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا **سَاحِرٌ كَذَّابٌ** .	"	٢٤	" "
... كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ **مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ** .	"	٢٥	" "
فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ **مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ** .	القمر	٥٥	صيغة مبالغة ــ اسم فاعل
فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ **آثِماً** أَوْ **كَفُوراً** .	"	٢٤	" "

يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ . قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ . أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ . يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ . أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً .	النازعات	٦ ــ ١١	اسم الفاعل ــ الصفة المشبهة

مواضع العدول بين صيغتي الفعل والاسم

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ **آمَنَّا** بِاللّهِ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم **بِمُؤْمِنِينَ**	البقرة	٨	ماضي ــ اسم فاعل
فَلاَ **خَوْفٌ** عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ **يَحْزَنُونَ**	"	٢٨	مصدر ــ مضارع
وَلاَ **خَوْفٌ** عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ **يَحْزَنُونَ**	"	٦٢	مصدر ــ مضارع
قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء **فَاقِعٌ** لَّوْنُهَا **تَسُرُّ** النَّاظِرِينَ	"	٦٩	اسم فاعل ــ مضارع
وَلاَ **خَوْفٌ** عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ **يَحْزَنُونَ**	"	١١٢	مصدر ــ مضارع
وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ **آمَنَ** بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَ**آتَى** الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَ**أَقَامَ** الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَ**الْمُوفُونَ** بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَ**الصَّابِرِينَ** فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء	"	١٧٧	ماضي ــ اسم فاعل
وَلاَ **خَوْفٌ** عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ **يَحْزَنُونَ**	"	٢٦٢	مصدر ــ مضارع
" " "	"	٢٧٤	" "
" " "	"	٢٧٧	" "

...**وَجِيهاً** فِي الدُّنْيَا وَالآخِـرَةِ وَمِـنَ الْمُقَرَّبِينَ . وَ**يُكَلِّمُ** النَّاسَ فِـي الْمَهْـدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ .	آل عمران	٤٥ ، ٤٦	صفة مشبهة ــ مضارع
وَ**مُصَدِّقاً** لِّمَا بَيْنَ يَـدَيَّ مِـنَ التَّـوْرَاةِ وَ**لِأُحِلَّ** لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُـرِّمَ عَلَـيْكُمْ ...الآية	"	٥٠	اسم فاعل ــ مضارع
وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ **بُشْرَى** لَكُمْ وَ**لِتَطْمَئِنَّ** قُلُوبُكُم بِهِ ... الآية	آل عمران	١٢٦	مصدر ــ مضارع
الَّذِينَ **يُنفِقُونَ** فِي السَّـرَّاء وَالضَّـرَّاء وَ**الْكَاظِمِينَ** الْغَيْظَ وَ**الْعَافِينَ** عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .	"	١٣٤	مضارع ــ اسم فاعل
أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَـمِ اللّهُ الَّـذِينَ **جَاهَـدُواْ** مِـنكُمْ وَيَعْلَـمَ **الصَّابِرِينَ** .	"	١٤٢	ماضي ــ اسم فاعل
إِنَّ الْمُنَافِقِينَ **يُخَـادِعُونَ** اللّـهَ وَهُـوَ **خَادِعُهُمْ** ... الآية	النساء	١٤٢	مضارع ــ اسم فاعل
لَئِن **بَسَطتَ** إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَـا أَنَـاْ **بِبَاسِطٍ** يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ ... الآية	المائدة	٢٨	ماضي ــ اسم فاعل
قَدْ **ضَلَلْتُ** إِذاً وَمَا أَنَاْ مِنَ **الْمُهْتَدِينَ**	الأنعام	٥٦	ماضي ــ اسم فاعل
وَهُوَ **الْقَاهِرُ** فَوْقَ عِبَادِهِ وَ**يُرْسِلُ** عَلَيْكُم حَفَظَةً ... الآية	"	٦١	اسم فاعل ــ مضارع
إِنَّ اللّهَ **فَالِقُ** الْحَبِّ وَالنَّـوَى **يُخْـرِجُ** الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ... الآية	"	٩٥	اسم فاعل ــ مضارع
يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ**مُخْرِجُ** الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ... الآية	"	"	مضارع ــ اسم فاعل

فَالِقُ الإِصْبَاحِ و**َجَعَلَ** اللَّيْلَ سَـــكَناً ... الآية	"	٩٦	اسم فاعل ــ ماضي
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .	"	١١٧	مضارع ــ اسم فاعل
أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ **نَاصِـــحٌ** أَمِينٌ.	الأعراف	٦٨	مضارع ــ اسم فاعل
سَوَاء عَلَـيْكُمْ **أَدَعَوْتُمُــوهُمْ** أَمْ أَنــتُمْ **صَامِتُونَ** .	الأعراف	١٩٣	ماضي ــ اسم فاعل
وَمَا كَانَ اللّهُ **لِيُعَذِّبَهُمْ** وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَــا كَانَ اللّهُ **مُعَذِّبَهُمْ** وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ .	الأنفال	٣٢	مضارع ــ اسم فاعل
وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم **بَطَراً** و**َرِئَاء** النَّاسِ و**َيَصُدُّونَ** عَن سَبِيلِ اللّهِ ...الآية	"	٤٧	مصدر ــ مضارع
عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَــيَّنَ لَكَ الَّذِينَ **صَدَقُواْ** وَتَعْلَمَ **الْكَاذِبِينَ** .	التوبة	٤٣	ماضي ــ اسم فاعل
و**َحَبِطَ** مَا صَنَعُواْ فِيهَا و**َبَاطِلٌ** مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ .	هود	١٦	ماضي ــ اسم فاعل
الَّذِينَ **يَصُدُّونَ** عَن سَبِيلِ اللّهِ و**َيَبْغُونَهَا** عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ **كَافِرُونَ** .	"	١٩	مضارع ــ اسم فاعل
قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَــيَّ **إِجْرَامِــي** وَأَنَــاْ بَرِيءٌ مِّمَّا **تُجْرَمُونَ** .	"	٣٥	مصدر ــ مضارع
إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُــلٍ **فَصَــدَقَتْ** وَهُوَ مِنَ **الكَاذِبِينَ** .	يوسف	٢٦	ماضي ــ اسم فاعل
إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ **يُؤْمِنُونَ** بِاللّــهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ **كَافِرُونَ** .	"	٣٧	مضارع ــ اسم فاعل

وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُــفَ فَــدَخَلُواْ عَلَيْــهِ **فَعَرَفَهُمْ** وَهُمْ لَهُ **مُنكِرُونَ** .	"	٥٨	ماضي ــ اسم فاعل
قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا **لِنُفْسِدَ** فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا **سَارِقِينَ** .	"	٧٣	مضارع ــ اسم فاعل
قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَــــهَ إِلاَّ هُــوَ عَلَيْــهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ .	الرعد	٣٠	ماضي ــ مصدر
وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيــرَ **لِتَرْكَبُوهَــا** وَ**زِينَةً** وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ	النحل	٨	مضارع ــ مصدر
وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ **لِتُبَيِّنَ** لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ **وَهُدًى وَرَحْمَةً** لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .	"	٦٤	مضارع ــ مصدر
قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِــالْحَقِّ **لِيُثَبِّتَ** الَّذِينَ آمَنُواْ **وَهُــدًى وَبُشْــرَى** لِلْمُسْلِمِينَ .	"	١٠٢	مضارع ــ مصدر
وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَــتْ **آمِنَــةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا** رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُــلِّ مَكَانٍ ... الآية	"	١١٢	اسم فاعل ــ مضارع
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن **ضَــلَّ** عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ **بِالْمُهْتَدِينَ** .	"	١٢٥	ماضي ــ اسم فاعل
وَوُضِعَ الْكِتَــابُ فَتَــرَى الْمُجْــرِمِينَ **مُشْفِقِينَ** مِمَّا فِيهِ وَ**يَقُولُونَ** يَا وَيْلَتَنَا ... الآية	الكهف	٤٩	اسم فاعل ــ مضارع
قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ **صَابِراً** وَلَــا **أَعْصِي** لَكَ أَمْراً .	"	٦٩	" "
خَالِدِينَ فِيهَا لَا **يَبْغُونَ** عَنْهَا حِوَلاً .	"	١٠٨	اسم فاعل ــ مضارع

إِنَّهُ كَانَ **صَادِقَ** الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً . وَكَانَ **يَأْمُرُ** أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ...	مريم	٥٤ ، ٥٥	اسم فاعل ــ مضارع
قَالُوا **أَجِئْتَنَا** بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ **اللَّاعِبِينَ**.	الأنبياء	٥٥	ماضي ــ اسم فاعل
إِنَّ اللَّهَ **يُسْمِعُ** مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ **بِمُسْمِعٍ** مَّن فِي الْقُبُورِ .	الحج	٢٢	مضارع ــ اسم فاعل
وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ .	"	٣٥	اسم فاعل ــ مضارع
الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ **خَاشِعُونَ** . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ **مُعْرِضُونَ** . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ **فَاعِلُونَ** . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ **حَافِظُونَ** . فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ **الْعَادُونَ** . وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ **رَاعُونَ** . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ **يُحَافِظُونَ** .	المؤمنون	٢ ــ ٩	اسم فاعل ــ مضارع
ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ **لَمَيِّتُونَ** . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ **تُبْعَثُونَ** .	"	١٥ ، ١٦	صفة مشبهة ــ مضارع
قَالَ سَنَنظُرُ **أَصَدَقْتَ** أَمْ كُنتَ مِنَ **الْكَاذِبِينَ** .	النمل	٢٧	ماضي ــ اسم فاعل
وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ **يَكْفُلُونَهُ** لَكُمْ وَهُمْ لَهُ **نَاصِحُونَ** .	القصص	١٢	مضارع ــ اسم فاعل
فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ **صَدَقُوا** وَلَيَعْلَمَنَّ **الْكَاذِبِينَ** .	العنكبوت	٣	ماضي ــ اسم فاعل

وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ **آمَنُوا** وَلَيَعْلَمَنَّ **الْمُنَافِقِينَ** .	العنكبوت	١١	ماضي ــ مضارع
قُلْ إِنَّ رَبِّي **يَقْذِفُ** بِالْحَقِّ عَلَّامُ **الْغُيُوبِ**.	سبأ	٤٨	مضارع ــ صيغة مبالغة
هَلْ مِنْ **خَالِقٍ** غَيْرُ اللَّهِ **يَرْزُقُكُم** مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ... الآية	فاطر	٣	اسم فاعل ــ مضارع
وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا **رَكُوبُهُمْ** وَمِنْهَا **يَأْكُلُونَ**.	يس	٧٢	(فَعُول) بمعنى اسم المفعول ــ مضارع
... فَمَا **اسْتَطَاعُوا** مُضِيّاً وَلَا **يَرْجِعُونَ**.	"	١٦٧	مصدر ــ مضارع
أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ **آمَنُوا** وَ**عَمِلُوا** الصَّالِحَاتِ كَ**الْمُفْسِدِينَ** فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ .	ص	٢٨	ماضي ــ اسم فاعل
إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ **يُسَبِّحْنَ** بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ . وَالطَّيْرَ **مَحْشُورَةً** كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ .	"	١٨ ، ١٩	مضارع ــ اسم مفعول
هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ **لِتَسْكُنُواْ** فِيهِ وَالنَّهَارَ **مُبْصِراً** ... الآية	غافر	٦١	مضارع ــ اسم فاعل
... وَ**زَيَّنَّا** السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَ**حِفْظاً** ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .	فصلت	١٢	ماضي ــ مصدر
... وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا **خَاشِعِينَ** مِنَ الذُّلِّ **يَنظُرُونَ** مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ...	الشورى	٤٥	اسم فاعل ــ مضارع
وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا **وَحْياً** أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ **يُرْسِلَ** رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ... الآية	الشورى	٥١	مصدر ــ مضارع

فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا **فَضَرْبَ** الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ **فَشُدُّوا** الْوَثَاقَ ... الآية	محمد	٤	مصدر ـــ أمر
وَالَّذِينَ كَفَرُوا **فَتَعْساً** لَّهُمْ وَ**أَضَلَّ** أَعْمَالَهُمْ	"	٨	مصدر ـــ ماضي
ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ .	"	٢٨	ماضي ـــ مضارع
أَأَنتُمْ **تَزْرَعُونَهُ** أَمْ نَحْنُ **الزَّارِعُونَ** .	الواقعة	٦٤	مضارع ـــ اسم فاعل
أَأَنتُمْ **أَنشَأْتُمْ** شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ **الْمُنشِؤُونَ**	"	٧٢	ماضي ـــ اسم فاعل
إِنَّ **الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا** اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ... الآية	الحديد	١٨	اسم فاعل ـــ ماضي
... لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ... الآية	الممتحنة	١٠	صفة مشبهة ـــ مضارع
أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ **صَافَّاتٍ** وَ**يَقْبِضْنَ** ... الآية	الملك	١٩	اسم فاعل ـــ مضارع
وَ**الْعَادِيَاتِ** ضَبْحاً . **فَالْمُورِيَاتِ** قَدْحاً . فَ**الْمُغِيرَاتِ** صُبْحاً . **فَأَثَرْنَ** بِهِ نَقْعاً . **فَوَسَطْنَ** بِهِ جَمْعاً .	العاديات	١ ـــ ٤	اسم فاعل ـــ ماضي
وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا **أَعْبُدُ** . وَلَا أَنَا **عَابِدٌ** مَّا عَبَدتُّمْ .	الكافرون	٣ ، ٤	مضارع ـــ اسم فاعل
وَلَا أَنتُمْ **عَابِدُونَ** مَا **أَعْبُدُ** .	"	٣	اسم فاعل ـــ مضارع
وَلَا أَنَا **عَابِدٌ** مَّا **عَبَدتُّمْ** .	"	٤	اسم فاعل ـــ ماضي

المصادر والمراجع

أوّلاً : القرآن الكريم .

ثانياً : المصادر والمراجع الأخرى :

- الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي : عدنان حسين قاسم ، الدار العربية للنشر والتوزيع ، مصر ، ٢٠٠١م.
- الاتجاه العدوليّ في القرآن الكريم : عبد اللطيف محمود الليثي ، مقال ضمن كتاب (العربية وقرن من الدرس النحوي) ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ٢٠٠٣ م .
- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين : محمد بن محمد الحسيني الزبيدي ، دار الفكر ، بيروت . بدون طبعة .
- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر : أحمد عبد الغني الدمياطي ، صحّحه وعلّق عليه علي محمد الضباع ، دار الندوة الجديدة ، بيروت ، بد ط .
- الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين السيوطي ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، ١٩٧٣م .
- أحكام القرآن : الجصاص، تحــ محمد الصادق قمحاوي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : أبو السعود محمد بن محمد العمادي الحنفي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- أساس البلاغة : للزمخشري ، دار صادر، بيروت ، ١٤١٢هــ ــ ١٩٩٢م.
- أسباب النزول : السيوطي ، تحــ حامد أحمد الطاهر ، دار الفجر للتراث ، القاهرة ، ١٤٢٣هــ ــ ٢٠٠٢م.
- أسرار التكرار في القرآن : محمود بن حمزة الكرماني ، ــ تحــ عبد القادر أحمد عطا ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٩٤ م .
- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية ، حسن طبل : دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٩٨م.

- الأشباه والنظائر في النحو : جلال الدين السيوطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٤م.
- الاشتقاق : عبد الله أمين ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٤٢٠ هـ ـ ٢٠٠٠م .
- الأصول في النحو : ابن السرّاج ، تحـ عبد الحسين الفتليّ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .
- أضواء البيان : الشنقيطي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م .
- الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم – دراسة نظرية تطبيقية- التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة : عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ٢٠٠٢م.
- إعراب القرآن الكريم : أبو جعفر النحّاس : تحـ زهير غازي زاهد ، عالم الكتب ومكتبة النهضة ، بيروت ، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م .
- إعراب القراءات الشواذّ : لأبي البقاء العكبري ، تحـ محمد السيِّد أحمد عّزوز عالم الكتب ، بيروت ، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م .
- إعراب مشكل القرآن : مكي بن أبي طالب القيسي ، تحـ حاتم صالح الضامن ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، بدون طبعة .
- الالتفات في القرآن الكريم دراسة أسلوبية : سعاد عبد الملك الحدابي ، رسالة ماجستير ، جامعة صنعاء ، كلية الآداب ، ٢٠٠٠م .
- الانتصاف على هامش الكشاف : أحمد بن المنيِّر المالكي الاسكندريّ ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، ٢٠٠٢م.
- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين : أبو البركات الأنباري ، تقديم وفهرسة حسن حمد بإشراف إميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٨م .
- الأغاني : لأبي الفرج الأصفهاني ، دار إحياء التراث العربيّ ، بيروت ، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م .

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ناصر الدين البيضاوي ، تحـ عبد القادر عرفان العشّا حسّونة ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٦ ــ ١٩٩٦ .
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك : ابن هشام الأنصاري ، تحـ محمود مصطفى حلاوي ، دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ، ١٩٩٨م.
- أيسر التفاسير لكلام العليّ الكبير : أبو بكر الجزائريّ ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنوّرة ، ١٤١٨هـ ــ ١٩٩٧م .
- الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع) : جلال الدين القزويني ، مكتبة محمد علي صبيح ، القاهرة ، ١٩٧١م.
- الإيضاح لتلخيص المفتاح (ضمن بغية الإيضاح) : شرح عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٩٩١م.
- البحر المحيط : أبو حيان الأندلسي ، دراسة وتحقيق عادل أحمد عبد الموجود ، وعلي محمد معوّض وزكريا عبد المجيد النوني وأحمد النجولي الجمل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٣م.
- البرهان في علوم القرآن : بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، تحـ محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٨م.
- البلاغة العربية (قراءة أخرى) : محمد عبد المطّلب ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونجمان ، القاهرة ، ١٩٩٧م.
- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني : فاضل السامرّائي ، دار عمّار ، الأردنّ، ١٤٢٢هـ ــ ٢٠٠١م .
- البيان في روائع القرآن – دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني : تمّام حسّان ، مهرجان القراءة للجميع ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ، ٢٠٠٣م.
- تاج العروس من جواهر القاموس : المرتضى الزبيدي ، تحـ علي شيري ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٩٤م.

- تأويل اللفظة باللفظة ذواتي الجذر الواحد في القرآن الكريم – دراسة نحوية دلالية : عبد الله محمد زين بن شهاب ، رسالة دكتوراه ، جامعة صنعاء ، كلية الآداب ، ٢٠٠٤ م .
- تأويل مشكل القرآن : عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري : إعداد ودراسة عمر محمد سعيد عبد العزيز ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٩م.
- التبيان في إعراب القرآن : العكبري ، تحـــ علي محمد البجاوي ، مكتبة عيسى الحلبي ، القاهرة ، ١٩٧٤م .
- التحرير والتنوير: ابن عاشور ، مؤسسة التاريخ ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٠م .
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي : المباركفوري ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٥هـــ ـــ ١٩٩٥م .
- التحقيق في أحاديث الخلاف : ابن الجوزي ، تحـــ : مسعد عبد الحميد محمد السعدني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٥هـــ.
- تحولات البنية في البلاغة العربية : أسامة البحيري : دار الحضارة للطبع والنشر والتوزيع ،القاهرة ، ٢٠٠٠م.
- التسهيل لعلوم التنزيل : محمد بن محمد الغرناطي الكلبي ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، ١٤٠٣هـــ-١٩٨٣م .
- التصوير الفني في القرآن : سيد قطب ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٨٣م.
- تفسير الجلالين: الجلال المحلي والجلال السيوطي ، دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت ، ١٩٩٨م.
- تفسير القرآن العظيم : ابن كثير ، تحـــ سامي بن محمد سلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ١٩٩٩م.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد : ابن عبد البرّ القرطبي ، تحـــ : مصطفى ابن أحمد العلوي ، محمد عبد الكبير البكري ، وزارة عموم الأوقاف والشئون الإسلامية ، المملكة المغربية ، ١٣٨٧هـــ .

- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، تحـــ عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ٢٠٠٢م.
- الثنائيات اللسانية : د/ التهامي الراجي الهاشمي ، سلسلة الدراسات اللغوية رقم (٣) ، طبع ونشر دار النشر المغربية ، الرباط ، ١٩٨١م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تحـــ أحمد محمد شاكر ، دار الرسالة ، مصوّرة دار المعارف ٢٠٠٠م.
- الجامع لأحكام القرآن : القرطبي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، مصورة طبعة دار الكتب المصرية ١٩٩٦م.
- حاشية الخضري : مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٣٥٩.
- الخصائص : أبو الفتح عثمان بن جني ، تحـــ محمد علي النجّار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٩م .
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور : السيوطيّ ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ٢٠٠٠م .
- الدراري المضيئة شرح الدرر البهية : الشوكاني : دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٧م .
- دراسات في النظم الصوتي الصرفي : أحمد علم الدين الجندي ، مجلة مجمع اللغة العربية ، ج ٦١ ، ربيع الأول ، ١٤٠٨ هـــ ـــ نوفمبر ١٩٨٧ م .
- دراسات في علم الصرف : عبد الله درويش ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ، ١٩٦٢م.
- دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، محمد عبد الخالق عضيمة ، دار الحديث، القاهرة ، ١٩٧٥.
- دُرَّة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز: الخطيب الإسكافيّ ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ١٤١٦هـــ ـــ ١٩٩٥م .
- دلائل الإعجاز في علم المعاني: عبد القاهر الجرجاني ، تصحيح وتعليق محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٨٢م.

- دور الصرف في منهجي النحو والمعجم : محمّد خليفة الدنّاع ، رسالة ماجستير ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٣م .
- ديوان أبي الأسود الدؤلي : صنعة أبي سعيد السكري ، تحـ الشيخ محمد حسن آل ياسين ، مؤسسة إيف ، بيروت ، ١٩٨٢م .
- ديوان أبي الطيب المتنبي المسمى بالتبيان في شرح الديوان : شرح أبي البقاء العكبري ، ضبط وتصحيح وفهرسة مصطفى السقا ــ إبراهيم الأبياري ــ عبد الحفيظ شلبي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٢٣هـ ــ ٢٠٠٣م .
- ديوان الأدب : الفارابي ، تحـ أحمد مختار عمر ، القاهرة ، ١٩٧٤م.
- ديوان امرئ القيس : تحـ حنا الفاخوري ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٩م .
- ديوان الخنساء : تحـ إبراهيم عوضين، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٤٠٦ــ ١٩٨٦م .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : شهاب الدين الآلوسي ، تصحيح علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٤م.
- زاد المسير : ابن الجوزي : تحـ محمد بن عبد الرحمن عبد الله ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٧م.
- زاد المعاد في هدي خير العباد : ابن قيم الجوزيّة ، تحـ محمد بيومي ــ عمر الفرماوي ــ عبد الله المنشاوي ، مكتبة الإيمان ، المنصورة ، ١٤٢٠هـ ــ ١٩٩٩م .
- سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقَّة من أصل لغوي واحد : عودة الله منيع القيسي ، دار البشير ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٩٦م.
- ســرّ الفصاحة : ابن سنان الخفاجي ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ١٩٨٢م ــ ١٤٠٢هـ .
- شذا العرف في فن الصرف : الشيخ أحمد الحملاوي ، دار الفكر ، بيروت، لبنان ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

- شرح التصريح على التوضيح : خالد الأزهري ، طبعة دار الفكر ، بيروت.
- شرح الرضي على الشافية ، استانبول ، مطبعة أحمد كامل .
- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات : أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري ، تحــ عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، مصر ، ١٤٠٠هــ-١٩٨٠م.
- شرح قطر الندى وبلِّ الصدى : ابن هشام الأنصاري ، تحــ محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٨٣هــ ــ ١٩٦٣م .
- شرح قطر الندى وبل الصدى : ابن هشام الأنصاري ، تحــ محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الطلائع ، القاهرة ، ٢٠٠٤م .
- شعرية القصيدة – قصيدة القراءة : عبد الملك مرتاض ، دار المنتخب العربي ، بيروت ، ١٤١٤هــ - ١٩٩٤م .
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان : تحــ شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٤هــ ــ١٩٩٣م.
- صحيح ابن خزيمة : تحــ محمد مصطفى الأعظميّ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٣٩٠ ، ١٩٧٠م .
- صحيح البخاري : تحــ مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير ، دمشق،بيروت، ١٤١٤هــ ــ ١٩٩٣م .
- صحيح مسلم بشرح النووي : تحــ عصام الصبابيطي ــ حازم محمّد ــ عماد عامر ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤١٥هــ ــ ١٩٩٤م .
- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة : ابن القيم الجوزي ، تحــ علي بن محمد الدخيل الله ، دار العاصمة ، بيروت ، ١٩٨١م.
- الصيغة الصرفية ودلالتها على المستويين الصرفيِّ والنحويِّ : صلاح محمد مصطفى روّاي ، رسالة دكتوراه ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٩م .

- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق علوم الإعجاز :يحيى بن حمزة العلوي ، بعناية سيد بن علي المرصفي ، دار الكتب الخديوية . القاهرة ، ١٩١٤ .
- ظاهرة التحويل في الصيغ الصرفية : محمود سليمات ياقوت ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٥م.
- ظاهرة العدول في اللغة العربية : محمد إبراهيم عبد السلام ، رسالة ماجستير ، جامعة أمّ القرى ، ١٩٨٩ .
- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح : بهاء الدين السبكي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٣٣٤هـ .
- علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته ، صلاح فضل : دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٨م.
- علم الاشتقاق نظرياً وتطبيقياً : محمد حسن حسن جبل ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ٢٠٠٦م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : لابن رشيق القيرواني ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٩٦م ـ ١٤١٦هـ .
- غريب الحديث : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي ، تحـ : عبد المعطي أمين قلعجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٥م.
- غريب الحديث : أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي ، تحـ محمد عبد المعيد خان ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٣٩٦هـ- ١٩٧٦م.
- الفائق في غريب الحديث : الزمخشري ، تحـ : علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة عيسى الحلبي ، القاهرة ، ١٩٧١.
- فتح القدير : الشوكاني ، تحـ عبد الرحمن عميرة ، دار الوفاء ، المنصورة ، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م .
- الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري ، تحـ عماد زكي الباروي ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة .

- فقه اللغة وسر العربية : لأبي منصور الثعالبي ، تحـ مصطفى السقّا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ، دار الفكر ، لبنان ، بدون طبعة وبدون تاريخ .
- في ظلال القرآن الكريم : سيد قطب ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٧٢م .
- القراءات الشاذّة : لابن خالويه ، دار الكنديّ ، إربد ، الأردنّ ، ٢٠٠٢م .
- القراءة الأسلوبية بين الإنشائية والهيكلية : ثامر غازي : مجلة (علامات في النقد) ، ج٣٣ ، مج ٩ ، سبتمبر ، ١٩٩٩م.
- قضايا الشعرية ، رومان جاكبسون ، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون ، الدار البيضاء ، دار توبقال ، ١٩٨٨م .
- قواعد تحويلية للغة العربية : محمد علي الخولي ، دار المريخ ، ١٩٨١م.
- الكتاب : سيبويه ، تحـ عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ط١ .
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، ١٩٨٧م.
- الكليات : أبوالبقاء أيوب بن موسى الكفوي ، تحـ : عدنان درويش ، محمد المصري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٨م.
- اللّباب في علل البناء والإعراب : أبو البقاء العكبريّ ، تحـ غازي مختار طليمات ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ـ دار الفكر ، دمشق ، ١١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م .
- لسان العرب : ابن منظور، تصحيح أمين محمّد عبد الوهاب ومحمّد الصادق العبيديّ ، دار إحياء التراث العربيّ ، مؤسسة التاريخ العربيّ ، بيروت ، ط٣ .
- اللسانيات واللغة العربية نماذج تركيبية ودلالية : عبد القادر الفاسي الفهري، دار الشئون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٢م .

- اللغة : فندريس ، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٠م.
- اللغة العربية معناها ومبناها : تمام حسان ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٨م.
- اللغة واللون : أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٧م .
- اللغة والمسئولية : نعوم تشومسكي ، ترجمة حسام البهنساوي ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، ١٩٩٩م.
- اللُّمع في العربية : ابن جني ، تحـــ حامد المؤمن ، عالم الكتب ، مكتبة النهضة العربية ، بيروت ، ١٤٠٥هـــ - ١٩٨٥م .
- مباحث في علوم القرآن : مناع القطان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٨م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير الجزريّ ، قدّمه وعلّق عليه أحمد محمّد الحوفي وبدوي طبانة ، دار نهضة مصر ، ١٩٧٣م .
- المجتبي من السنن (سنن النسائي) : تحـــ عبد الفتاح أبو غُدّة ، مكتب المطبوعات الإسلامية ،حلب ، ١٤٠٦هـــ - ١٩٨٦م.
- محاسن التأويل : للقاسمي ، تحـــ محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٩٤م .
- مختصر سيرة الرسول صلّى الله عليه وسلّم : لمحمد بن عبد الوهاب ، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ، المملكة العربية السعودية ، ١٤١٨هـــ .
- مختصر في شواذّ القراءات : لابن خالويه ، عالم الكتب ، بيروت ، بدون طبعة وبدون تاريخ .
- المخصص : علي بن إسماعيل بن سيده ، دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، ١٩٩٦م .

- مدارك التنزيل وحقائق التأويل :النسفي ، تحـــ مروان محمد الشقار ، دار النفائس ، بيروت ، ١٩٩٦م.
- مراح لبيد (التفسير المنير لمعالم التنزيل المسفر عن وجوه محاسن التأويل) : محمّد نووي الحاوي ، طبعة دار إحياء الكتب العربية ، بدون تاريخ .
- مسائل خلافية في النحو : أبو البقاء العكبري ، تحـــ محمد خير الحلواني ، دار الشروق العربي، بيروت ، ١٩٩٢م.
- المستدرك علي الصحيحين : الحاكم النيسابوري : تحـــ مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١١هــ ١٩٩٠م.
- المصباح المنير : الفيّومي ، دار الحديث ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- المصنّف في الأحاديث والآثار : ابن أبي شيبة ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٤ هــ ــ ١٩٩٤م .
- المطوّل : سعد الدين التفتازاني ، مطبعة أحمد كامل ، استانبول ، ١٣٣٠هــ.
- معالم التنزيل : أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي ، تحـــ محمد عبد الله النمر ، عثمان جمعة ضميرية ، سليمان مسلم الحرش ، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٩٧٤م.
- معاني الأبنية : فاضل السامرائي ، دار عمّار ، الأردنّ ، ١٤٢٦هــ ــ ٢٠٠٥م .
- معاني القرآن : الفراء: إعداد ودراسة إبراهيم الدسوقي عزيز ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٩م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب :ابن هشام الأنصاري ، تحـــ محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ١٤١١هــ -١٩٩١م.
- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) : الفخر ا لرازي : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٩٥م.
- مفتاح العلوم : أبويعقوب السكاكي ، القاهرة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٣٥٦ هــ ــ ١٩٣٧م .

- المفردات في غريب القرآن : الراغب الأصفهاني ، تحـــ : محمد خليل عيتاني ، دار المعرفة ، بيروت ، ٢٠٠٥م.
- المفضليات : المفضل الضبي ، تحـــ محمد نبيل طريفي ، دار صادر ، بيروت ، ١٤٢٤ هــ ــ ٢٠٠٣م .
- المقتضب : أبو العباس المبرِّد ، تحـــ محمَّد عبد الخالق عضيمة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلاميَّة ــ لجنة إحياء التراث الإسلاميِّ ، القاهرة ، ١٣٨٨هــ .
- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل : ابن الزبير الغرناطي ، تحـــ سعيد الفلّاح ، دار الغرب الإسلاميّ ، بيروت ، ١٤٠٣هــ ــ ١٩٨٣م .
- الممتع في التصريف : ابن عصفور ، تحـــ فخر الدين قباوة ، دار الآفاق الجديدة ، ١٣٩٠هــ ــ ١٩٧٠م.
- الموطأ : مالك بن أنس ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٩ هــ ــ ١٩٩٨م .
- النهاية في غريب الحديث والأثر : أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري ، تحـــ طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناجي ، مكتبة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٧١م .
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع : للسيوطي : تحـــ أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٨م.
- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : الواحدي ، تحـــ صفوان عدنان داوردي، دار القلم ، دمشق ــ الدار الشامية ، بيروت ، ١٤١٥هــ ــ ١٩٩٥م .